جعل الله تعالى هذا الكتاب إمامها بما يجب عليها من التوبة عن مخالفة ما هداها اليه من دين الله القويم وصراطه المستقيم، وتنكب ما أرشدها اليه من سننه في خلقه

هـذا ما تيسر التذكير به من أصول علوم الدين والدنيا في هذه السورة بقدر ما تذكرناه وقت كتابته، والفكر في بلبال والقلب في آلام، والزمن غير مساعد على محاولة الاستقصاء، على ان الاحاطة بعلوم القرآن، ليست في استطاعة إنسان، فهي تتجدد في كل زمان، ويهب الله منها الاواخر، مالم يهب الاوائل، ويمنح بعض الضعفاء، ما لا يمنح الاقوياء، وقد أدمجنا في هذه الاصول وفي الكلام على أركان العقائد الثلاث قبلها أصولا كثيرة لو بسطت لطال الكلام، كانواع شهادة الله لرسوله بصدقه ومعجزات القرآن وعلومه المشار اليها في الآيتين ١١٣ و ١١٤ واعداء الرسل وتغريرهم والانخداع بهم في الآيتين قبلهما، وهن في أول الجزء الثامن، وغير ذلك. وبهذا نختم تفسير هذه السورة. ونسأله تعالى أن يلهمنا الصواب، ويجعلنا ممن تاب وأناب، ويوفقنا لاتمام تفسير الكتاب، ويؤتينا فيه الحكمة وفصل الخطاب. آمين

سورة الاعراف ٧

(وهي السورة السابعة في العدد، وسادسة السبع الطول؛ وآياتها ٢٠٥ آيات عند القراء البصريين والشاميين، و ٢٠٦ عند المدنيين والكوفيين)

الاعراف مكية بالاجماع وقد أطلق القول في ذلك عن ابن عباس وابن الزبير، واستثنى قتادة آية (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) رواه عنه أبو الشيخ وابن حبان، قال السيوطي في الاتقان: وقال غيره: من هنا الى (واذ أخذ ربك من بني آدم) مدني اهـ وكأن قائل هذا رأى ان هذه الآيات متصل بعضها ببعض بالمعنى فلا يصح أن يكون بعضها مكيا وبعضها مدنيا. وبهذا النظر نقول: ان ما قبل هذه الآيات وما بعدها في سياق واحد وهو قصة بني اسرائيل على ان الغاية وهي (واذ أخذ ربك) غير داخلة في المغيا فهي بدء سياق جديد عام. ومقتضى ذلك ان السورة كلها مكية وهو الصحيح المختار

مناسبتها لما قبلها

سورة الاعراف أطول من سورة الانعـام فلو كان ترتيب السبع الطول

مراعى فيه تقديم الاطول فالاطول مطلقا لقدمت الاعراف على الانعام على انه قد روي انها نزلت قبلها ، — والظاهر انها نزلت دفعة واحدة مثلها، — فلم يبق وجه لتقديم الانعام الا أنها أجمع لما تشترك السورتان فيه وهو أصول العقائد وكليات الدين التي أجملنا جل أصولها في خاتمة تفسيرها، وكون ما أطيل به في الاعراف كالشرح لما أوجز به فيها أو التفصيل بعد الاجمال، ولا سيما عموم بعثة النبي (ص) وقصص الرسل قبله وأحوال أقوامهم . وقد بينا بعض هذا التناسب بين السورتين مع ما قبلهما في فاتحة تفسير الاولى ، (ص ٢٨٨ ج ٧ تفسير) وسنزيده تفصيلا فيما نذكره في خاتمة الاعراف على نحو ما ذكرنا في خاتمة الانعام من الاصول الكلية فيها إن أحيانا الله تعالى وأما سبب تأخر نزول الانعام فهو مبني على ما علم من التدريج في تلقين الدين ومراعاة استعداد المخاطبين فيه وهي أجمع للاصول الكلية ولرد شبهات المشركين، والفرق ظاهر بين ما يراعى من الترتيب في دعوتهم وما يراعى في تلاوة المؤمنين للقرآن ،

وذكر السيوطي في المناسبة بين السورتين ما نقله الآلوسي عنه وهو أن سورة الانعام لما كانت لبيان الخلق وفيها (هو الذي خلقكم من طين) وقال سبحانه في بيان القرون (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) وأشير الى ذكر المرسلين وتعداد الكثير منهم وكان ما ذكر على وجه الاجمال — جيء بهذه السورة بعدها مشتملة على شرحه وتفصيله فبسط فيها قصة آدم وفصلت قصص المرسلين وأممهم وكيفية هلاكهم أكمل تفصيل . ويصلح هذا ان يكون تفصيلا لقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) ولهذا صدّر السورة بخلق آدم الذي جعله خليفة في الارض ، وقال سبحانه في قصة عاد (جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) وفي قصة ثمود (جعلكم خلفاء من بعد عاد) وأيضاً فقد قال سبحانه فيما تقدم (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وهو كلام موجز وبسطه سبحانه هنا بقوله (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) الخ وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الاولى فهو انه قد تقدم (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه* (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) وافتتح هذه بالامر باتباع الكتاب .. وأيضاً لما تقدم (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) قال جل شأنه في مفتتح هذه السورة (فلنسألن الذين

أرسل اليهم) الخ . وذلك من شرح التنبئة المذكورة . وأيضاً لما قال سبحانه (من جاء بالحسنة) الآية وذلك لا يظهر الا في الميزان افتتح هذه بذكر الوزن فقال عز من قائل (والوزن يومئذ الحق) ثم من ثقلت موازينه هو من زادت حسناته على سيئاته، ثم من خفت وهو على العكس ، ثم ذكر أصحاب الاعراف وهم في أحد الاقوال من استوت حسناتهم وسيئاتهم اه ونكتفي بهذا مع ما أشرنا اليه قبله هنا وان كان من السهل بسطه بأوضح من هذه العبارة والزيادة عليه، ونشرع في تفسير السورة مستعينين عليه بالهامه وتفهيمه عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)

﴿ المص ﴾ هذه حروف مركبة في الرسم بشكل كلمة ذات أربعة أحرف ولكنها تقرأ بأسماء هذه الاحرف ساكنة هكذا : ألف، لام ، ميم ، صاد . والمختار عندنا ان حكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مسمى تلك الحروف التي يتركب منها الكلام هي تنبيه السامع الى ماسيلقى اليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شيء ، فهي كاداة الافتتاح « ألا » وهاء التنبيه . وإنما خصت سور معينة[1] من الطول والمئين والمثاني والمفصل بهذا الضرب من الافتتاح لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتلوها على المشركين بمكة لدعوتهم بها الى الاسلام واثبات الوحي والنبوة ، — وكلها مكية الا الزهراوين البقرة وآل عمران، وكانت الدعوة فيهما موجهة إلى أهل الكتاب — وكلها مفتتحة بذكر الكتاب الا سورة مريم وسورتي

١) وهي ٢٩ سورة بعدد حروف الهجاء العربية بعد الالف اللينة منها وهي نصف تلك الاحرف المستقلة اذا لم تعد منها لانها لا ينطق بها وحدها ومن الغريب انها جامعة لكل مخارج الحروف

العنكبوت والروم وسورة ن . وفي كل منها معنى مما في هذه السور يتعلق باثبات النبوة والكتاب ؛

فأما سورة مريم فقد فصلت فيها قصتها بعد قصة يحيى وزكريا المشابهة لها ، ويتلوهما ذكر رسالة ابراهيم وموسى واسماعيل وادريس مبدوءا كل منها بقوله تعالى (واذكر في الكتاب) والمراد بالكتاب القرآن ، فكأنه قال في كل من قصة زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى «واذكر في الكتاب...» وذكر هذه القصص في القرآن من دلائل كونه من عند الله تعالى لان النبي (ص) لم يكن يعلم هذا لاهو ولا قومه كما صرح به في سورة هود بعد تفصيل قصة نوح مع قومه بقوله (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ان العاقبة للمتقين) وكما قال في آخر سورة يوسف بعد سرد قصته مع اخوته (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا امرهم وهم يمكرون) وختمت هذه السورة (أي سورة مريم) بابطال الشرك وإثبات التوحيد ونفي اتخاذ الله تعالى للولد وتقرير عقيدة البعث والجزاء ؛ فهي بمعنى سائر السور التي كانت تتلى للدعوة ويقصد بها اثبات التوحيد والبعث ورسالة خاتم النبيين وصدق كتابه الحكيم

وأما سورة العنكبوت وسورة الروم فكل منهما قد افتتحت بعد (الم) بذكر أمر من أهم الامور المتعلقة بالدعوة ؛ فالاول الفتنة في الدين ، وهي ايذاء الاقوياء للضعفاء واضطهادهم لاجل ارجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة ، كان مشركو قريش يظنون أنهم يطفئون نور الاسلام ويبطلون دعوته بفتنتهم للسابقين اليه وأكثرهم من الضعفاء الذين لا ناصر لهم من الاقوياء بحمية نسب ولا ولاء . وكان المضطهدون من المؤمنين يجهلون حكمة الله بظهور أعدائه عليهم ، فبين الله في فاتحة هذه السورة ان الفتنة في الدين من سننه تعالى في نظام الاجتماع يمتاز بها الصادقون من الكاذبين ، ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، وتكون العاقبة للمتقين الصابرين . فكانت السورة جديرة بأن تفتتح بالحروف المنبهة لما بعدها . والامر الثاني الذي افتتحت به سورة الروم هو الانباء بأمر وقع في عهد النبي (ص) ـ ولما يكن وصل خبره الى قومه ـ وبما سيعقبه مما هو في ضمير الغيب ، ذلك ان دولة فارس غلبت دولة الروم في القتال الذي كان قد طال أمره بينهما فأخبر الله رسوله (ص) بذلك وبأن الامر سيدول وتغلب الروم الفرس في مدى بضع

سنين، وبأن الله تعالى ينصر في ذلك اليوم المؤمنين على المشركين. وقد صدق الخبر وتم الوعد فكان كل منهما معجزة من أظهر معجزات القرآن، والآيات المثبتة لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام، ولو فات من تلاها عليهم النبي (ص) كلمة من أولها لما فهموا مما بعدها شيئاً، فكانت جديرة بأن تبدأ بهذه الحروف المسترعية للاسماع المنبهة الاذهان، وكان هذا بعد انتشار الاسلام بعض الانتشار، وتصدي رؤساء قريش لمنع الرسول (ص) من الدعوة وتلاوة القرآن على الناس ولاسيما في موسم الحاج، وكان السفهاء يلغطون اذا قرأ ويصخبون، (وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

وأما سورة (ن) ففاتحتها وخاتمتها في بيان تعظيم شأن الرسول صاحب الدعوة (ص) ودفع شبهة الجنون عنه، وهي أول ما نزل بعد سورة (اقرأ باسم ربك) وكانت شبهة رميه ـ حماه الله وكرّمه ـ بتهمة الجنون مما يتبادر الى الاذهان من غير عداوة ولا مكابرة. فان رجلا أمياً فقيراً، وادعا سالما، ليس برئيس قوم، ولا قائد جند، ولا ذي تأثير في الشعب، بخطابة ولا شعر، يدعي ان جميع البشر على ضلال الكفر والفسق، وأنه مرسل من الله لهداية هؤلاء الخلق، وان دينه سيهدي العرب والعجم، وإصلاح شرعه سيعم جميع الامم، أفيستغرب من مدارك أولئك المشركين الاميين، الجاهلين بسنن الله في الامم، وآياته في تأييد المرسلين، أن يكون أول ما يصفون به صاحب هذه الدعوى قبل ظهور الآيات والعلوم بقولهم «انه لمجنون»[1] وبعد ظهور الآيات بقولهم « ساحر أو كاهن أو مجنون »[2] وبعد ظهور العلم والعرفان بقولهم « معلم مجنون »؟[3] (٥١ : ٥٢ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون (٥٣) أتواصوا به؟ بل هم قوم طاغون)

نعم قد قيل: إن (ن) هنا بمعنى الدواة ولذلك قرن بالقلم لبيان أن هذا الدين يقوم بالعلم والكتابة، وقيل إنه بمعنى الحوت لان في السورة ذكرا لصاحب الحوت يونس عليه السلام، ولو صح هذا أو ذاك لما كتبت النون مفردة ونطقت ساكنة، بل كانت تذكر مركبة ومعربة، كقوله (وذا النون اذ ذهب مغاضبا) وإنما يصح أن يكون فيها إشارة الى ما ذكر كما يصح في سائر

(١) هو ما حكاه عنهم في آخر سورة (ن) بعد الرد عليهم في اولها وفي أوائل سورة الحجر (٢) أشير اليه في سورة الطور (٣) حكاه عنهم في سورة حم الدخان

تلك الحروف أن يكون فيها إشارات الى معاني معينة تظهر لبعض الناس دون بعض، أو غير معينة تذهب فيها الافهام مذاهب تفيد أصحابها علما أو عبرة ، بشرط أن تتفق مع هداية القرآن وإن لم يصح أن يقال: إنها مرادة لله تعالى بحسب دلالة الالفاظ العربية على معانيها

ومن هذا القبيل الاخير جعل بعض مفسري السلف هذه الاحرف مقتطعة من أسماء الله تعالى ، أو من جمل من الكلام تشتمل عليها . أخرج اكثر رواة التفسير المأثور والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس في (المص) قال أنا الله أفصل، ورواه ابن جرير عن سعيد بن جبير، وروى هو وابن أبي حاتم عن السدي فيه قال: هو المصور . وروى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد ابن كعب القرظي فيه قال : الالف من الله ، والميم من الرحمن ، والصاد من الصمد . وأبو الشيخ عن الضحاك فيه قال : أنا الله الصادق . وروى أبناء جرير والمنذر وأبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله (المص وطه وطسم وحمعسق وق ون) وأشباه هذا أنه قسم أقسم الله به وهي من أسماء الله تعالى

وأقرب من هذا الى الفهم أنها أسماء للسور — والاسم المرتجل لا يعلل — وهو ما اخترناه في تفسير ألم من سورتي البقرة وآل عمران، وهو لا ينافي ما بيناه من الحكمة آنفا وهي التي فتح علينا بها في درس التفسير الذي كنا نلقيه في مدرسة دار الدعوة والارشاد وقد فصلناه فيه أتم تفصيل ، اذ أثبتنا أن من حسن البيان وبلاغة التعبير ، التي غايتها إفهام المراد مع الاقناع والتأثير ، أن ينبه المتكلم المخاطب الى مهمات كلامه والمقاصد الاولى بها ، ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها، ويجتهد في انزالها من نفسه في أفضل منازلها، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها، لكيلا يفوته شيء منها ، وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه وأداة الاستفتاح، فاي غرابة في ان يزيد عليها القرآن ، الذي بلغ حد الاعجاز في البلاغة وحسن البيان، ويجب ان يكون فيها الامام المقتدى، كما انه هو الامام في الاصلاح والهدى؟ ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت ، وتكييفه بما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر ، أو غنة الاسترحام والعطف، أو رنة النعي واثارة الحزن، أو نغمة التشويق والشجو ، أو هيمة الاستصراخ عند الفزع ، أو صخب التهويش وقت الجدل ، ومنه الاستعانة

بالاشارات ، وتصوير المعاني بالحركات (*) ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة أو وضع خط فوقها أو تحتها

(*) مما شرحناه في ذلك الدرس أن الشعراء والخطباء من العرب وأدباء المولدين كانوا يراعون في إلقاء الكلام وانشاد الشعر مناسبة الصوت للمعنى ومراعاة تأثيره في النفس، حتى رووا عن عليان المحرور (الموسوس) أنه سئل أي بيت تقوله العرب أشعر قال البيت الذي لا يحجب عن القلب . قيل مثل ماذا ؟ قال مثل قول جميل :

ألا أيها النوام ويحكم هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

وكنت أحفظ أنه رفع صوته بالمصراع الاول وخفضه ورققه بالمصراع الثاني وعلله بأنه خاطب بالاول غافلين ساهم نواما فانه اراد الايقاظ والتنبيه، وخاطب بالثاني مستيقظين يسألهم عن أمر يرقله القلب ويخشع له الصوت ، ولكني راجعت العقد الفريد فرأيته ينقل عنه أنه عكس في الصوت وعلله بقوله: ألا ترى النصف الاول كيف استأذن على القلب فلم يأذن له، والنصف الثاني استأذن على القلب فأذن له .

وأنه قد ورد الامر في القرآن نفسه بترتيله وقراءته على مكث، والحث على الخشوع فيه والتأثر بقراءته، وفي المسند والسنن من حديث البراء بن عازب أن النبي (ص) قال «زينوا القرآن بأصواتكم» وفي رواية «حسنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» وكان أهل البصيرة في الدين الجامعين بين العلم والعمل والتخلق يراعون في التلاوة المعاني وما يؤثر في القلب

قال أبو حامد الغزالي في الادب الثامن من آداب التلاوة الباطنة وهو (التأثر): هو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ، ثم قال : فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط — «أي كقوله تعالى (واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)» — يتضاءل من خيفته كانه يكاد يموت — وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كانه يطير من الفرح — وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطاطا خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته — وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذكرهم لله عز وجل ولدا وصاحبة يغض من صوته و ينكسر في باطنه حياء من قبح مقالتهم — وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقا اليها — وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها ، اه وقد ذكر في موضع آخر أن بعضهم قرأ قوله تعالى حكاية عن فرعون (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى) خفض صوته كالمستحي من الله عز وجل

أقول والواجب في مثل ماذكر أن يكون خاليا من التكلف والصنعة التي يقصد بها التاثير في قلوب الناس ليكسب اعجابهم كما يفعل المراؤون ، ولكن بعض المسلمين

هذا واني بعد ان هديت الى هذه الحكمة لبدء سور مخصوصة بهذه

أتبعوا في هذا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم الذين جعلوا عباداتهم أغاني ومعازف مطربة أو مشجية لاستمالة الناس اليهم

وقد ورد في الحديث « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وايا كم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق فانه سيجيء أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية لايجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبه شانهم » رواه الطبراني والبيهقي

قال السخاوي في كتابه جمال القراء: قد ابتدع الناس في قراءة القرآن أصوات الغناء . . . ومما ابتدعوه شيء سموه الترعيد وهو أن يرعد صوته كانه يرعد من برد أو ألم — وآخر سموه الترقيص وهو أن يروم الوقوف على الساكن ثم ينفر مع الحركة كانه في عدو او هرولة — وآخر يسمونه التطريب وهو أن يترنم بالقرآن ويتنغم به فيمد في غير موضع المد ويزيد على المد مالاينبغي — وآخر يسمى التحزين وهو أن يأتي على وجه حزين يكاد يبكي مع خشوع وخضوع . اه المراد منه . وهذا الاخير اذا كان خشوعا وخضوعا خالصا لله فهو حسن ولكن القبيح اذا كان تكلفا يقصد به الرياء والسمعة . وقد قال الله تعالى في العلماء الذين يتلى عليهم القرآن (ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) وكان النبي والصحابة وغيرهم من السلف يبكون لقراءة القرآن وسماعه وما زال المؤمنون الخاشعون كذلك . وفي حديث سعد بن مالك مرفوعا «ان هذا القرآن نزل بحزن وكآبة فاذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا » رواه البيهقي في الشعب، والمراد بالتباكي تكليف البكاء على سبيل تربية النفس وتعويدها، من باب «والحلم بالتحلم» لا تكلف المرائين

ولا شك في أن كل مؤمن وكل محب للاطلاع على الحقائق والوقائع المؤثرة في أطوار البشر يعتقد أن قراءة النبي (ص) للقرآن كانت أعظم المؤثرات في ايصال علمه وهدايته الى القلوب المستعدة والعقول المفكرة . ولو حفظت تلاوته (ص) في آلة كالآلات الحافظة للاصوات المعيدة لها الموجودة اليوم لبذل المؤمنون به وغير المؤمنين الالوف من الدنانير في سماعها . وقد صور ذلك أحد فلاسفة الفرنسيس فقال في الرد على من زعموا أن النبي (ص) لم يؤيد في دعوته بمثل ما أيد به موسى وعيسى ما معناه : كان محمد (ص) يقرأ القرآن على الناس في حال تاثر وتاثير (١) فيكون لتلاوته من جذب سامعيه الى الايمان به ما هو أعظم من كل ما فعلت آيات من قبله في جذب الناس الى الايمان بهم اه الله أكبر اني لأمثل في نفسي

(١) في اللغة الفرنسية كلمة مفردة لهذا المعنى

الاحرف بحثت عن سلف لي في ذلك فراجعت التفسير الكبير للرازي لسعة اطلاعه وبسطه لكل ما اطلع عليه ولم أكن اقرأ مثل هذا منه فألفيته قد ذكر للناس قولين في هذه الاحرف (أحدهما) انها علم مستور وسر محجوب استأثر الله تعالى به وانه روي عن أبي بكر الصديق (رض) انه قال : في كل كتاب سر وسره في القرآن أوائل السور ، وعن علي كرم الله وجهه : ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي (ونقول قد نقل أهل الاثر عن الخلفاء الاربعة وابن مسعود أن هذه الحروف مما استأثر الله بعلمه.) ثم ذكر ان المتكلمين انكروا هذا القول واحتجوا عليه بالآيات، والاحاديث، والمعقول ، وفصل ذلك (ثانيهما) ان معناها معلوم ونقل من أقوالهم فيها ٢١ قولا ، الثاني عشر منها قول ابن روق وقطرب[1] ان الكفار لما قالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وتواصوا بالاعراض عنه أراد الله تعالى لما أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم مالا يعرفونه ليكون سبباً لاسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن فأنزل الله عليهم هذه الحروف فكانوا اذا سمعوها قالوا كالمتعجبين: اسمعوا الى ما يجيء به محمد — عليه السلام — فاذا أصغوا هجم عليهم القرآن، فكان ذلك سبباً لاستماعهم ، وطريقاً الى انتفاعهم . اهـ ثم سمى هذا حكمة في مواضع أخرى ، وهو كما قلنا ، ثم علمت ان للشيخ محيي الدين بن عربي تفسيرا مختصرا اقتصر فيه على هذا المعنى

وفي شرح الاحياء بعد ذكر القول بان هذه الحروف تنبيهات مانصه : قال الحوفي القول بانها تنبيهات جيد لان القرآن كلام عزيز وفوائده عزيزة فينبغي أن يرد على سمع منتبه فكان من الجائز أن يكون قد علم في بعض الاوقات كون النبي (ص) في عالم البشر مشغولا فأمر جبريل بان يقول عند نزوله : ألم، وحم ، ليسمع النبي (ص) صوت جبريل فيقبل عليه ويصغي اليه (قال) وانما

= قراءته (ص) لسورة ق على المنبر ، وأقرأها مما أقدر عليه من الاسوة ، فتخنقني العبرة ، وتكاد تقتلني فتحبني العبرة . (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) فليجر به (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)

(١) ابن روق هو محمد بن الحسن بن عبدالله بن روق الراسبي الروقي المحدث مات سنة ١٦٨ وقطرب لقب اللحوي المشهور صاحب المعلقات وهو أبو علي محمد ابن المستنير مات سنة ٢٠٦ وقد أشار الى هذا ابن جرير ولم يزه الى معين

لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كألا وأما لانها من الالفاظ التي تعارفها الناس في كلامهم والقرآن كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد ليكون أبلغ في قرع سمعه اه وقيل ان العرب اذا سمعوا القرآن لغوا فيه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم له واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده فترق القلوب وتلين الافئدة اه

وأقول: إن جعل التنبيه للنبي (ص) مستبعد وقد كان يتنبه وتغلب الروحانية على طبعه الشريف بمجرد نزول الروح الامين عليه ودنوّه منه كما يعلم مما ورد في نزول الوحي من الاحاديث الصحيحة، ولا يظهر فيه وجه تخصيص بعض السور بالتنبيه. وانما كان التنبيه أولا وبالذات للمشركين في مكة، ثم لاهل الكتاب في المدينة كما تقدم قريبا اذ كان المؤمنون يتوجهون بكل قواهم الى ما يتلوه الرسول ص) عليهم وكله عندهم سواء، فهم مقصودون بهذا التنبيه بالدرجة الثانية

وقد ظهر بما استقصيناه من التتبع انه لم يبين هذه الحكمة احد بمثل ما بيناها به ابتداء ولله الحمد، ولو رأى مثل هذا البيان ابن كثير لما ضعف هذا الوجه اذ نقله موجزا مجملا عن ابن جرير، وقد رجح هو وما ذهب اليه كثير من العلماء من ان حكمة ذكر هذه الحروف بيان إعجاز القرآن بالاشارة الى انه مركب من هذه الحروف المفردة التي يتألف منها جميع الكلام العربي، وقد اطنب في تقرير ذلك من مفسري علماء البلاغة الزمخشري، وتلاه البيضاوي، واختاره من علماء المنقول والمعقول ابن تيمية وتبعه تلميذه الحافظ المزي؛ فيراجع في محله.

﴿ كتاب أنزل اليك ﴾ اذا قيل ان (المص) اسم للسورة فهو مبتدأ خبره كتاب، والا فهذا خبر لمبتدأ محذوف تقديره ذلك كتاب، كقوله: ألم، ذلك الكتاب: وتنكير كتاب للتعظيم والتفخيم، والمراد به على القول الثاني جملة القرآن المشار الى بعضه المنزل بالفعل، وجملة «أنزل اليك» صفة له دالة على كمال تعظيم قدره وقدر من أنزل اليه ولذلك سميت الليلة التي كان بدء نزوله فيها بليلة القدر. وانما قيل «أنزل» ولم يقل أنزله الله أو أنزلناه إيجازاً مؤذنا بان المنزل مستغني عن التعريف، وعن اسناده الى الضمير أو الاسم الصريح، فان هذا الكتاب البديع، لا يمكن أن يكون الا من فوق ذلك العرش الرفيع ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ حرج الصدر ضيقه وغمه، وهو من الحرجة التي هي مجتمع

الشجر المشتبك الملتف الذي لا يجد السالك فيه سبيلا واضحاً ينفذ منه، أو الذي لا يقبل الزيادة كما قال الراغب، وقد فسر الحرج هنا بمعناه اللغوي وروي عن الضحاك بالشك، وروي عن ابن عباس ومجاهد والسدي تفسيره، ووجهوه بان الشك ضرب من ضروب حرج الصدر وضيق القلب . وتقدم تفسير مثله في الانعام (الآية ١٢٤) وقال الراغب في هذه الجملة قيل هي نهي وقيل دعاء، وقيل حكم منه، نحو (ألم نشرح لك صدرك) اه والنهي أو الدعاء عن أمر يتعلق بالمستقبل دليل على انه مظنة الوقوع في نفسه ، وبحسب سنن الله ونظام الاسباب في خلقه ، والامر هنا كذلك، الا ان يحول دون وقوعه مانع كعناية الله وتأييده، فان هذا القرآن أمر عظيم بل هو أعظم شأن بين الله تعالى وبين عباده، وقد كان في أول مانزل منه قوله عز وجل (انا سنلقي عليك قولا ثقيلا) ثم نزل في تفسيره (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وكان ينزل على النبي (ص) في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه الوحي وهو يتفصد عرقا، وكان يكاد يهيم بشدة وقعه وعظم تأثيره حتى كاد يلقي بنفسه من شاهق الجبل، وأي قلب يحتمل وصدر يتسع لكلام الله العظيم، ينزل به عليه الروح الامين ، اذا لم يتول سبحانه بفضله شرحه ، واعانته على حمله ، وهو ما امتن به على رسوله بقوله (الم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك) ؟ فهذا وجه مظنة وقوع الحرج بمعناه اللغوي الاصلي بالنسبة الى الرسول نفسه، وكونه تعالى صرفه عنه بشرحه لصدره . ويصح فيه ان يكون النهي تكوينيا

وله وجه آخر باعتبار تبليغه إياه فانه (ص) كلف به هداية الثقلين، وإصلاح اهل الخافقين، ومن المتوقع المعلوم بالبداهة ان المتصدي لذلك لا بد ان يلقى اشد الايذاء والمقاومة، والطعن في كتاب الله، والاعراض عن آيات الله ، وهي أسباب لضيق الصدر، كما قال تعالى في آخر سورة الحجر (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) وفي آخر سورة النحل بعدها (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) ومثله في سورة النمل. وقال تعالى في اوائل سورة هود (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز او جاء معه ملك ؟ انما انت نذير والله على كل شيء وكيل) والمراد من النهي عن أمر طبعي كهذا الاجتهاد في مقاومته والتسلي عنه بوعد

الله والتأسي بمن سبق من رسله عليهم السلام

فهذان الوجهان الوجيهان ، من تفسير القرآن بالقرآن ، ينافيان ماروي من تفسير الحرج بالشك ، ويغنيان عما تمحله المفسرون في توجيهه بالتأويل الشبيه بالمحك ، وما اكثر ما روي في التفسير بصحيح حتى بالغ الامام أحمد فقال لا يصح فيه شيء ، وماكل ماصح منه مقبول ، الا اذا صح رفعه الى المعصوم ، صلى الله عليه وآله وسلم . وأما قوله تعالى في سورة يونس (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) فهو على سبيل فرض المحال ، المألوف في أمثال هذه المواضع والمحال ، وشرط «إن» لا يقتضي الوقوع بحال من الاحوال ، ومثله في هذه السورة قوله تعالى بعد نهيه «ص» عن دعاء غير الله (فان فعلت فانك اذا من الظالمين) وقوله في غيرها قل إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين) وفي ابن جرير وغيره انه « ص » قال في آية يونس « لا أشك ولا أسأل »

وقوله تعالى ﴿ لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ تعليل لانزال الكتاب والجملة قبله معترضة بين العلة والمعلول لافادة ان الانذار به إنما يكون مطلقا أو على وجه الكمال مع انتفاء الحرج من الصدر ، وانشراحه للنهوض باعباء هذا الامر ، وقيل تعليل للنهي عن الحرج على أن اللام مصدرية كقوله (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) أي فلا يكن في صدرك حرج منه لاجل الانذار به لئلا يكذبك الناس . والانذار التعليم المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة ، وهو يتعدى الى مفعولين — المنذر والعقاب الذي ينذره أي يخوف من وقوعه به ، ومنه قوله (انا انذرناكم عذابا قريبا) وقوله (وينذروكم لقاء يومكم هذا) والمفعولان يذكران كلاهما تارة ويذكر احدهما تارة بعد اخرى بحسب المناسبات ، وقد حذف كل منهما هنا لافادة العموم حسب القاعدة — أي لتنذر به جميع الناس اذ تبلغهم دين الله وكل مايتلى عليك في الكتاب من عقابه تعالى لمن يعصى رسله في الدنيا والآخرة — فهو ايجاز بليغ يدل على عموم بعثته (ص) كقوله في سورة الانعام (٦ : ٩٣ ولتنذر أم القرى ومن حولها) وقد صرح بجعل الانذار عاما لامة البعثة كافة بقوله (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وكثيراً ما يوجه الى الكفار والظالمين لانهم هم الذين يعاقبون حتما ، وقد يخص به المؤمنون المتقون بأنهم هم المنتفعون به قطعاً ، كقوله تعالى (٣٥ . ١٨ انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب)

وقوله (٣٦ : ١١ انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب) وقوله (٥١:٦ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) الآية

وأما الذكرى فهي مصدر لذكر الشيء بقلبه وبلسانه والاسم الذكر بالضم وبالكسر قال في المصباح: نص عليه جماعة منهم أبو عبيدة وابن قتيبة، وأنكر الفراء الكسر في القلب وقال : اجعلني على ذكر منك ، بالضم لا غير ولهذا اقتصر جماعة عليه اه وقال الراغب: والذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر. اه ولعله أخذ هذا المعنى من كثرة استعمالها في القرآن بمعنى التذكر النافع والموعظة المؤثرة — ولا أذكر انها استعملت فيه بمعنى ذكر اللسان الا في قوله تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها) وبمعنى مطلق التذكر الا في قوله (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) لانه في مقابل الانساء . وقد خصها هنا بالمؤمنين لانهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ كما قال في الذاريات (٥١:٥٥ وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) ومثله في سورة العنكبوت (٥١:٥٩ وذكرى لقوم يؤمنون) وفي سورة الانبياء (٨٤:وذكرى للعابدين) وفي سورة ص(٤٣:٣٨ وذكرى لاولي الالباب) وفي سورة ق (٨:٥٠ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)

والمراد بالمؤمنين هنا من كتب الله لهم الايمان سواء كانوا آمنوا عند نزول السورة أم لا. وتقدير الكلام مع ماقبله : أنزل اليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس، وتذكر به أهل الايمان وتعظهم ذكرى نافعة مؤثرة لانهم هم المستعدون للاهتداء به ، او أنزل اليك للانذار العام والذكرى الخاصة ، او وهو ذكرى — أو حال كونه ذكرى — لمن آمنوا ولمن علم الله انهم يؤمنون

﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ﴾ هذا بيان للانذار العام ، الذي أمر الرسول بتبليغه الى جميع الانام، وهو على تقدير القول الذي يكثر حذفه في مثل هذا المقام، لما يدل عليه من الاسلوب وسياق الكلام، أي قل يا أيها الناس اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم، الذي هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم، فانه هو الذي له وحده الحق في شرع الدين لكم وفرض العبادات عليكم، والتحليل لما ينفعكم، والتحريم لما يضركم ، لانه أعلم بمصلحتكم منكم ، ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ تتخذونهم من أنفسكم، ولا من الشياطين الذين يوسوسون لكم، بما يزين لكم ضلال تقاليدكم والابتداع في دينكم، فتولونهم أموركم، وتطيعونهم فيما يرومون

منكم ، من وضع أحكام ، وحلال وحرام ، زاعمين أنه يجب عليكم تقليدهم لانهم أعلم منكم ، أو للاقتداء بما كان عليه آباؤكم ، فانما على العالم بدين الله إبلاغه وبيانه للمتعلم لا بيان آرائه وظنونه فيه ، ولا أولياء تتخذونهم لاجل انجاذكم من الجزاء على ذنوبكم ، وجلب النفع لكم أو رفع الضرر عنكم ، زاعمين أنهم بصلاحكم يقربونكم اليه زلفى ، أو يشفعون لكم عنده في الآخرة أو الدنيا ، فان الله ربكم هو الولي أي الذي يتولى أمر العباد بالتشريع والتدبير والخلق والتقدير ، فله وحده الخلق والامر ، وبيده النفع والضر ، ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ أي تذكرا قليلا تتذكرون ، أو زمنا قليلا تتذكرون ، ما يجب ان يعلم فلا يجهل ويحفظ فلا ينسى ، مما يجب للرب تعالى ويحظر ان يشرك معه غيره فيه . او قليلا ما تتعظون بما توعظون به ، فترجعون عن تقاليدكم واهوائكم ، الى ما انزل اليكم من ربكم . قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم « تذكرون » بحذف احدى التاءين وتخفيف الذال وتشديد الكاف ، على ان اصلها (تتذكرون) وقراها ابن عامر « يتذكرون » بالياء على ان الخطاب للنبي (ص) على طريق الالتفات . وقرأها الباقون بالتاء وتشديد الذال بادغام التاء الاخرى فيها .

قد حققنا معنى الولاية لغة وأنواع استعمالها في القرآن مراراً أقر بها ما في سورة الانعام كقوله تعالى (٦ : ١٢٨ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) [١] وبينا وجه الحصر في كون الله تعالى هو ولي المؤمنين في تفسير (٦ : ١٤ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض) [٢] وزدنا هذا بياناً في تفسير (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) [٣] وكذا تفسير (٦ : ٧٠ وذكر به ان تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع) [٤] كما بيناه في تفسير آيات أخرى مما قبل سورة الانعام ومن أوسعها وأعمها بياناً تفسير قوله تعالى (٢ : ٢٥٧ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) الآية [٥] وفيه تفصيل لولاية الله للمؤمنين وولاية المؤمنين بعضهم لبعض

(١) راجع ص ١٠٠ – ١٠٥ من جزء التفسير الثامن (٢) راجع ٣٣٠ ج ٧
(٣) راجع ص ٤٣٠ ج ٧ أيضاً (٤) راجع ص ٥٢٠ منهم أيضاً
(٥) راجع تفسيرها في ص ٤٠ – ٤٥ ج ٣

وولاية الطاغوت للكافرين. ونكتفي هنا بان نقول: ان الولاية التي هي عبارة عن تولي الامر - منها ماهو خاص برب العباد والههم الحق وهي قسمان - أحدهما - شرع الدين عقائده وعباداته وحلاله وحرامه - وثانيهما - الخلق والتدبير الذي هو فوق استطاعة الناس في أمور الاسباب العامة التي مكن الله منها جميع الناس في الدنيا كالهداية بالفعل وتسخير القلوب والنصر على الاعداء وغير ذلك - وكل ما يتعلق بأمر الآخرة من المغفرة والرحمة والثواب والعقاب. فكل ماورد من حصر الولاية في الله تعالى فالمراد به تولي أمور العباد فيما لا يصل اليه كسبهم وشرع الدين لهم، كما فصلناه في تفسير آية البقرة وغيرها

والمتبادر هنا من النهي عن اتباع الأولياء من دونه تعالى هو النهي عن طاعة كل أحد من الخلق في أمر الدين غير ما انزله الله من وحيه كما فعل اهل الكتاب في طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحي من العبادات، وما حرموا عليهم من المباحات، كما ورد في الحديث المرفوع في تفسير قوله تعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وكل من أطاع احدا طاعة دينية في حكم شرعي لم ينزله ربه اليه فقد اتخذه ربا، والآية نص في عدم جواز طاعة أحد من العلماء ولا الامراء في اجتهاده في أمور العقائد والعبادات والحلال والحرام تدينا، وما على العلماء الا بيان ما انزله الله وتبليغه وارشاد الناس الى فهمه وما عسى ان يخفى عليهم من تطبيق العمل على النص وحكمة الدين في الاحكام، كبيان سمت القبلة في البلاد المختلفة، فهم لا يتبعون في ذلك لذواتهم بل المتبع ما انزله الله بنصه أو فحواه على حسب روايتهم له وتفسيرهم لمعناه. وانما يطاع أولو الامر من الامراء وأهل الحل والعقد في تنفيذ ما أنزله الله تعالى وفيما ناطه بهم من استنباط الاحكام في سياسة الامة وأقضيتها التي تختلف المصالح فيها باختلاف الزمان والمكان. والآية نص في بطلان القياس ونبذ الرأي في الامور الدينية المحضة. وقد فصلنا القول في ذلك وما يتعلق به من الاصول والفروع في تفسير (٤ : ٥٨ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) الآية [1] وتفسير قوله تعالى (٥ : ١٠٤ ياايها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبدلكم تسؤكم) الآية [2]

ولا شك في أن اتباع الرسول «ص» فيما صح عنه من بيان الدين داخل

(١) راجع ص ١٨٠ - ٢٢٢ ج ٥ (٢) راجع ص ١٢٥ - ٢٠١ ج ٧

في عموم ما أنزل الينا على لسانه ، وكذا اتباعه في أحكامه الاجتهادية فانه تعالى أمرنا باتباعه وبطاعته ، واخبرنا بانه مبلغ عنه، وقال له (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) والجمهور على أن الاحكام الشرعية الواردة في السنة موحى بها وان الوحي ليس محصورا في القرآن ، والامام الشافعي يقول: انها مستنبطة من القرآن . وقد قال (ص) «إنما انا بشر اذا امرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » رواه مسلم من حديث رافع بن خديج في مسألة تأبير النخل ، وروى من حديث موسى بن طلحة عن ابيه أنه «ص» قال « ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فاني انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن ان حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن اكذب على الله عز وجل» واذا كان عليه أفضل الصلاة والسلام قد اذن لنا ان لا نأخذ بظنه في امور الدنيا وقال «أنتم أعلم بأمر دنياكم» كما في حديث عائشة وثابت ابن انس عند مسلم فما القول بظن غيره ؟

قال الرازي : هذه الآية تدل على ان تخصيص عموم القرآن بالقياس لا يجوز لان عموم القرآن منزل من عند الله تعالى والله تعالى أوجب متابعته فوجب العمل بعموم القرآن ، ولما وجب العمل به امتنع العمل بالقياس والا لزم التناقض . فان قالوا لما ورد الامر بالقياس في القرآن وهو قوله (فاعتبروا) كان العمل بالقياس عملا بما انزل الله . — قلنا هب أنه كذلك الا انا نقول: الآية الدالة على وجوب العمل بالقياس انما تدل على الحكم المثبت بالقياس لا ابتداء بل بواسطة ذلك القياس ؛ وأما عموم القرآن فانه يدل على ثبوت ذلك الحكم ابتداء لا بواسطة ، ولما وقع التعارض كان الذي دل عليه ما انزله الله ابتداء اولى بالرعاية من الحكم الذي دل عليه ما انزله الله بواسطة شيء آخر ، فكان الترجيح من جانبنا والله اعلم اه وقد نقلنا في بحث القياس أن الرازي قد رد في محصوله كون قوله تعالى (فاعتبروا ياأولى الابصار) دليلا على القياس الاصولي وهو مصيب في ذلك . ثم اورد استدلالا آخر بالآية لنفاة القياس واورد عليه مناقشة القياسيين فيه ، ونحن في غنى عن ذلك بتحقيق الحق في المسألة في تفسير آية المائدة التي اشرنا اليها آنفا

ثم ذكر ان الحشوية الذين ينكرون النظر العقلي والبراهين العقلية تمسكوا بهذه الآية . قال وهو بعيد لان العلم بكون القرآن حجة موقوف على صحة التمسك

بالدلائل العقلية فلو جعلنا القرآن طاعنا في صحة الدلائل العقلية لزم التناقض وهو باطل اه وكان ينبغي أن يرد عليهم بأن القرآن قد هدى الى الدلائل العقلية باستدلاله بالمعقول ومخاطبته لاولي الالباب وأصحاب العقول ، على أننا لا نعرف طائفة من الناس تنكر النظر العقلي والبراهين العقلية مطلقا ، وانما انكر بعض العقلاء واهل البصيرة على امثاله من المتكلمين جعل العقائد والصفات الالهية واخبار عالم الغيب محلا لنظريات فلسفية، وموقوفا اثباتها على اصطلاحات جدلية ما انزل الله بها من سلطان ، ولم يستفد اصحابها منها غير تفريق الدين، واختلاف المسلمين ، والبعد عن حق اليقين ، ويرى هؤلاء ان كون القرآن من عند الله تعالى قد ثبت ثبوتا عقليا من وجوه كثيرة فوجب اتباعه بتلقي العقائد والاحكام منه مع اجتناب التأويل للصفات الالهية والامور الغيبية بالنظريات الكلامية كما كان عليه السلف الصالح . وقد بينا هذا في مواضع اخرى

(٣) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
(٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

كانت الآية الاولى من السورة في بيان انزال الكتاب الى الرسول (ص) لينذر به كل الناس، وذكرى وموعظة لاهل الايمان، والآية الثانية استئناف بياني لما يبدأ به من التبليغ وهو أن يأمر الناس باتباع ما انزل اليهم من ربهم وأن لا يتبعوا من دونه احدا يتولونه في أمر التشريع الخاص بالرب تعالى . ولما كان الانذار تعليما مقرونا بالتخويف من عاقبة المخالفة قفى على هذه القاعدة الاولى التي هي أم القواعد لاصول الدين بالتخويف من عاقبة المخالفة ولما يتلوها من أصول الدين وفروعه لها فبدأ في هاتين الآيتين بالتخويف من عذاب الدنيا فقال :

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ﴾ «كم» خبرية تفيد الكثرة ، والقرية تطلق على الامة قال الراغب : القرية للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعا (أي معا) ويستعمل لكل منهما ، قال تعالى (واسأل القرية) قال كثير من المفسرين معناه أهل القرية ، وقال بعضهم بل القرية ههنا القوم انفسهم اهاي من غير تقدير مضاف . والذين يقولون بالتقدير يرون انه

لا حاجة اليه هنا لان القرية تهلك كما يهلك اهلها ولكنهم يقدرون المضاف في قوله (فجاءها بأسنا) فيقولون: جاء أهلها بأسنا — بدليل وصفهم بالبيات والقيلولة والمدينة لا تبيت ولا تقيل. والبيات الاغارة على العدو ليلا والايقاع به فيه على غفلة منه فهو اسم للتبييت، وهو يشمل كل ما يدبره المرء أو ينويه ليلا ومنه تبييت نية الصيام. وقيل يأتي مصدرا لبات يبيت اذا ادركه الليل. والبأس الشدة والقوة والعذاب الشديد [1] وهو المراد هنا، والقائلون الذين يقيلون أي ينامون للاستراحة وسط النهار، وقيل يستريحون وان لم يناموا، يقال قال يقيل قيلا وقيلولة.

والمعنى وكثيرا من القرى اهلكناها لعصيان رسلها فجاءوها به من عندربها فكان هلاكها على ضربين بأن جاء بعضهم بأسنا حال كونهم مبيتين أو بائتين ليلا كقوم لوط، وجاء بعضهم وهم قائلون آمنون نهارا كقوم شعيب. والوقتان وقتا دعة واستراحة ففيه ايذان بأنه لا ينبغي للعاقل ان يأمن صفو الليالي ولا مواتاة الايام، ولا يغتر بالرخاء فيعده آية على الاستحقاق الذي هو مظنة الدوام، وقد يعذر بالغفلة قبل مجيء النذير، واما بعده فلا عذر ولا عذير، وفيه تعريض بغرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزة عصبيتهم، وبما كانوا يزعمون انها آية رضى الله عنهم، (وقالوا نحن اكثر أموالا واولادا وما نحن بمعذبين) وليس امرهم بأعجب من الاقوام التي عرفت هداية القرآن، أو سنن الله في نوع الانسان، ثم هي تغتر بما هي عليه وان كان دليلا على الهلاك، ولا ترجع عن غيها حتى يأتيها العذاب

وقد استشكل بعض المفسرين من الآية مالا اشكال فيه اذ ظنوا ان عطف جاءهم على «أهلكنا» بالفاء يفيد أن مجيء البأس وقع عقب الاهلاك وهو محال لانه سببه، غافلين عن كونه بيانا تفصيليا لنوعين منه أحدهما ليلي والآخر نهاري كما بيناه آنفا، وتفصى بعضهم كالزمخشري منه بأن المراد بالاهلاك إرادته كما أن المراد من قوله (اذا قمتم الى الصلاة) اذا أردتم القيام اليها

وفي الآية من مباحث اللغة والبلاغة أن قوله تعالى (أو هم قائلون) جملة

(١) راجع تحقيق البأس والبؤس والبأساء في ص ٤١٢ ج ٧ تفسير

حالية حذفت منها واو الحال لاستثقال الجمع بينها وبين واو العطف والاصل : أو وهم قائلون . ولم أر أحداً تعرض لنكتة الجمع بين الحال المفردة وجملة الحال هنا والظاهر أن المقام مقام الافراد، لا كقوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا) حيث انفردنا ببيان فرق وجيه بين الحالين هنالك يقتضيه المعنى وينطبق على ما حققه الامام عبد القاهر في الفرق بينهما. ولا يأتي مثله هنا لان الفرق بين الحالين خاص بما كانت الحال فيه وصفا لفاعل العامل فيها كآية النساء ومثل قولك : نذرت أن أعتكف صائما أو وأنا صائم . فتأمل . وقد بحث المفسرون الذين يعنون بالاعراب في مسألة الواو في الجملة الفعلية هل هي لام العطف أو غيرها ومتى تجب في الجملة الحالية هي والضمير معا ومتى يجب أحدهما ، وهي مباحث لفظية نعدوها لانها قلما تفيد في المعاني ونكت البلاغة فائدة تذكر

﴿ فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ الدعوى في اللغة اسم لما يدعيه الانسان ، والادعاء نفسه ، والدعاء بمعانيه ، والقول مطلقا ، ففي المصباح : ودعوى فلان كذا — أي قوله اه. ومعنى الآية على هذا : فما كان قولهم — وعلى ما قبله : فما كانت غاية ما يدعونه من الدين وزعمهم فيه أنهم على الحق — أو ما كانوا يدعونه على الرسل من التكذيب وارادة التفضل عليهم — الا الاعتراف بأنهم كانوا ظالمين لانفسهم فيما كانوا عليه والشهادة ببطلانه . وفي التقدير الاول الاخبار بنوع من القول عن جنسه ، وهو غير الاخبار بالشيء عن نفسه ، وان اتحدت المادة كقوله تعالى (وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) فكيف اذا اختلفت كما هنا

والعبرة في الآية أن كل مذنب يقع عليه عقاب ذنبه في الدنيا يندم ويتحسر ويعترف بظلمه وجرمه اذا علم أنه هو سبب العقاب ، وما كل معاقب يعلم ذلك لان من الذنوب ما يجهل أكثر الناس أنه سبب للعقاب ، وأما الذنوب التي مضت سنة الله تعالى بجعل عقابها أثراً طبيعيا لها في الدنيا فلا تطرد في الافراد كاطرادها في الامم ، ولا تكون دائما متصلة باقتراف الذنب بل كثيراً ما تقع على التراخي فلا يشعر فاعلها بأنها أثر له مثال ذلك أن ما يتولد من شرب الخمر من الامراض والآلام لا يعرف اكثر السكارى منه غير ما يعقب الشرب من

صداع وغثيان وهو مما يسهل عليهم احتماله وترجيح لذة النشوة عليه ، وأما ما يولده السكر من أمراض القلب والكبد والجهاز التناسلي وما يترتب عليه من ضعف النسل واستعداده للامراض وانقطاعه أحيانا وغير ذلك من الامراض الجسدية والعصبية (العقلية) فهي تحصل ببطء ، ولا يعلم غير الاطباء أنها من تأثير السكر ، وقلما يفيد العلم بها بعد بلوغ تأثيرها هـذه الدرجة أن تحمل السكور على التوبة ، لان داء الخمار يزمن وحب السكر يضعف الارادة ، (١) ومضار الزنا الجسدية أخفى من مضار الخمر والميسر ، ومفاسده الاجتماعية ، أخفى من مضاره الجسدية ، فما كل أحد يفطن لها . ويا ليت كل من علم بضرر ذنبه بعد وقوعه يرجع عنه ويتركه ويتوب الى الله تعالى منه ، ولا يكتفي بالاعتراف بظلمه ، ولا بالاقرار بذنبه ، فان هذا لا فائدة له فيه لا في دنياه ولا في دينه ، واذا كان الراسخ في الفسق لا يتوب من ذنب وقع عليه ضرره وعلم به ، فكيف يتوب من ذنب لم يصبه منه ضرر او أصابه من حيث لا يدري به ؟ إنما تسهل التوبة على المؤمنين الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، والا فهي لاولي العزائم القوية الذين تقهر شهواتهم ارادتهم وهم الاقلون . (٢)

واما ذنوب الامم فعقابها في الدنيا مطرد ولكن لها آجالا ومواقيت أطول من مثلها في ذنوب الافراد وتختلف باختلاف أحوالها في القوة والضعف ، كما تختلف في الافراد بل أشد . فاذا ظهر الظلم واختلال النظام وفشا الترف وما يلزمه من الفسق والفجور في أمة من الامم تنحل قواها ، ويفسد أمرها ، وتضعف منعتها ، ويتمزق نسيج وحدتها ، حتى تحسب جميعا وهي شتى — فيغري ذلك بعض الامم القوية بها ، فتستولي عليها ، وتستأثر بخيرات بلادها ، وتجعل أعزة أهلها أذلة . فهذه سنة مطردة في الامم على تفاوت أمزجتها وقواها ، وقلما تشعر أمة بعاقبة ذنوبها قبل وقوع عقوبتها ، ولا ينفعها بعده ان يقول العارفون : يا ويلنا انا كنا ظالمين . على انه قد يعميها الجهل حتى لا تشعر بأن ما حل بها ، إنما كان بما كسبت أيديها ، فترضى باستذلال الاجنبي ، كما رضيت من قبل بما كان سببا له من الظلم الوطني ، فينطبق عليها قولنا في المقصورة

(١) راجع تفصيل هذا البحث في تفسير آية البقرة في الخمر والميسر (ص ٤١ ج ٢ تفسير) أو آية المائدة فيهما (ص ٧٨ ج ٧)

(٢) راجع تفسير (٤ : ١٦ انما التوبة على الله ...) ص ٤٤٠ ج ٤ تفسير

من ساسه الظلم بسوط بأسه هان عليه الذل من حيث أتى
ومن يهن هان عليه قومه وعرضه ودينه الذي ارتضى

وقد تتوالى عليها العقوبات حتى تضيق بها ذرعا فتبحث عن أسبابها ، فلا تجدها بعد طول البحث الا في أنفسها ، وتعلم صدق قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) ثم تبحث عن العلاج فتجده في قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وإنما يكون التغيير بالتوبة النصوح ، والعمل الذي تصلح به القلوب فتصلح الامور ، كما قال العباس عم الرسول (ص) اذ توسل به عمر والصحابة بتقديمه لصلاة الاستسقاء بهم : اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة . خلافا للحشوية الذين يستدلون به على ان البلاء إنما يرتفع كرامة للصالحين الذين يتوسل بهم المذنبون المفسدون.

فلينظر القاريء أين مكان الشعوب الاسلامية من هذه العبرة ، والشعور بعقوبة الجناية والحاجة الى علاج التوبة ، وقد ثلمت عروشها ، وخوت صروح عظمتها على عروشها ، وكانت أجدر الشعوب بمعرفة سنن الله في هلاك الامم واتقائها ، وأسباب حفظ الدول وبقائها ، فقد أرشدها اليه القرآن ، ولكن أين هي من هداية القرآن ، وقد ترك تذكيرها به العلماء ، فهجره الدهماء ، وجهل أحكامه وحكمه الملوك والامراء ، ثم نبتت فيها نابتة لا تدري ما الكتاب ولا الايمان ، أقنعهم أساتذتهم أعداء الاسلام ، بأن لا سبب لهبوطها وسقوطها الا اتباع القرآن ، فأضلوهم السبيل ، ولفتوهم عن الدليل : فذنب هؤلاء أنهم يجهلونه ، وذنب أولئك أنهم لا يقيمونه ، هؤلاء مقلدة للاجانب الطامعين الحادعين ، واولئك مقلدة لشيوخ الحشوية الجامدين ، فمتى تنتشر دعوة المصلحين أولي الاستقلال ، فتجمع الكلمة بما أوتيت من الحكمة والاعتدال ، على قول الكبير المتعال (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)

---

(٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ

بينا في تفسير الآيتين اللتين قبل هذه الآيات : انهما بدء للانذار — بعد بيان أصل الدعوة الى الاسلام — بالتذكير بعذاب الامم التي عاندت الرسل في الدنيا، وهذه الآيات تذكير بعذابهم في الاخرة — قفى به على تخويف قوم الرسول من مثل ذلك العذاب العاجل ، بتخويفهم مما يعقبه من العذاب الآجل ، وهو الحساب والجزاء في الآخرة فقال

﴿ فلنسألن الذي ارسل اليهم ولنسألن المرسلين ﴾ عطف هذا على ماقبله بالفاء لانه يعقبه ويجيء بعده اذكان ذلك العذاب المعبر عنه بالبأس آخر امرهم في الدنيا. وقيل إن الفاء هنا هي التي يسمونها الفصيحة . وقد اكد الخبر بلام القسم ونون التوكيد لان المخاطبين من العرب في أول الدعوة كانوا ينكرون البعث والجزاء ، ولتأكيد الخبر تأثير في الانفس ولاسيما خبر المشهور بالامانة والصدق كالنبي (ص) فقد كانوا يلقبونه قبل البعثة بالامين. والمراد بالذين ارسل اليهم جميع الامم التي بلغتها دعوة الرسل: يسأل تعالى كل فرد منهم في الآخرة عن رسوله اليه وعن تبليغه لآياته وبما ذا اجابوهم وماعملوا من ايمان وكفر، وخير وشر ، ويسأل المرسلين عن التبليغ منهم ، والاجابة من أقوامهم .

بين هذا الاجمال في آيات منها قوله تعالى في سورة الانعام (٦:١٢٦ يا معشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا) وفي سورة القصص (٢٨ : ٦٥ ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين) وفي سورة العنكبوت (٢٩:١٢ وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) ومثله في سورة النحل (١٦:٥٦ ويجعلون لمالا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون) وهو ما ابتدعوه في الدين كجعلهم لمعبوداتهم نصيبا مما رزقوا من الحرث والانعام يتقربون اليهم بها بنذر أو غيره ويتقربون بهم الى الله كما تقدم في سورة الانعام، ومنه ماينذره القبوريون لاوليائهم. واعم منه قوله تعالى في النحل ايضا (ولتسألن عما كنتم تعملون) وهو خطاب لجميع الناس . ومثله في التأكيد والعموم قوله في سورة الحجر (١٥:٩٢ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ومنه في السؤال عن المشاعر الظاهرة والباطنة (١٧ : ٣٦ ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) وقال تعالى في سؤال الرسل (٥: ١١٢ يوم

يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم)وتقدم تفسيره في الجزء السابع .

قال ابن عباس في تفسير الآية : نسأل الناس عما اجابوا المرسلين و نسأل المرسلين عما بلغوا . ونحوه عن سفيان الثوري . وقيل ان الذين ارسل اليهم هم الانبياء المرسلون، والمرسلين الملائكة هم الذين نزلوا عليهم بالوحي، وفي رواية جبريل خاصة . وهو خلاف الظاهر، فان الرسل يسئلون ليكونوا شهداء على أقوامهم كما قال تعالى (٤:٥١ فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ولا حاجة الى شهادة الملائكة على الرسل لئلا ينكروا الرسالة فما هي ذنبٌ يتوقع انكاره لو لم يكونوا معصومين من ذلك . وفي السؤال العام وما يسئل عنه الناس احاديث سيأتي بعضها

فان قيل هذه الآيات تثبت السؤال العام يوم القيامة وهو يشمل العقائد والاعمال وهي حسنات وسيئات. فما معنى قوله تعالى في سورة القصص (٢٨: ٧٨ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) وفي سورة الرحمن (٥٥ : ٣٩ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان) قلنا قد أجاب المفسرون عن ذلك بأجوبة أشرنا في تفسير آية الانعام (٦ : ١٢٩) الى بعضها وهو أن للقيامة مواقف متعددة يعبر عنها باليوم ، والسؤال والجواب والاعتذار يكون في بعضها دون بعض. والصواب أن نفي السؤال عن الذنب في آية الرحمن لا اشكال فيه لان ما بعد الآية يفسرها بأن المراد لا يسئل أحد عن ذنبه، لاجل ان يعرف المجرم ويمتاز من غيره، اذ قال بعدها (يعرف المجرمون بسيماهم) وهو استئناف بياني كأنه قيل لم لا يسئلون؟ وبم يعرف المجرمون منهم ويمتازون من المسلمين؟ فقال (يعرف المجرمون بسيماهم) ولا مندوحة عن حمل آية القصص على هذا المعنى وهو مروي عن ابن عباس كالاول ، وروي عنه أيضا أن المذنب لا يسئل عن ذنبه هل اذنبت أو هل فعلت كذا من الذنوب؟ أي لان الله تعالى أعلم منه بذنوبه وقد أحصاها عليه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وهو يجد ما عمل حاضرا في كتابه، متمثلا في نفسه، معروضا لها فيما يشهد عليه من أعضائه وجوارحه،[1] — وإنما يسأله لم عمل كذا — أي بعد أن يعرّف به ، وهو يتفق مع تفسيره هنا لقوله عز وجل :

﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ قال : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما

(١) راجع تفسير (٦:٢٨ بل بدا لهم ما كانوا يخفون) الآية ص ٣٥٣ ج٧ تفسير

كانوا يعملون . وأصل القص تتبع الاثر فيكون بالعمل كقوله تعالى حكاية عن أم موسى (وقالت لاخته قصيه) وبالقول ومنه (نحن نقص عليك أحسن القصص) وهي الاخبار المتتبعة كما حققه الراغب فليس كل خبر قصصا . أي فلنقصن على الرسل وعلى أقوامهم الذين ارسلوا اليهم كل ما وقع من الفريقين قصصا بعلم محيط لا يعزب عنه مثقال ذرة، أو عالمين بكل ما كان منهم، وما كتبه الكرام الكاتبون عنهم ﴿ وما كنا غائبين ﴾ عنهم في حال من الاحوال ولا وقت من الاوقات ، بل كنا معهم نسمع ما يقولون ، ونبصر ما يعملون ، ونحيط علما بما يسرون ويعلنون ، كما قال (٤ : ١٠٧ وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا) فالسؤال لاجل البيان والاعلام ، لا لاجل الاستبانة والاستعلام ، وهذا القصص هو الذي يكون به الحساب ويتلوه الجزاء ، والآيات والاحاديث في بيانه كثيرة .

أما الآيات فتأتي في مواضعها وأما الاحاديث فمنها حديث ابن عمر المتفق عليه قال قال النبي (ص) « كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته : فالامام يسئل عن الناس والرجل يسئل عن اهله والمراة تسئل عن بيت زوجها والعبد يسئل عن مال سيده » وورد بألفاظ اخرى وفي معناه ما رواه الطبراني في الاوسط بسند صحيح عن أنس قال قال رسول الله (ص) « كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فأعدوا للمسائل جوابا » قالوا وما جوابها ؟ قال (أعمال البر) وفي معناه ما رواه من حديث عبد الله ابن مسعود « ان الله سائل كل ذي رعية عما استرعاه أقام أمر الله فيهم أم ضيعه حتى ان الرجل ليسئل عن أهل بيته » وما رواه في الكبير عن المقدام: سمعت رسول الله (ص) يقول « لا يكون رجل على قوم الا جاء يقدمهم يوم القيامة بين يديه راية يحملها وهم يتبعونه، فيسئل عنهم ويسئلون عنه » ومنها ما رواه في الاوسط من حديث أنس « أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة ينظر في صلاته فان صلحت فقد أفلح وان فسدت فقد خاب وخسر » وما رواه هو والبزار والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعا « ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته — قالوا وما هي قال — تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك » وروي احمد ومسلم والنسائي من حديث أبي هريرة

مرفوعا «ان اول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال قاتلت في سبيلك حتى استشهدت. قال كذبت ولكنك قاتلت لان يقال جريء فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار — ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا انفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القي في النار»

وروى الترمذي من حديث أبي برزة الاسلمي مرفوعا وقال حسن صحيح «لا تزول قدما عن يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه» وروى نحوه عن ابن مسعود بلفظ «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسئل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من اين اكتسبه، وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم» وقال هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي (ص) الا من حديث حسين بن قيس وحسين يضعف في الحديث اه وهذه الرواية تذكر كثيرا في بعض خطب الجمعة. وذكر السفاريني في شرح عقيدته أن البزار والطبراني روياه به من حديث معاذ بسند صحيح بلفظ «لا تزول قدما عن يوم القيامة حتى يسئل عن أربع خصال» الخ

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس مرفوعا «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني» علم عليه السيوطي في الجامع الصغير بالصحة. وقال الترمذي بعد ذكره — وآخره عنده «وتمنى على الله» هذا حديث حسن، ومعنى من دان نفسه يحاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة ويروى عن عمر بن الخطاب قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الاكبر، وانما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا اه

ولما كان الجزاء على حسب الاعمال، وهي متفاوتة تنضبط وتقدر

بالوزن وإقامة الميزان ، قال عز وجل

﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ قال الراغب : الوزن معرفة قدر الشيء يقال وزنته وزنا وزنة والمتعارف في الوزن عند العامة مايقدر بالقسط والقبان اه وتفسيره الوزن بالمعرفة تساهل وإنما هو عمل يراد به تعرّف مقدار الشيء بالآلة التي تسمى الميزان وهو مشتق منه ، وبالقسطاس وهو من القسط ومعناه النصيب العادل أو بالعدل كما قال الراغب ، وأطلق على العدل مجازا ، وكذا الميزان . ومنه قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب بالحق والميزان) وقوله في الرسل كافة (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) ومن كلام العرب استقام ميزان النهار — اذا انتصف ، و: ليس لفلان وزن — أي قدر لخسته . ومنه قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قال الراغب وقوله (والوزن يومئذ الحق) فاشارة الى العدل في محاسبة الناس كما قال (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) أي ولذلك قال عقبه (فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) والتجوز بالوزن والميزان في الشعر كثير

ومعنى الجملة: والوزن في ذلك اليوم الذي يسأل الله فيه الرسل والامم ويقص عليهم كل ما كان منهم هو الحق الذي تحق به الامور و تعرف به حقيقة كل أحد وما يستحقه من الثواب والعقاب . وذهب اكثر علماء الاعراب الى أن المعنى أن الوزن الحق كائن يومئذ ، لا أن الوزن يومئذ حق ، فالحق صفة للوزن ويومئذ هو الخبر عنه . أو المعنى والوزن كائن يومئذ وهو الحق . والاول أظهر

﴿ فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ﴾ قيل إن الموازين جمع ميزان فهي متعددة لكل امرئ ميزان وقيل لكل عمل . والجمهور على أن الميزان واحد وانه يجمع باعتبار المحاسبين وهم الناس ، أو على حد قول العرب : سافر فلان على البغال ، وان ركب بغلا واحدا . وقيل إن الموازين جمع موزون . والمعنى فمن رجحت موازين أعماله بالايمان وكثرة حسناته فاولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب ، والنعيم في دار الثواب ، ﴿ ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ أي ومن خفت موازين أعماله بالكفر وكثرة سيئاته فاولئك الذين خسروا أنفسهم اذ حرموا السعادة التي كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر والمعاصي بسبب ماكانوا يظلمونها بكفرهم بآيات الله مستمرين على ذلك مصرين عليه

الى نهاية أعمارهم كما يدل عليه التعبير بالمضارع . وعدي الظلم بالباء لتضمنه معنى الكفر وسيأتي مثله في هذه السورة (آية ١٠٢) وفي غيرها

وظاهر هذا التقسيم أنه لفريقي المؤمنين على تفاوت درجاتهم في الفلاح، والكافرين على تفاوت دركاتهم في الخسران ، فان من مات مؤمنا فهو مفلح وان عذب على بعض ذنوبه بقدرها ، فهذا الوزن الاجمالي الذي يمتاز به فريق الجنة وفريق السعير ، وهنالك قسم ثالث استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم اصحاب الاعراف وسيأتي ذكرهم في هذه السورة . ويتبع الوزن الاجمالي الوزن التفصيلي للفريقين ولكن بعض العلماء يقولون إن الوزن للمؤمنين خاصة لانه تعالى قال في الكافرين (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) وأجاب الآخرون بأن معناه ما تقدم آنفا في بحث الوزن في اللغة من أنه لا يكون لهم قيمة ولا قدر ، وهو لا ينفي وزن اعمالهم وظهور خفتها وخسرانهم . واستدلوا على ذلك بقوله تعالى من سورة المؤمنين (٢٣ : ١٠٣ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ١٠٤ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ١٠٥ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ١٠٦ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) ومن المستغرب أن شيخ الاسلام ابن تيمية قال بعد ذكر آيتي الموازين في الثقل والخفة من سورة المؤمنين : ان الكفار لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته اذ لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها . وهو سهو سببه والله أعلم ما كان علق بذهنه من هذا القول ، وما من كافر الا وله حسنات ولكن الكفر يحبطها فتكون هباء منثورا وهي تحصى مع السيئات وتضبط بالوزن الذي به يظهر مقدار الجزاء وتفاوتهم فيه واستدلوا على تخفيف العذاب عن الكافر بسبب عمله الصالح بما ورد في الصحيح من التخفيف عن أبي طالب بما كان من حمايته للنبي (ص) وحبه له . وزعم بعضهم ان ذلك خاص به ويصح ان تكون الخصوصية في نوع التخفيف ومقداره ، اذ من المتفق عليه والمجمع عليه ان عذاب الكفار متفاوت ولا يعقل أن يكون عذاب ابي جهل كعذاب أبي طالب لولا الخصوصية والله تعالى يقول (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) ومن المشاهد في كل زمان ان من الكفار من يحب الله ويعبده ولا يشرك به والمشركون انما أشركوا معه غيره في الحب والعبادة كما

قال في أندادهم (يحبونهم كحب الله) ويتصدقون ويصلون الارحام ويفعلون غير ذلك من أعمال البر ويمتنعون عن الفواحش خوفاً من الله — فهل يسوّي الحكم العدل بينهم وبين مرتكبي الفواحش والمنكرات والجنايات من الكفار . نعم صح الحديث عند مسلم بأنهم يجازون على حسناتهم في الدنيا وهو لا يمنع وزنها في الآخرة وأن لا يكون لها مع الكفر والسيئات دخل في رجحان موازينهم

وجملة القول ان المسلمين اختلفوا في هذا الوزن والموازين هل هي عبارة عن العدل التام في تقدير ما به يكون الجزاء من الاعمال وتاثيرها في اصلاح الانفس وتزكيتها ، وفي افسادها وتدسيتها ، ام هنالك وزن حقيقي حكمته اظهار علم الله تعالى باعمال العباد وعدله في جزائهم عليها ؟ ذهب الى الاول مجاهد من مفسري السلف — وكذا الاعمش والضحاك حكاه الرازي عنهما — والجهمية والمعتزلة. قال مجاهد في الآية كما في الدر المنثور — « والوزن يومئذ الحق » قال العدل « فمن ثقلت موازينه » قال حسناته « ومن خفت موازينه » قال سيئاته اه وروى ابن جرير نحوه عنه وسيأتي فيما لخصه الحافظ ابن حجر.

والجمهور على الثاني بل قال ابو اسحاق الزجاج اجمع اهل السنة على الايمان بالميزان وان اعمال العباد توزن يوم القيامة وان الميزان له لسان وكفتان ويميل بالاعمال، وانكرت المعتزلة الميزان وقالوا هو عبارة عن العدل فخالفوا الكتاب والسنة لان الله اخبر انه يضع الموازين لوزن الاعمال ليري العباد اعمالهم ممثلة ليكونوا على انفسهم شاهدين . وقال ابن فورك أنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الاعراض يستحيل وزنها اذ لا تقوم بأنفسها. قال وقد روى بعض المتكلمين عن ابن عباس ان الله تعالى يقلب الاعراض اجساما فيزنها انتهى

نقل الحافظ ابن حجر ما ذكر في شرح آخر باب من أبواب البخاري وهو ﴿ باب قول الله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) وان اعمال بني آدم وقولهم توزن ﴾ وقفى عليه بقوله: وقد ذهب بعض السلف الى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء فأسند الطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) قال إنما هو مثل ؛ كما يجوز وزن الاعمال كذلك يجوز الخط — ومن طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال الموازين العدل . والراجح ما ذهب اليه الجمهور. وأخرج ابو القاسم اللالكائي في السنة عن سلمان قال يوضع الميزان وله كفتان لو وضع في احداهما السموات والارض

ومن قيهن لوسعته — ومن طريق عبد الملك بن أبي سليمان : ذكر الميزان عند الحسن فقال له لسان وكفتان . وقال الطيبي قيل إنما توزن الصحف وأما الاعمال فانها اعراض فلا توصف بثقل ولا خفة . والحق عند أهل السنة ان الاعمال حينئذ تجسد او تجعل في اجسام فتصير اعمال الطائعين في صورة حسنة واعمال المسيئين في صورة قبيحة ثم توزن . ورجح القرطبي ان الذي يوزن الصحائف التي تكتب فيها الاعمال، ونقل عن ابن عمر قال توزن صحائف الاعمال . قال فاذا ثبت هذا فالصحف اجسام فيرتفع الاشكال . ويقويه حديث البطاقة الذي اخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وفيه «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة انتهى» . والصحيح ان الاعمال هي التي توزن . وقد اخرج ابوداود والترمذي وصححه وابن حبان عن ابي الدرداء عن النبي (ص) قال « ما يوضع في الميزان يوم القيامة اثقل من خلق حسن » وفي حديث جابر رفعه «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار — قيل ومن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال ـ اولئك اصحاب الاعراف » . اخرجه خيثمة في فوائده، وعند ابن المبارك في الزهد عن ابن مسعود نحوه موقوفا . واخرج ابو القاسم اللالكائي في كتاب السنة عن حذيفة موقوفا ان صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام . اه ما لخصه الحافظ ابن حجر من اقوال اهل السنة

اقول وقد استقصى السيوطي في تفسير الآية من الدر المنثور ما ورد في الميزان او الوزن من الروايات الصحيحة والسقيمة أوجله وليس في الصحيحين منها الا ماختم به البخاري صحيحه وهو حديث ابي هريرة المرفوع «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» واذا لم يكن في الصحيحين ولا في كتب السنن المعتمدة حديث صحيح مرفوع في صفة الميزان ولا في ان له كفتين ولسانا، فلا تغتر بقول الزجاج ان هذا مما اجمع عليه اهل السنة فان كثيرا من المصنفين يتساهلون باطلاق كلمة الاجماع ولا سيما غير الحفاظ المتقنين والزجاج ليس منهم . ويتساهلون في عزو كل مايوجد في كتب أهل السنة الى جماعتهم، وان لم يعرف له أصل عن السلف ، ولا اتفق عليه الخلف منهم ، وهذه المسألة مما اختلف فيه السلف والخلف كما علمت .

فاختلف علماء أهل السنة القائلون بأن الوزن بميزان هل هو ميزان واحد أم لكل شخص أو لكل عمل ميزان ؟ وفي الموزون به حتى قيل انه الاشخاص لا الاعمال، وفي صفة الموزون والوزن، وفيمن يوزن لهم أللمؤمنين خاصة أم لهم وللكفار ، وفي صفة الخفة والثقل وفيها ثلاثة أقوال :

ولهذا الخلاف ثلاثة أسباب (أحدها) اختلاف الاخبار والآثار عن السلف وأكثرها لا يصح ولا يحتج بمثله في الاحكام العملية فضلا عن المسائل الاعتقادية (ثانيها) الاختلاف في فهمها (ثالثها) الرأي والتخيل والقياس مع الفارق فان الخلف من المنتمين الى مذاهب السنة خاضوا فيما خاض فيهم غيرهم من تحكيم الرأي في أمور الغيب فالمعتزلة أخطأوا في قياس عالم الغيب على عالم الشهادة وانكار وزن الاعمال بحجة انها أعراض لا توزن وان علم الله بها يغني عن وزنها، وردعليهم بعض المنتمين الى السنة ردا مبنيا على اساس مذهبهم في قياس عالم الغيب على عالم الشهادة وتطبيق اخبار الآخرة على المعهود المألوف في الدنيا فزعموا ان الاعمال تتجسد وتوزن أو توضع في صور مجسمة او ان الصحائف التي تكتب فيها الاعمال هي التي توزن بناء على انها كصحائف الدنيا إما رَق (جلد) وإما ورَق ...

والاصل الذي عليه سلف الامة في الايمان بعالم الغيب ان كل ما ثبت من اخباره في الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه نؤمن به ولا نحكم رأينا في صفته وكيفيته. فنؤمن اذاً بأن في الآخرة وزنا للاعمال قطعا ، ونرجح أنه بميزان يليق بذلك العالم يوزن به الايمان والاخلاق والاعمال لا نبحث عن صورته وكيفيته ، ولا عن كفتيه إن صح الحديث فيهما كما صوره الشعراني في ميزانه ويؤخذ من آيات كثيرة ان ذلك يكون باعتبار تأثيرها في النفس من تزكية او تدسية اي ما يترتب عليه الجزاء . واذا كان البشر قد اخترعوا موازين للاعراض كالحر والبرد افيعجز الخالق البارىء القادر على كل شيء عن وضع ميزان للاعمال النفسية والبدنية المعبر عنها بالحسنات والسيئات ، بما احدثته في الانفس من الاخلاق والصفات؟ والنقل والعقل متفقان على ان الجزاء إنما يكون بصفات النفس الثابتة، لا بمجرد ما كان سببا لها من الحركات والاعراض الزائلة، قال تعالى (٦:١٣٩ سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم)[1] وقال في سورة الشمس (٩١ : ٧ ونفس وما سواها ٨ فألهمها فجورها وتقواها ٩ قد افلح من زكاها ١٠ وقد خاب من

(١) راجع تفسيره في سورة الانعام (ص ٧٢١ ج ٨ تفسير)

دساها) وفي سورة الاعلى (٨٧ ١٤ قد افلح من تزكى ١٥ وذكر اسم ربه فصلى) وقد حققنا هذا البحث في مواضع من التفسير آخرها تفسير خاتمة سورة الانعام [1]

وتقدم ان حكمة وزن الاعمال بعد الحساب انه يكون أعظم مظهر لعدل الرب تبارك وتعالى أي ولعلمه وحكمته وعظمته في ذلك اليوم العظيم إذ يرى فيه عباده افراداً وشعوبا وأمما ذلك باعينهم، ويعرفونه معرفة ادراك ووجدان في انفسهم، فان اعمالهم تتجلى لهم فيها أولا، ثم تتجلى لهم ولسائر الخلق في خارجها ثانيا فياله من منظر مهيب، وياله من مظهر رهيب، وما اشد غفلة من قال انه لا حاجة اليه، للاستغناء بعلم الله عنه.

ولولا تحكيم الناس الرأي والخيال فيما لا مجال لهما فيه من أمور الغيب واهتمامهم بكل ما روي فيه عن المتقدمين لكنا في غنى عن اطالة الكلام في حكاية تلك الاختلافات بالاختصار في بيان العقائد على ما ثبت في آيات الكتاب العزيز ثم الاحاديث الصحيحة المخرجة في دواوين السنة المشهورة، دون الشاذة والغريبة. ومن هذه الاحاديث الغريبة في هذا الباب « حديث البطاقة » الذي سبقت الاشارة اليه فقد رواه الترمذي في (باب من يموت وهو يشهد ان لا إله الا الله) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا ولفظه « ان الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول لا يا رب، فيقول ألك عذر؟ فيقول لا يا رب. فيقول بلى ان لك عندنا حسنة وانه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها: أشهد ان لا إله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله. فيقول احضر وزنك — فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: فانك لا تظلم (قال) فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء » قال الترمذي هذا حديث حسن غريب. ورواه الحاكم وصححه وتصحيح الحاكم لا يعول عليه وان لم يكن في سند هذا الحديث عنده ممن تكلم فيهم غير عبد الله بن شريك الذي بالغ الجوزجاني فوصفه بالكذب. ورواه ابن حبان وفي سنده عبد الله بن عمر الخراساني قالوا ان له مناكير. وطريق الجميع واحدة. وجعله دليلا على كون الميزان ذا كفتين ولسان غير متعين

(١) راجع ص ٦٤٢ ولاستدراك في ص ٤٥٢ ج ٨

لامكان جعل الكلام استعارة مكنية و جعل الكفة ترشيحا لها فان باب المجاز في رجحان المقول والآراء والاقوال و الاشخاص بعضها على بعض واسع جداء والتعبير عنها بالوزن والميزان كثير كما قلنا . والمراد ان الحديث لا ينهض بسنده ولا بدلالته حجة على عقيدة قطعية ولا راجحة وقد رأيت كيف ان الحافظ بعد ان نقل عن القرطبي ترجيح وزن الصحف والاستدلال عليه بالحديث تقوية لاثر ابن عمر به ـ قال والصحيح ان الاعمال هي التي توزن واستدل بحديث وزن الاخلاق وهو صحيح وقد عده معارضا لحديث البطاقة الذي لا يبلغ درجته في الصحة

وقد استشكل العلماء متن هذا الحديث بأنه يدل على أن كلمة من ذكر الله ترجح على ما لا يحصى من الذنوب وذلك يفضي الى اباحتها والاغراء بها والى ترك الواجبات وهو مخالف لكثير من النصوص القطعية واستدل به المرجئة على قولهم انه لا يضر مع الايمان ذنب ، واجاب الجمهور باجوبة لعل اقواها ما أشار اليه الترمذي من ان وجه تخليص صاحب البطاقة بالشهادتين انه مات على الايمان والظاهر انه كان كافرا فآمن فمات قبل ان يتمكن من الاعمال الصالحة ولا خلاف في نجاة مثله

---

(٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ

تقدم ان الله تعالى بدأ هذه السورة بذكر إنزال القرآن على خاتم الرسل لينذر به جميع البشر فيما يدعوهم اليه من دينه ، وبيان ان أساس الدين الالهي أن واضع الدين هو الله تعالى رب العباد فالواجب فيه اتباع ما أنزله اليهم وان لا يتبعوا من دونه اولياء يتولونهم ويعملون بما يأمرونهم به من عبادة وحلال وحرام . وأنه قفى على ذلك ببيان نوعي العذاب الذي انذر به من يتبعون اولئك الاولياء اي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . فهذا موضوع الآيات السابقة

ولما كان الدين الذي امر تعالى باتباع التنزيل فيه دون غيره — الا ما بينه من سنة الرسول المنزل عليه بأمره — هو دين الفطرة المبين لكل ما يوصلها الى كمالها والناهي لها عن كل ما يحول بينها وبين هذا الكمال ، وكان افتتان الناس بأمر المعيشة من اسباب إفساد الفطرة بالاسراف في الشهوات ، من حيث إنه يجب ان تكون نعم الله عليهم بما يحتاجون اليه من امر المعيشة سببا

لاصلاحها بشكر الله عليه الموجب للمزيد منه — لما كان الامر كذلك ذكر سبحانه الناس في هذه الآية بنعمه عليهم في التمكين في الارض وخلق انواع المعايش فيها وهو بدء سياق طويل فيه بيان خلق نوعهم الانساني مستعدا للكمال وما يعرض له من وسوسة الشيطان التي تصده عنه، وما ينبغي لافراده من اتقاء فتنة هذه الوسوسة وعدم اتخاذ شياطينها الملقين لها اولياء يتبعونهم دون ما انزل اليهم من ربهم، فانهم هم الذين يحملونهم بذلك على كفر النعم عوضا عن الشكر ، وعلى تحريم ما احل الله وتحليل ما حرمه ويتلوه ما شرعه لهم من الزينات والطيبات وما حرمه عليهم فيها

فهذا السياق الاستطرادي او المشبه للاستطراد يبتدىء من الآية التاسعة الى الآية الثانية والثلاثين ، ثم يعود الكلام الى ذكر دعوة الرسل للامم وجزاء من آمن بهم واتبعهم ومن كفر بهم وعصاهم، وفيه تفصيل لما اجمل في الآيتين اللتين قبل هذه الآية من جزاء الآخرة — فتأمل دقة بلاغة التناسب بين آيات القرآن فانها نوع خاص من انواع إعجازه الكثيرة . قال تعالى

﴿ ولقد مكناكم في الارض ﴾ مكناكم في الارض – جعلنا لكم فيها وطنا تتبوأونه وتتمكنون من الراحة في الاقامة فيه [1] وتأكيد الخبر باللام وقد لتذكير الغافلين عن كونه من نعم الله عليهم وكذا ما عطف عليه من قوله ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ جمع معيشة وهي ما تكون به العيشة والحياة الجسمانية الحيوانية من المطاعم والمشارب وغيرها . اي وانشأنا لكم فيها ضروبا شتى مما يعيشون به عيشة راضية ، والنكتة في تقديم « لكم فيها » على « معايش » مع ان الاصل ان يقدم المفعول به على غيره من متعلقات الفعل هو ان المقصود من ذكر خلق المعايش كونها نعما منه سبحانه على الناس جعلهم مالكين لها ، متمكنين من الانتفاع بها ، لا كونها مجعولة ومخلوقة . والقاعدة في تقديم بعض الكلام على بعض هي ان يقدم المقصود بالذات والاهم فالاهم منه كما حققه الشيخ عبد القاهر في دلائل الاعجاز ، ولا شك ان كون المعايش لهم اهم من كونها في الارض التي مكنهم فيها – فههنا ثلاثة اشياء المعايش وكونها في الوطن الذي يعيش فيه المرء ، وكون المرء مالكا لها ومتصرفا فيها ، ولا مشاحة في ان الاهم عند كل انسان ان يكون مالكا لما يعيش به ويتلوه ان يكون ذلك

في وطنه ويتلوه انواعه وان تكون كثيرة وهو ما أفاده ترتيب الكلمات في الآية . ولا تجد هذه الدقة في تقديم ما ينبغي وتأخير ما ينبغي مطردة الا في كتاب الله تعالى

ولما كانت هذه المعايش انواعا كثيرة من نبات شتى وانعام وطير وسمك ومياه صافية واشربة مختلفة الطعوم والروائح وغير ذلك — وكانت بذلك — تقتضي شكرا كثيرا — وكان الشكور من العباد قليلا (وقليل من عبادي الشكور) قال تعالى عقب الامتنان بها ﴿ قليلا ماتشكرون ﴾ أي شكراً قليلا تشكرون هذه النعم لا كثيرا يناسب كثرتها وحسنها وكثرة الانتفاع بها . وشكر النعمة للمنعم يكون أولا بمعرفتها له والاعتراف بأنه هو مسديها والمنعم بها — وثانيا بالحمد له والثناء عليه بها — وثالثا بالتصرف بها فيما يحبه ويرضيه وهو ما أسداها لاجله من حكمة ورحمة . وهو هنا حفظ حياتنا البدنية أفرادا وجماعات خاصة وعامة والاستعانة بذلك على حفظ حياتنا الروحية التي تكمل بها الفطرة بتزكية الانفس وتأهيلها لحياة الآخرة الابدية ، وسيأتي في هذا السياق بيان لاصول ذلك في قوله تعالى (٢٩ يابني آدم خذوا زينتكم . .) الخ

وفي الآية من المباحث اللفظية قراءة نافع في رواية عنه معائش بالهمز ، وغلطه سيبويه ومن تبعه لان القاعدة عندهم انه لايهمز بعد ألف الجمع الا الياء الزائدة في المفرد كصحيفة وصحائف ، وياء معيشة أصلية فيجب عندهم أن تثبت في الجمع كما اتفقت عليه القراءات السبع المتواترة ، وهذه الرواية عن نافع غير متواترة ولذلك عدوها خطأ منه . والصواب انه رواها وهو أجل من ان يفتجرها افتجاراً . وفي المصباح قول انها من معش لا من عاش فالياء زائدة وجمعها معائش قال : وبه قرأ أبو جعفر المدني والاعرج . أي في الشواذ . وألحقها المفسرون وبعض اللغويين بما سمع عن العرب من أمثالها كصائب ومعائب ، وقالوا إنه من تشبيه مفاعل بفعائل . ونقول ان العرب لاحجر عليهم بما وضعه غيرهم لكلامهم من القواعد المبنية على الاستقراء الناقص . والقرآن أعلى من كل كلام فأولى أن لا ينكر منه شيء صحت الرواية به لغة عند من رواها وان لم يثبت كونها قرآنا الا بالتواتر

(١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ

هذا شروع في بيان ما أشرنا اليه من خلق أصل هذه النشأة الآدمية ، واستعداد الفطرة البشرية ، وعلاقتها بالارواح الملكية والشيطانية ، وما يعرض لها من موانع الكمال ، باغواء عدو البشر الشيطان ، ويليه ما يترتب عليه من الهداية والارشاد ، الى ما يتقى به ذلك الاغواء والفساد ، قال تعالى

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ الخطاب لبني آدم والمعنى خلقنا جنسكم أي مادته من الصلصال والحمأ المسنون وهو الماء والطين اللازب المتغير الذي خلق منه الانسان الاول ، ثم صورناكم بأن جعلنا من تلك المادة صورة بشر سوي قابل للحياة ، أو قدرنا إيجادكم تقديراً ، ثم صورنا مادتكم تصويراً ، ومعنى الخلق في أصل اللغة التقدير ثم أطلق على إيجاد الشيء المقدر على صفة مخصوصة . قال في حقيقة المادة من أساس البلاغة : خلق الخراز الاديم (أي الجلد) والخياط الثوب — قدره قبل القطع ، واخلق لي هذا الثواب . (قال) ومن المجاز خلق الله الخلق أوجده على تقدير أوجبته الحكمة اه ولكن هذا المجاز اللغوي

صار حقيقة شرعية . وهذا التفسير اظهر من حيث اللغة وهو يصدق بخلق آدم وبخلق مجموع الناس فان كل فرد من الافراد يقدر الله خلقه ثم يصور المادة التي يخلقه منها في بطن امه .

وقد اختلفت الروايات عن مفسري السلف في الجملتين فعن ابن عباس ثلاث روايات (احداها) ورواتها كثيروز وصححها بعضهم على شرط الشيخين قال فيهما: خلقوا في اصلاب الرجال وصوروا في ارحام النساء (والثانية) خلقوا في ظهر آدم ثم صوروا في الارحام اخرجها الفريابي (والثالثة) قال : اما خلقناكم فآدم واما ثم صورناكم فذريته . اخرجها ابن جرير وابن ابي حاتم . وروي عن قتادة نحوها قال : خلق الله آدم من طين ثم صوركم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسى العظام لحما . وعن مجاهد خلقناكم يعني آدم ، ثم صورناكم يعني في ظهر آدم . وعن الكلبي قال خلق الانسان في الرحم ثم صوره فشق سمعه وبصره واصابعه اه ملخصا من الدر المنثور . والتقدير الذي ذكرناه اولا هو الموافق لما عليه الجمهور . والانسان الاول آدم ولذلك قال :

﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ اي بعد ان سويناه ونفخنا فيه من روحنا، ما جعلناه به خليفة في الارض وعلمناه الاسماء كلها ، كما تقدم تفصيله في سورة البقرة .

﴿ فسجدوا إلا ابليس لم يكن من الساجدين ﴾ اي لم يكن من جملتهم لانه ابى واستكبر وفسق عن امر ربه . وهو من الجن لا منهم . وان كانت الجن نوعا من جنسهم، أو الجنة (بالكسر) جنسا للملائكة وللشياطين الذين هم مردة الجن وأشقياؤهم. وهذا السجود تكريم من الله لآدم لا سجود عبادة اذ نص القرآن القطعي قد تكرر بأنه لا يعبد الا الله وحده ، أو هو بيان لاستعداد آدم وذريته وما صرفهم الله تعالى به من قوى الارض التي تدبرها الملائكة بأسلوب التمثيل القصصي ، والامر فيه وفيما بعده تكويني قدري ، لا تكليفي شرعي ، فهو كقوله في خلق السموات والارض (فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) وسيأتي توضيحه في أثناء القصة وفي نهايتها ان شاء الله تعالى — وقد روي عن ابن عباس ان هذا السجود كرامة كرم الله بها آدم وقال كانت السجدة لآدم والطاعة لله ومثله عن قتادة ، وزاد أن ابليس حسد آدم على هذا التكريم . والدليل على انه تكريم امتحن الله تعالى به طاعة ذلك العالم الغيبي له فظهرت عصمة

الذين لايعصون الله ماامرهم ويفعلون ما يؤمرون وفسق ابليس قوله تعالى حكاية عن ابليس في سورة الاسراء (١٧ : ٦٢ قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخرتني الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا) حسده على هذا التكريم فحمله الحسد على الاستكبار والفسوق عن أمر الله كما صرحت به الآيات المختلفة في البقرة والكهف وغيرهما ويدل عليه جواب السؤال التالي :

﴿ قال مامنعك ان لاتسجد إذ امرتك ؟ ﴾ اي قال تعالى له مامنعك من امتثال الامر فحملك على ان لاتسجد لآمر الساجدين في الوقت الذي أمرتك فيه بالسجود ؟ واستدل علماء الاصول بهذا على ان الامر يقتضي الوجوب على الفور ﴿ قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ اي منعني من ذلك انني أنا خير منه لانك خلقتني من نار وخلقته من طين والنار خير من الطين واشرف، ولا ينبغي للاشرف ان يكرم من دونه ويعظمه، اي وان امره بذلك ربه. وهذا الجواب يتضمن ضروبا من الجهل الفاضح ماالوقع اللعين فيها الا حسده وكبره فانهما يعميان البصائر

(الاول) : الاعتراض على ربه وخالقه كما تضمنه جوابه ومثله في هذا كل من يعترض على كلام الله تعالى فيما لايوافق هواه، وهذا كفر لايقع مثله من مؤمن بالله وبكتابه فان المؤمن اذا خفيت عليه حكمة الله في شيء من كلامه بحث عنها بالتفكر والبحث وسؤال العلماء وصبر الى ان يهتدي الى مايطمئن به قلبه مكتفيا قبل ذلك بان الله تعالى يعلم مالايعلم من حكم شرعه ، وفوائد أمره ونهيه.

(الثاني) : الاحتجاج عليه بما يؤيد به اعتراضه والمؤمن المذعن لايحتج على ربه بل يعلم ان لله الحجة البالغة

(الثالث) : جعل امتثال امر الرب تعالى مشروطا باستحسان العبد له وموافقته لرأيه وهواه ، وهو رفض لطاعة الرب ، وترفع عن مرتبة العبد ، وتعال منه الى وضع نفسه موضع الند، وهو في حكم الدين كفر، وفي العقل حماقة وجهل. فان الرئيس لاي حكومة او جيش او جمعية او شركة اذا كان لايطيعه المرءوسون له الا فيما يوافق اهواءهم وآراءهم لايلبث امرهم ان يفسد بأن تختل الحكومة وتسقط ، وينكسر الجيش ويهلك ، وتنحل الشركة وتفلس ، وهكذا يقال في كل مصلحة يقوم بادارتها كثرة، يرجع نظامها الى جهة واحدة، كبوارج الحرب وسفن التجارة ومعامل الصناعة، فاذا كان الصلاح والنظام في كل امر يتوقف

على طاعة الرئيس وهو ليس ربا تجب طاعته لذاته ولا لنعمه، ولا معصوما من الخطأ فيما يأمر به، فما القول في وجوب طاعة رب العالمين على عبيده؟ ويشارك إبليس في هذا الجهل وما قبله كثيرون ممن يسمون انفسهم مؤمنين، يتركون طاعة الله تعالى فيما امر به مما يخالف اهواءهم، ويحتجون على ترك الصيام مثلا بأن لا فائدة في الجوع والعطش، او بان الله غني عن صيامهم!! على ان حكم الصيام كثيرة جلية كما بيناه مرارا

روى ابو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر الصادق عن ابيه عن جده ان رسول الله (ص) قال: « اول من قاس امر الدين برايه إبليس: قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال انا خير منه » الخ قال جعفر فمن قاس امر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بابليس. وروى ابن جرير عن الحسن: اول من قاس إبليس

(الرابع) الاستدلال على الخيرية بالمادة التي كان منها التكوين، وهذا جهل ظاهر من وجوه (احدها) ان خيرية المواد بعضها على بعض ليس من الحقائق التي يمكن اثباتها بالبرهان وانما هي امور اعتبارية تختلف فيها الآراء والاهواء. واصول المخلوقات المختلفة التركيب عناصر بسيطة قليلة يرجح انها متحولة عن اصل واحد كما يعلم من فن الكيمياء. (ثانيها) ان بعض الاشياء النفيسة اصلها خسيس، فالمسك من الدم، وجوهر الالماس من الكربون الذي هو أصل الفحم، والاقذار التي تعاف من مادة الطعام الذي يشتهى ويحب. (ثالثها) ان الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من مارج من نار وهو اللهب المختلط بالدخان فما فوقه دخان وما تحته لهب صاف فان مادة المرج معناها الخلط والاضطراب. ولا شك في ان النور خير من النار والنار الصافية خير من اللهب المختلط بالدخان. وقد سجد الملائكة المخلوقون من النور امتثالا لامر الله تعالى فكان هو اولى، بل أولى بأن يقال له: اولى لك فأولى.[1]

(الخامس) اذا سلمنا جدلا أن خيرية الشيء ليست في ذاته وصفاته الخاصة التي تفصلها عن غيرها من مقومات نوعه ومشخصات نفسه وصفاته التي يمتاز بها عن غيره، وانما هي تابعة للمادة التي هي أصل جنسه — فلا نسلم ان النار خير من الطين فان جميع الاحياء النباتية والحيوانية في هذه الارض مخلوقة من الطين بالذات او بالواسطة وهي خير ما فيها بكل نوع من انواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار أو لمارجها مثل هذه المزايا ولا ما يقرب منها،

(١) هي كلمة تهديد ودعاء بالهلاك

(السادس) ان اللعين غفل عما خص الله به آدم من خلقه بيده، والنفخ فيه من روحه، وجعل استعداده العلمي والعملي فوق استعداد غيره من خلقه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، وجعله بتلك المزايا أفضل من اولئك الملائكة وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة وبالطاعة

فهذه اصول الجهل والغباوة التي اوقع ابليس فيها حسده لآدم واستكباره عن طاعة الله بالسجود له. وانت ترى ان اولياءه ونظراءه من شياطين الانس مرتكسون فيها كلها والعياذ بالله تعالى. قال قتادة : حسد عدو الله ابليس آدم على ما اعطاه الله من الكرامة وقال انا ناري وهذا طيني فكان بدء الذنوب الكبر ، واستكبر عدو الله ان يسجد لآدم فاهلكه الله بكبره وحسده . وسيأتي تفسير الكبر والتكبر

وهذا التفصيل مبني على كون الامر بالسجود للتكليف ، وانه وقع حوار فيه بين الرب سبحانه وبين ابليس، واما على القول بأن الامر للتكوين وان القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان فالمعنى انه تعالى جعل ملائكة الارض المدبرة بأمر الله واذنه لامورها بالسنن التي عليها مدار نظامها كما قال (والمدبرات امراً) مسخرة لآدم وذريته اذ خلق الله هذا النوع مستعداً للانتفاع بها كلها بعلمه بسنن الله تعالى فيها وبعمله بمقتضى هذه السنن بخواص الماء والهواء والكهرباء والنور والارض معادنها ونباتها وحيوانها، واظهاره لحكم الله تعالى وآياته منها، ومستعداً لاصطفاء الله بعض أفراده، واختصاصهم بوحيه ورسالته، واقامة من اهتدى بهم لدينه وميزان شرعه. وقد اشير الى ذلك في سورة البقرة بقوله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) الا انه جعل الشيطان عاتيا متمرداً على الانسان بل عدواً له من حيث ان الانسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله واقامة سننه في صلاح الخلق وبين روح الجن الذين يغلب على شرارهم — وهم الشياطين المتمرد — والعصيان، وقد اعطي الانسان ارادة واختيارا من ربه في ترجيح ما به يصعد الى افق الملائكة وما به يهبط الى افق الشياطين وسيأتي تفصيل ذلك في هذا السياق

وفي الآية من المباحث اللغوية زيادة « لا » في جملة « مامنعك ان لا تسجد » اذ قال في سورة (ص) (مامنعك ان تسجد) وقد عهد في الكلام العربي الفصيح ان تجيء لا في سياق النفي الصريح وغير الصريح لتقويته وتوكيده وكذا في

غير النفي . وذلك على انواع منها هذه الآية وفي معناها قوله تعالى في تحاور موسى وهارون من سورة طه (قال يا هرون ما منعك إذ رايتهم ضلوا ان لاتتبعني افعصيت امري) وعدوا من هذا القبيل قوله تعالى (٦ : ١٠٨ وما يشعركم انها اذا جاءت لايؤمنون) وقوله عز وجل (٦ : ١٥١ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئا) وفي كل منهما معنى النفي وتقدم تفسيرها

ومنهم من خرج هذه الآيات وامثالها من الشواهد على جعل لاغير زائدة وتقدم ما اخترناه في آيتي الانعام واشرنا آنفا في هذه الآية الى ان منع هنا تتضمن معنى الحمل . والتضمين كثير في التنزيل وكلام العرب ولكن لم يجعله النحويون قياسيا . ويستدل عليه كثيرا بالتعدية كما بيناه في تفسير (ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم) اذ ضمن الاكل معنى الضم فعدي بالى . ويقرب منه تعبير سورة الحجر (مالك أن لاتكون مع الساجدين) والتقدير أي شيء عرض لك فحملك على أن لا تكون معهم واختار ابن جرير تضمين المنع هنا معنى الالزام والاضطرار فيكون التقدير ما الزمك اواضطرك الى ان لاتسجد

ومن مباحث البلاغة أن الفصل في حكاية السؤال والجواب جميعا « بقال قال» وارد على طريقة الاستئناف البياني فان من يسمع السؤال يتشوف لمعرفة الجواب ، وينزل منزلة من يسأل عنه فيجاب ،

﴿ قال فاهبط منها ﴾ الهبوط الانحدار والسقوط من مكان الى مادونه أو من مكانة ومنزلة الى مادونها ، فهو حسي ومعنوي . والفاء لترتيب هذا الجزاء على ماذكر من الذنب قبله ، والضمير عائد الى الجنة التي خلق الله فيها آدم وكانت على نشز مرتفع من الارض ، وقد كانت اليابسة قريبة العهد بالظهور في خضم الماء فخير مايصلح منها لسكني الانسان يفاعها وانشازها ، أو التي أسكنه إياها بعد خلقه في الارض وهي جنة الجزاء على القول بها — يدل على ذلك ماورد من الامر بالهبوط له ولآدم وزوجه بعد ذكر سكني الجنة من سورتي البقرة وطه ، وقيل انه يعود الى المنزلة التي كان عليها ملحقاً بملائكة الارض الاخيار قبل ان يميز الله الخبيث من الطيب من جنس الجنة بالسجود لآدم فيكون نوعين ملائكة وشياطين ، كما قيل في جنة آدم انها عبارة عن حياة النعيم الاولى للنوع التي تشبه نعيم الطفولية لافراده . وتقدم شرح ذلك في تفسير آيات سورة البقرة . ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ أي فما ينبغي لك وليس مما تعطاه من التصرف أن

تتكبر في هذا المكان المعد للكرامة ، أو في هذه المكانة التي هي منزلة الملائكة لانها مكانة الامتثال والطاعة ، والكبر اسم للتكبر وهو مصدر تكبر أي تكلف أي يجعل نفسه أكبر مما هي عليه أو أكبر ممن هي في ذاتها أصغر منه ، وقد ورد في الحديث الصحيح تفسير الكبر بأنه غمط الحق أو بطر الحق واحتقار الناس ، أو ازدراؤهم . وهو تفسير له بمظهره العملي الذي يترتب عليه الجزاء ، وهو أن لا يذعن للحق اذا ظهر له ، وان يحتقر غيره بقول أو عمل يدل على عدم الاعتراف له بمزيته وفضله ، أو بتنقيص تلك المزية بادعاء أن ما دونها هو فوقها ، سواء ادعى ذلك لنفسه فرفعها على غيرها بالباطل ، أو ادعاه لغيره ، بأن يفضل بعض الناس على بعض بقصد احتقار المفضل عليه وتنقيص قدره ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ هذا تأكيد للامر بالهبوط متفرع عليه ، أي فاخرج من هذا المكان أو المكانة ، وعلل ذلك بقوله على طريق الاستئناف البياني : « انك من الصاغرين » أي أولي الذلة والصغار ، أظهر حقيقتك الامتحان والاختبار ، الذي يميز بين الاخيار والاشرار ، باظهاره لما كان كامناً في نفسك من عصيان الاستكبار ، (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) وقال بعضهم انه تعالى جازاه بضد مراده اذ أراد أن يرفع نفسه عن منزلتها التي كانت فيها ، فجوزي بهبوطها منها الى ما دونها ، كما ورد في بعض الاخبار من ان الله تعالى يحشر المتكبرين يوم القيامة بصور حقيرة يطؤهم فيها الناس بأرجلهم ، كما أنه يبغضهم الى الناس في الدنيا فيحتقرونهم ولو في أنفسهم — وهذا التوجيه أليق بقول من جعل الامر للتكليف ، ولكن الحافظ ابن كثير جرى عليه بعد جزمه بالقول بأنه للتكوين واقتصاره عليه قال : « يقول تعالى لابليس بأمر قدري كوني فاهبط منها بسبب عصيانك لامري وخروجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبر فيها ، قال كثير من المفسرين الضمير عائد الى الجنة ، ويحتمل ان يكون عائداً الى المنزلة التي هو فيها من الملكوت الاعلى ، فاخرج انك من الصاغرين ، أي الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين ، وسأل النظرة الى يوم الدين »

﴿ قال انظرني الى يوم يبعثون ﴾ أي قال بلسان قاله على التفسير الاول — أو لسان حاله واستعداده على الآخر : رب أخرني وأمهلني الى يوم يبعث آدم

وذريته فأكون أنا وذريتي احياء ماداموا أحياء ﴿ قال انك من المنظرين ﴾ أي قال تعالى له مخبرا أو قال مريدا ومنشئا كما يقول للشيء كن فيكون: انك من المنظرين ، قال ابن كثير أجابه تعالى ما سأل لماله في ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه اه فهو يؤكد بهذا ما اختاره في مدلول هذا الحوار وهو أنه بيان لمقتضى التكوين الذي هو متعلق المشيئة ، لا مراجعة أقوال من متعلق صفة الكلام

وظاهر الكلام أنه جعل من المنظرين الى يوم يبعثون وان لم يصرح به للعلم به من السؤال ايجازاً قال ابن كثير : اجابه الى ماسأل . ولكن هذا السؤال ورد في سورة الحجر فكان جوابه بلفظ آخر وهو : (١٥ : ٣٦ قال رب فانظرني الى يوم يبعثون (٣٧) قال فانك من المنظرين ٣٨ الى يوم الوقت المعلوم) أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (رض) أنه قال في تفسير هذه الآيات: أراد ابليس أن لا يذوق الموت فقيل له «انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم » قال النفخة الاولى وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. واخرج الاول عن السدي قال: فلم ينظره الى يوم يبعثون ولكن أنظره الى يوم الوقت المعلوم . والنفخة الاولى في الصور هي التي يموت فيها جميع أهل الارض دفعة واحدة والثانية هي التي بها يبعثون وليس بعدها موت، ولذلك قال ابن عباس انه أراد أن لا يذوق الموت. وهذه النفخة تسمى نفخة الفزع لقوله تعالى في سورة النمل (٢٧: ٨٩ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات والارض الا من شاء الله) ونفخة الصعق لقوله في سورة الزمر (٣٩ : ٦٥ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله (قال) ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) ولاختلاف الوصفين قال أبو بكر بن العربي وغيره ان النفخات ثلاث وقال آخرون أربع ، ولكن ظاهر القرآن أنهما ثنتان وهما المراد بقوله (٦٩ : ٦ يوم ترجف الراجفة ٧ تتبعها الرادفة) فهم يفزعون فيصعقون أي يموتون بالاولى وهي الراجفة، ويبعثون بالثانية التي تردفها وتتبعها . وأصل الصعق تأثير الصاعقة فيمن تصيبه من إغماء وغشيان أو موت وهو الغالب ثم صار يطلق على الغشيان من كل صوت شديد وعلى الموت منه كما فسره الفيومي في المصباح .

وفيمن استثنى الله تعالى من الفزع والصعق عشرة أقوال على ما استقصاه الحافظ في الفتح ليس في شيء منها ذكر ابليس لعنه الله وما من قول من تلك الاقوال الا

وفيه نظر من بعض الوجوه وهذا أمر غيبي لا يعلم الا بتوقيف ولم يصح في قول منها حديث مرفوع متصل الاسناد فيما يظهر من كلامهم، ولكن ورد في حديث لابي هريرة ان النبي (ص) سأل جبريل عن هذه الآية : من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: « هم شهداء الله عز وجل » قال الحافظ صححه الحاكم ورجاله ثقات ورجحه الطبري اه ولكن الحافظ لم يذكر هذا قولا مستقلا بل ادمجه في قول من قال انهم الانبياء . أي بناء على ان المراد بشهداء الله حججه على خلقه بحسن سيرتهم واستقامتهم في الدنيا إذ يشهدون في الآخرة بضلال كل من كان مخالفا لهديهم وسنتهم في اتباع دين الله عز وجل . والانبياء منهم قطعا فكل نبي يشهد على قومه كما قال (فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) وهؤلاء الشهداء لا تخلو الارض منهم ، يقلون تارة ويكثرون اخرى . ولكن يجب أن يجعل هذا قولا مستقلا فان الشهداء اعم من الانبياء ومن الصديقين فكل نبي شهيد وكل صديق شهيد ومن الشهداء من ليس بنبي ولا صديق ولكن كل شهيد صالح وما كل صالح بشهيد ، فبين طبقات (الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) العموم والخصوص المطلق . واذا كان الصعق المراد هو الموت فلا يظهر للقول بأن المستثنى هم الانبياء وجه ، وكذا اذا كان المراد به الغشيان المعبر عنه في آية النمل بالفزع وكانت النفخة المحدثة له هي الاولى إذ يتلوه موت الخلق وخراب الدنيا كما هو الظاهر المتبادر . وظاهر بعض الاحاديث ان ذلك يكون يوم البعث وهو خلاف المتبادر من الآيات كلها. فعلم مما ذكرنا ان إبليس لا ينتهي إنظاره الى يوم البعث بل يموت عقب النفخة الاولى التي يتلوها خراب هذه الارض كما قال تعالى في سورة الحاقة(٦٩: ١٢ فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة ١٣ وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة) الا اذا قيل ان يوم القيامة ويوم البعث يطلق تارة على ما يشمل زمن مقدماته فيسمى كل ذلك يوما كما يطلق تارة على زمن المقدمات وحدها وتارة على زمن الغاية وحدها . اذ معناه في اللغة الزمن الذي يتميز بعمل معين فيه كأيام العرب المعروفة . وقد يستدل على هذا بقوله تعالى بعد الآيتين المذكورتين آنفا من سورة الحاقة (١٤ فيومئذ وقعت الواقعة) ـــ الآيات . وفي هذا الباب حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما الناطق بأن الناس يصعقون يوم القيامة وان النبي (ص) يكون أول من يرفع رأسه فيجد

موسى آخذا بقائمة من قوائم العرش قال « فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله عز وجل » وظاهره أن ذلك غشيان يقع بعد البعث في موقفه، ويحتمل ان يعم صعق النفخة الاولى الاحياء والاموات الا من استثنى والا كان مشكلا يحتاج الى الجمع بينه وبين مايعارضه مما علمت بعضه وليس هذا المقام بالذي يتسع لتحقيق هذه المسألة

وقد استشكل المفسرون ولاسيما علماء الكلام منهم هذا الانظار بالنسبة الى مايترتب عليه من الشر والاغواء وسيأتي بيان حكمته بعد انتهاء تفسير هذه الآيات

﴿ قال فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ الاغواء الايقاع في الغواية وهي ضد الرشاد، لانها في أصل اللغة بمعنى الفساد المردي من قولهم غوى الفصيل — كهوى ورمى، وغوي كهوي ورضي — اذا فسد جوفه من كثرة اللبن فهزل وكاد يهلك . وصراط الله المستقيم هو الطريق الذي يصل سالكه الى السعادة التي أعدها سبحانه لمن تزكى نفسه بهداية الدين الحق وتكميل الفطرة. والفاء لترتيب مضمون الجملة التي تليها على مضمون ماقبلها . والباء للسببية أو القسم والمعنى فبسبب اغوائك إياي من أجل آدم وذريته أقسم لاقعدن لهم على صراطك المستقيم فأصدهم عنه واقطعه عليهم بان أزين لهم سلوك طرق أخرى أشرعها لهم من جميع جوانبه ليضلوا عنه ، وهو مافسر بقوله

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ أي فلا أدع جهة من جهاتهم الاربع الا وأهاجمهم منها . وهذه جهات معنوية كما ان الصراط الذي يريد اضلالهم عنه معنوي ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى (٦ : ١٥٣) وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) الآية مايوضح ماهنا ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ لنعمك عليهم في عقولهم ومشاعرهم وجوارحهم ومعايشهم ، ومايهديهم الى تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك اليهم ، أي لايكون الشكر التام الممكن صفة لازمة لاكثرهم بل للاقلين منهم . قيل انه قال هذا عن ظن فاصاب لقوله تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) وقيل عن علم بالدلائل لا بالغيب والدلائل النظرية غير القطعية ظنون. وتقدم تعريف الشكر في تفسير آية (ولقد خلقناكم) وهي فاتحة هذا السياق

روي عن ابن عباس (رض) في تفسير الاربع قال : « ثم لآتينهم من بين أيديهم » قال : أشككهم في آخرتهم ، « ومن خلفهم » فأرغبهم في دنياهم،

« وعن ايمانهم » أشبه عليهم أمر دينهم « وعن شمائلهم » استمرّ لهم المعاصي ، « ولا تجد أكثرهم شاكرين » قال موحدين . فسر الشكر بأصل أصوله ومنبت جميع فروعه وهو توحيد الربوبية والالوهية الذي هو منتهى الكمال في معرفته تعالى ، وفي رواية أخرى عنه : من بين أيديهم — من قبل الدنيا ، ومن خلفهم — من قبل الآخرة ، وعن ايمانهم — من قبل حسناتهم ، وعن شمائلهم — من جهة سيئاتهم . وهي انما تخالف الاولى في تفسير ما بين الايدي والخلف خلاف تناقض في اللفظ والمراد واحد . وهو هل المراد فيما بين الايدي ما هو حاضر أم ما هو مستقبل ، وهل المراد بالخلف مايتركه المرء ويتخلف عنه وهو الدنيا أم ماهو وراء حياته الحاضرة وهو الآخرة ؟ اللفظ يحتمل التأويلين . وعنه : لم يستطع أن يقول من فوقهم — علم ان الله فوقهم ، وفي لفظ لان الرحمة تنزل من فوقهم . وعن مجاهد وقتادة ماهو بمعنى ماذكر مع تفصيل مّا كما في الدر المنثور وهما من تلاميذه (رض) والفوقية معنوية كغيرها . واثبات العلو والفوقية لله تعالى تنطق به الآيات والاحاديث الصحيحة فنؤمن بها وبتنزيهه تعالى عما لايليق به من صفات خلقه جميعا . وفي رواية عن مجاهد : من بين ايديهم وعن ايمانهم من حيث يبصرون ، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لايبصرون . وحاصل المعنى كما قال ابن جرير جميع طرق الخير والشر فالخير يصدهم عنه والشر يحسنه لهم . وروى احمد وابو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث ابن عمر قال : لم يكن رسول الله (ص) يدع هؤلاء الدعوات « اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك ان أغتال من تحتي »

﴿ قال اخرج منها مذؤما مدحورا ﴾ يقال ذأم المتاع (من باب فتح) وذامه بالتخفيف يذيمه ذيما وذاما (بالقلب) اذا عابه وذمّه . ويقال دحر الجند العدو اذا طرده وأبعده — فهو بمعنى اللعن . وبذلك ورد التفسير المأثور للفظين . والامر الاول بالخروج قد ذكر لبيان سببه ، وهذا لبيان صفته ، والمعنى اخرج من الجنة أو المنزلة التي أنت فيها حال كونك معيبا مذموما من الله وملائكته مطرودا من جنته فهو بمعنى لعنه وجعله رجيما في آيات أخرى ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ جهنم اسم من أسماء دار الجزاء على الكفر والفسوق والعصيان . اخبر تعالى خبرا مؤكدا بالقسم بأن من يتبع إبليس من ذرية آدم فيما يزينه لهم من

الكفر والشرك والفجور والفسق، فان جزاءهم أن يكونوا معه أهل دار العذاب يملأها منهم اجمعين، وغلبه هنا في الخطاب . وفي آخر سورة ص (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين) ويدخل في خطابه أعوانه في الاغواء من ذريته والنصوص فيهم كثيرة وقوله «منهم» يدل على ان الاملاء يكون من بعضهم والا قيل: لأملأن جهنم بكم . وذلك ان بعض من يتبعه من المؤمنين الموحدين في بعض المعاصي يغفر الله لهم ويعفو عنهم

وفي سورتي الحجر وص استثناء عباد الله المخلصين من إغوائه لمنه الله حكاية عنه وهو مقابل الاكثر هنا . وأكد سبحانه ذلك في سورة الحجر بقوله (١٥:٤٢ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) ونحوه في سورة الاسراء (١٧:٦٥) وفي سورة ابراهيم عليه السلام ما يفيد انه ليس له سلطان على أحد ، وانما هو داعية شر وما تبعه من تبعه الا مختارا مرجحا للباطل على الحق وللشر على الخير ، فقد قال في سياق تخاصم أهل النار يوم القيامة من المستكبرين المضلين والضعفاء الذين اتبعوهم في ضلالهم (١٤ : ٢٥ وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي) وسيأتي فائدة التذكير بهذا عند تفسير الآيات الآتية في نصح بني آدم وتحذيرهم من طاعة الشيطان

وقد استشكل بعض المفسرين ولا سيما المتكلمين منهم خطاب الرب سبحانه للشيطان في هذا التحاور الطويل واختلفوا فيه هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسل البشر أم بغير واسطة وكيف وهو يقتضي التكريم ، وتحكموا في الجواب حتى قال بعضهم إن الشيطان كان يطلع على اللوح المحفوظ فيعلم مراد الله في جواب أسئلته . واستشكلوا أمر الله تعالى إياه بأغواء البشر وإضلالهم المبين في سورة الاسراء بقوله سبحانه (١٧ : ٦٤ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) الآية . مع قوله تعالى (ان الله لا يأمر بالفحشاء) وانما يشكل هذا كله على ماجروا عليه من جعل الخطاب للتكليف . وأما اذا جعل الخطاب للتكوين كما صرح به ابن كثير فلا اشكال لانه عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة البشر وطبيعة الشيطان . وللاشعرية والمعتزلة فيها جدل طويل ، فالاولون يثبتون الاغواء والاضلال لله تعالى وينفون رعاية الرب لمصالح العباد في كل من دينهم ودنياهم ، والآخرون

يعكسون، فندع أمثال هذه المباحث الجدلية لابي بجدتها الرازي والزمخشري، ونختم تفسير هذه الآيات ببيان حكمة الله تعالى في خلق إبليس وذريته الشياطين، وكشف شبهة المستشكلين له وخلق الانسان مستعدا لقبول إغوائه فانها مما يحتاج اليه هنا حتى على القول بأن السياق كله لبيان حقيقة التكوين .

حكمة خلق الله الخلق واستعداد الشيطان والبشر للشر

اعلم ان الحكمة العليا لخلق جميع المخلوقات هي ان يتجلى بها الرب الخالق لها بما هو متصف به من صفات الكمال — ليعرف ويعبد ، ويشكر ويحمد ، فهي مظهر أسمائه وصفاته ، ومجلى سننه وآياته ، وترجمان حمده وشكره ، (وان من شيء الا يسبح بحمده) لذلك كانت في غاية الاحكام والنظام ، الدالين على العلم والحكمة والمشيئة والاختيار ، ووحدانية الذات والصفات والافعال ، (صنع الله الذي أتقن كل شيء * الذي أحسن كل شيء خلقه) كما نطق القرآن . الخير كله بيديه ، والشر ليس اليه ، كما ورد في الحديث . بل ليس في خلقه ما هو شر محض في نفسه ، وانما الشر أمر اعتباري مداره على ما يؤلم الاحياء أو تفوت به مصلحة أو منفعة على أحد منهم فيكون شراً له ان لم يترتب على ذلك منفعة أعظم ، أو دفع مفسدة أكبر ، فان الانسان قد يتألم من الدواء الذي يزيل مرضه الذي هو أشد وأطول إيلاماً منه ، وقد تفوته منفعة صغيرة يكون فوتها سبباً لمنفعة أكبر منها ، كالذي يبذل ماله في المصلحة العامة لملته ووطنه فيكرم ويكون قدوة في الخير ، وحظه من كرامة الامة وعمران الوطن أعظم مما بذل من المال ، وفوق ذلك من يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله وهي سبيل الحق والخير وسعادة الدارين ابتغاء مرضاته والزلفى عنده

وقد كان من مقتضى تحقق معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلى أن يخلق ما علمنا ومالم نعلم من أنواع المخلوقات ، وأن تكون المقابلات والنسب بين بعضها مختلفة من توافق وتباين وتضاد ، ويترتب على ذلك في نظام الخلق ، ان الضد يظهر حسنه الضد ، وان تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ، وان يسيء بعضهم الى نفسه أو الى غيره ، وان يكون بعضهم مفطوراً على طاعة ربه ، دائباً على عبادته وحمده وشكره ، وان يكون بعضهم مختاراً في عمله ، مستعدا للاضداد في ميله وطبعه ، يتنازعه عاملا الكفر والشكر ، وتشتبه عليه حقيقتا التوحيد والشرك ، و تتجاذبه داعيتا الفجور والبر ، فيكون لشكره وبره ، وطاعته لربه ، من عظم الشأن مع معارضة الموانع ما ليس

للفطور على ذلك ، وقد يعصي فيفيده العصيان خوفا ورهبة ، ويحمله على التوبة ، فيكون له أوفر حظ من اسمي العفو الغفور ، وقد يستكبر عن الطاعة والايمان ، ويصرّ على الفسوق والعصيان ، فيكون موضعا لعقاب الحكم العدل ، وآية فيه على تنزهه تعالى عن الجور والظلم ،

ولا نعرف نوعاً من أنواع الخلق مفطورا على الباطل والشر ، مجبورا على الفسق والكفر ، فهو غير موجود ، على أنه لو وجد لما صح أن يعترض به العبد المربوب ، على الرب المعبود ، وهذه الآيات المبينة لمعصية إبليس — وهو شر أفراد هذا النوع المسمى بالجن — تدل على انه كان مختارا في عصيانه باتيا إياه على شبهة احتج بها عليه ، وكذلك خلق الله نوعه فكانوا كالبشر منهم المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، كما يعلم من السورة التي سميت باسمهم (الجن) قال تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) الفسق الخروج من الشيء فهو يدل على أنه كان قبل ذلك يطيعه ويعبده كما يدل عليه وجوده مع الملائكة ، وعقوبته باخراجه منهم بعد المعصية. وقد عصى آدم ربه بعد عصيان ابليس ، وكان الفرق بينهما ان آدم تاب الى ربه فتاب عليه وهداه واجتباه ، وجعله موضع مغفرته ورحمته ، وان ابليس أصر على عصيانه واحتج على ربه فلعنه وأخزاه ، وجعله موضع عدله في عقابه ، وقص قصصهما ، على المكلفين من ذريتهما ، أو أظهر حقيقة النوعين ، ومآل العملين ، عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتقين ، وابتلاء (اختبارا) للعالمين ، يميز الله به المحسنين والمسيئين ، ويزيل بين الطيبين والخبيثين ، اذ كان من سننه فيهما ان الحياة جهاد ، يظهر به ما اودع في النفوس من الاستعداد ، وان من حكم تفاوت البشر فيه أن يكون منهم العالم والجاهل ، والحكيم والحاكم ، والمسوس والسائس ، والجندي والقائد ، والمخدوم والخادم ، والزارع والصانع ، والتاجر والعامل ، فلولا العمال — مثلا — لما اتسعت مسائل العلوم بالاعمال ، ولما أمكن الانتفاع مما اكتشف العلماء من أسرار الطبيعة وخواص المخلوقات ، ولولا ذلك لما عرفت نعم الخالق وسننه ودقائق علمه وحكمته في الاشياء ، وغير ذلك من معاني الصفات ومظاهر الاسماء ، وموجبات الحمد والشكر والثناء ،

وجملة القول ان كل ماخلقه الله تعالى فهو حسن في نفسه ، متقن في صنعه ، مظهر لنوع أو أنواع من حكمه في خلقه ، ومن كماله في ذاته وصفاته ، ولا

شيء منه بباطل ولا بشر محض (١٥ : ٧٥ وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق ٣٨ : ٢٦ وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا النار)

واذا كان من حكمته تعالى فيما ذكر من معصيتي أبوي الانس والجن ظهور استعدادهما، وإظهار حكمه تعالى في الجزاء على الذنوب في حالي التوبة منها والاصرار عليها، والعبرة والموعظة، وحسن الاسوة، وسوء القدوة، والابتلاء والجهاد وغيره مما بينا — واذا كانت معصية الاول بسبب وسوسة الآخر — فلا خفاء في استمرار ذلك في ذريتهما، لانه من مقتضى فطرة نوعيهما، التي هي مظهر أسماء الله وصفاته فيهما، فجنس الجن أو الجنة الغيبي الروحاني نوعان أو صنفان صنف ملكي يلابس أرواح البشر الميالة الى الحق والخير فتقوى داعيتهما فيها، وصنف شيطاني يلابس أرواح البشر الميالة الى الباطل والشر فتقوى داعيتهما فيها، كما بينه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله « إن للشيطان لمّة بابن آدم وللملك لمة فاما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الآية — رواه الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والبيهقي في الشعب ورواة التفسير المأثور من حديث ابن مسعود — ومثل اتصال نوعي الجنة الروحية بروح الانسان كل بما يناسب طبعه — كمثل اتصال نوعي الجنة المادية بجسده وتأثيرهما فيه بحسب استعداده، وهي ما يسميه الاطباء بالميكروبات وسماها بعض الادباء النقاعيات، فان منها جنة الامراض والاوبئة التي تؤثر في الجسم القابل لها بضعفه والميكروبات التي تقوى بها الصحة كما بيناه من قبل .

قال الراغب في مفرداته : والجن يقال على وجهين (احدهما) للروحانيين المستترة عن الحواس كلها بازاء الانس فعلى هذا تدخل فيه الملائكة والشياطين فكل ملائكة جن وليس كل جن ملائكة، وعلى هذا قال ابو صالح الملائكة كلها جن وقيل بل الجن بعض الروحانيين، وذلك ان الروحانيين ثلاثة : اخيار وهم الملائكة، واشرار وهم الشياطين واوساط فيهم اخيار واشرار وهم الجن . ويدل على ذلك قوله تعالى (قل اوحي الي) الى قوله عز وجل (وانا منا المسلمون ومنا القاسطون) والجنة جماعة الجن اه وأقول ان هذا لا يخالف ما ذكر قبله من وحدة الجنس

فانه غلب على قسمين منه اسمان مميزان لهما لتضادهما. وقد فسرت الجنة (بالكسر) في قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) بالملائكة كما يدل عليه قوله قبل الآية عن كفار قريش (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون) الآيات . قال مجاهد وعكرمة وأبو صالح وابو مالك وقتادة ان الجنة في الآية الملائكة وان المراد بالنسب قولهم: الملائكة بنات الله · (ولقد علمت الجنة) أي الملائكة (انهم لمحضرن) في النار مقدمون على عذاب الكفر . اه ملخصا بالمعنى

ونكتفي هنا بهذا ونحيل في زيادة بسطه وايضاحه على ما تكرر في هذا التفسير من بيان حكمة الله في خلق البشر متفاوتي الاستعداد ومختارين في الاعمال (١) وكذا ما بيناه في خلق الجن والشياطين ووسوستهم ودرجة تأثيرها في آيات البقرة وغيرها (٢) وما حققناه في مسألة الخير والشر

ومن المباحث اللفظيـة في القصة انه اذا قوبل ماهنا بما في سورة الحجر يرى خلاف في الفصل والوصل في مقول القول من بعض الاسئلة والاجوبة مع الاتفاق على الفصل في بدء كل منها (بقال) على الاستئناف كما تقدم . فههنا عطف أمر الرب سبحانه لابليس بالهبوط وأمره الاول له بالخروج بالفاء وكذا قول إبليس « فبما أغويتني انه » على مرتب على ماقبـله متفرع عنه كما أشرنا اليه في مواضعه . وفصل طلب إبليس للانظار وجواب الرب له وأمره الثاني له بالخروج. وأما في سورة الحجر فقد وصل كل من طلب الانظار وجوابه بالفاء وكذا في سورة ص وفصل تعليل إغوائه للناس باغواء الرب له اذ قال «رب بما أغويتني » نخالف ذلك مافي سورة الاعراف ولكن اتفقت السورتان في عطف الامر بالخروج بالفاء

فههنا يقال اننا علمنا من سنة القرآن في قصصه المكررة انها لما كانت منزلة لاجل العبرة والموعظة والتأثير في العقول والقلوب اختلفت أساليبها بين إيجاز واطناب، وذكر في بعضها من المعاني والفوائد ما ليس في البعض الآخر حتى لاتمل للفظها ولا لمعانيها، وعلمنا ان الاقوال المحكية فيها انما هي معبرة

(١) راجع قصة آدم في تفسير أوائل البقرة و كلمة إنسان والبشر وكلمة حكمة في فهارس التفسير ومنها ص ٣٤٠ ج ٦ و ٣١٦ و ٣٨٢ ج ٧ (٢) راجع كلمة الشيطان في الفهارس أيضا ولاسيما ص ٤٢٦ ج ٥ و ٤١٣ و ٥٠٨ — ٥١٦ و ٦٢٤ ج ٧

عن المعاني وشارحة للحقائق وليست نقلا لالفاظ المحكي عنهم بأعيانها فان بعض أولئك المحكي عنهم أعاجم ولم تكن لغة العربي منهم كلغة القرآن في فصاحتها وبلاغتها — دع ماقيل فيه هنا من ان القصة مبينة لحقائق ثابتة في نفسها بأسلوب التمثيل وما ثم أقوال قيلت بالعربية ولا غيرها — علمنا هذا وذاك . ولكن الذي نجزم به أنه لايمكن ان يكون في كتاب الله اختلاف في المعاني وإن لم يكن تناقضا، وان اختلاف الاساليب وطرق التعبير فيه عن المعنى الواحد لاتختلف الا لنكت تفيد من فهمها فائدة لفظية أو معنوية ، فما فائدة ماذكر من اختلاف الفصل والوصل في سورتي الاعراف والحجر

والجواب ان الوصل بالعطف بالفاء في موضعه أفاد معنى زائدا على ماورد في مثله بالفصل استئنافا ولايحتاج في زيادة الفائدة الى نكتة غيرها، على انك اذا تأملت السياق في كل من الموضعين وجدت ان طلب ابليس الانظار في سورة الحجر قد ذكر بعد أمره بالخروج معطوفا بالفاء لترتبه على ما قبله ووصفه بأنه رجيم مقرونا بفاء السببية ولعنه الى يوم الدين — فلا غرو اذا جعل طلبه للانظار فيها متصلا بما قبله متفرعا عنه كأنه يقول يارب إذ طردتني من رحمتك، فأطل حياتي في هذه الدنيا الى يوم البعث إتماماً لحكمتك ، فأجابه تعالى جوابا معطوفا على طلبه الى ما تتم به الحكمة لاالى ماتتحقق به أمنيته في النجاة من الموت . ولعل من حكم إنظار إبليس أن يتمتع في الدنيا جزاء على ما كان من عبادته لله تعالى لانه لاحظ له في الآخرة ويحتمل أن يكون قد قصد هذا من طلبه الانظار

وأما نكتة حذف الفاء من قوله في سورة الحجر « رب بما أغويتني » مع اثباتها في سورة الاعراف لارتباطها بما قبلها فهي كما قال الخطيب الاسكافي ان الدعاء في الصدر يستأنف بعده الكلام والقصة غير مقتضية لما قبلها كما اقتضاها قوله رب فانظرني . والفاء توجب اتصال مابعدها بما قبلها والنداء أولا يوجب القطع واستئناف الكلام ولا سيما في قصة لايقتضيها ماقبلها فلم تحسن الفاء مع قوله « رب بما أغويتني » والموضعان الآخران لم يدخل فيهما نداء يوجب استئناف مابعده فلذلك وصل القسم فيهما بالاول بدخول الفاء اه

---

(١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ

هذه الآيات تتمة السياق الوارد في النشأة الاولى للبشر وشياطين الجن التي انزلت تمهيداً لهداية الناس بما يتلوها من الآيات في وعظ بني آدم وارشادهم الى ماتكمل به فطرتهم كما بيناه في بحث التناسب بين الآيات السابقة

﴿ ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة — كما هو نص التعبير في سورة البقرة — فهو معطوف على قوله تعالى في أول السياق (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وهذا أظهر من جعله معطوفا على قوله تعالى في الآية السابقة لهذه (قال أخرج منها مذؤما مدحورا) فان اخراجه من الجنة — على قول الجمهور — كان بعد الوسوسة لآدم كما هو مبين في هذه الآيات . والنداء يفيد الاهتمام بالامر بعده ، والامر بالسكنى قيل للاباحة وقيل للوجوب بناء على أنه أمر تكليف . ويقابله جعله أمراً تكوينيا قدريا كما تقدم مثله في أمر ابليس . واللام في الجنة للعهد الخارجي وهي الجنة التي خلق فيها أولا فيها آدم ، ومثله قوله تعالى في سورة

ن (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) لان آدم خلق من الارض في الارض ولم يرد في شيء من آيات قصته المكررة في عدة سور أن الله رفعه الى الجنة التي هي دار الجزاء على الاعمال ، وتقدم بيان الخلاف في هذه الجنة في تفسير القصة في سورة البقرة . والآية تدل على أن آدم كان له زوج أي امرأة وليس في القرآن مثل ما في التوراة من أن الله تعالى القى على آدم سباتا انتزع في أثنائه ضلعا من أضلاعه فخلق له منه حواء امرأته وانها سميت امرأة «لانها من امريء أخذت» وما روي في هذا المعنى فهو مأخوذ من الاسرائيليات وحديث أبي هريرة في الصحيحين « فان المرأة خلقت من ضلع » على حد (خلق الانسان من عجل) بدليل قوله «فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » أي لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة . ووثنيو الهند يزعمون أن لآدم أما ولها في مدينتهم المقدسة (بنارس) قبر عليه قبة بجانب قبة قبره . وقيل إن المراد بأمه الرمز الى الطبيعة . والآية ترشد الى أن المرأة تابعة للرجل في السكنى والمعيشة باقتضاء الفطرة وهو الحق الواقع الذي يعد ما خالفه شذوذاً

﴿ فكلا من حيث شئتما ﴾ أي فكلا من ثمارها حيث شئتما — وزاد في سورة البقرة « رغداً » حيث شئتما — ومن سنة القرآن أن يتضمن التكرار للقصص فوائد في كل منها لا توجد في الاخرى من غير تعارض في المجموع

﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ النهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه كما بيناه في تفسير (تلك حدود الله فلا تقربوها) فهو يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تغري به وتفضي اليه ورعاوا حتياطا . «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » كما ورد في الحديث . وتعريف الشجرة كتعريف الجنة ، وهي مشار اليها في الآية بما يعين شخصها ، ولم يبين في القرآن نوعها ولا وصفها ، الا ما في الآية التالية عن ابليس ومثله في سورة طه . وفي الفصل الثاني من سفر التكوين أول أسفار التوراة ما نصه «٨ وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقا ووضع هناك آدم الذي جبله ٩ وأنبت الرب الاله من الارض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للاكل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر) ثم قال (١٥ وأخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها ١٦ وأوصى

الرب الاله آدم قائلا من جميع شجر الجنة تأكل أكلا ١٧ وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لانك يوم تأكل منها موتا تموت » اه وقد أكل آدم من الشجرة ولم يمت يوم أكلها ، [1] والقرآن قد علل النهي بأنه يترتب على مخالفته أن يكونا من الظالمين لانفسهما أي بفعلهما ما يعاقبان عليه ولو بالحرمان من ذلك الرغد من العيش

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ﴾ قال الراغب : الوسوسة الخطرة الرديئة واصله من الوسواس وهو صوت الحلي ، والهمس الخفي ، قال (فوسوس اليه الشيطان) وقال (من شر الوسواس) ويقال لهمس الصائد وسواس اه فوسوسة الشيطان للبشر هي ما يجدونه في أنفسهم من الخواطر الرديئة التي تزين لهم ما يضرهم في أبدانهم أو ارواحهم ومعاملاتهم ، وقد فصلنا القول في ذلك مرارا . والظاهر هنا ان الشيطان تمثل لآدم وزوجه وكلمهما وأقسم لهما ، ولا مانع منه على قول الجمهور . ومن جعل القصة تمثيلا لبيان حال النوع البشري في الاطوار التي تنقل فيها يفسر الوسوسة بما تقدم آنفاً فان الانسان عند ما ينتقل من طور الطفولة التي لا يعرف فيها هما الى طور التمييز الناقص يكون كثير التعرض لوسوسة الشيطان واتباعها . وقد علل الوسوسة بأن غايتها أو غرضه منها أن يظهر لهما ما غطي وستر عنهما من سوآتهما : يقال وارى الشيء اذا غطاه وستره و : ووري الشيءُ غُطي وسُتر . والسوأة ما يسوء الانسان من أمر شائن وعمل قبيح . والسوأة السوآء الخلة القبيحة والمرأة المخالفة . قال في حقيقة الاساس : وسوأة لك ، ووقعت في السوأة السوآء . قال ابو زبيد

لم يهب حرمة النديم وحقت يا لقومي للسوأة السوآء

ثم قال : ومن باب الكناية بدت سوأته وبدت لهما سوآتهما اه واذا اضيفت السوأة الى الانسان اريد بها عورته الفاحشة لانه يسوءه ظهورها بمقتضى الحياء الفطري ما لم يفسده بتعود اظهارها مع آخرين فيرتفع الحياء بينهم . وجمعت هنا على القاعدة في اضافة المثنى الى ضميره اذ يستقلون الجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة فيجمعون المضاف كقوله تعالى (إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما) . وسنذكر معنى ما كان من هذا الخفاء لسوآتهما عنهما

(١) لا يصح أن يكون الموت هنا مجازيا لتأكيده بالمصدر مع انتفاء القرينة

في تفسير قوله تعالى (فبدت لهما سوآتهما) وما هو ببعيد

﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ أي وقال فيما وسوس به لهما : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا منها الا لأحد أمرين : اتقاء أن تكونا بالاكل منها ملكين أي كالملكين فيما أوتي الملائكة من الخصائص كالقوة وطول البقاء وعدم التأثر بفواعل الكون المؤلمة والمتعبة وغير ذلك ، وقرأ ابن عباس وابن كثير « ملكين » بكسر اللام واستشهد له الزجاج بما حكاه تعالى عن الشيطان في سورة طه بقوله (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) وهو ضعيف والقراءة شاذة — أو اتقاء أن تكونا من الخالدين في الجنة ، أو الذين لا يموتون البتة . أوهمهما ان الاكل من هذه الشجرة يعطي الآكل صفة الملائكة وغرائزهم ويقتضي الخلود في الحياة . واستدل به على تفضيل الملائكة على آدم ، وخصه بعضهم بملائكة السماء والكرسي والعرش من العالين والمقربين دون ملائكة الارض المسخرين لتدبير أمورها الذين كان معنى سجودهم له أن الله سخر لنوعه جميع قوى الارض وعوالمها — وذكر الرازي في تفسير الآية أنها أحد الدلائل على كون الملائكة الذين سجدوا لآدم هم ملائكة الارض فقط ، واستدل الشيخ محيي الدين بن العربي على عدم سجود جميع الملائكة بقوله تعالى لابليس في سورة الحجر (استكبرت أم كنت من العالين) بناء على أن العالين خواص الملائكة .

﴿ وقاسمهما : إني لكما لمن الناصحين ﴾ ادعى اللعين أنه ناصح لهما فيما رغبهما فيه من الاكل من الشجرة . ولما كان محل الظنة في نصحه عندهما ، لانه تعالى أخبرهما بأنه عدو لهما ، أكد دعواه بأشد المؤكدات واغلظها ، وهي القسم وإن واللام وتقديم « لكما » على متعلقه الدال على الحصر . وكان الظاهر ان يقال وأقسم لهما فان المقاسمة تدل على المشاركة كقاسمه المال أي أخذ كل منهما قسما ، وللمفسرين في الصيغة قولان أحدهما ان صيغة فاعل وردت للمفرد كثيرا وهذا منها فمعناه : وحلف لهما ، واستشهد له ابن جرير بقول خالد بن زهير

وقاسمها بالله جهدا لانتم ألذ من السلوى اذا ما نشورها

والقول الثاني انها على أصلها ، ووجهوه بوجوه لا دليل عليها كقولهم إنهما أقسما له إنهما يقبلان نصيحته اذا اقسم إنه ناصح ، وقولهم انهما طلبا منه

القسم فجعل طلبهما القسم كالقسم ، ولو قيل إنه هو الذي عرض عليهما ان يقسم لهما وطلب منهما ان يقسما له وبنى قسمه على ذلك لكان أقرب

﴿ فدلاهما بغرور ﴾ دلى الشيء تدلية ـ أرسله الى الاسفل رويدا رويدا لان في الصيغة معنى التدريج أو التكثير — أي فما زال يخدعهما بالترغيب في الاكل من الشجرة والقسم على أنه ناصح بذلك لهما به حتى اسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة وطاعة الفاطر بماغرهما به. والغرور الخداع بالباطل وهو مأخوذ من الغرة (بالكسر) والغرارة (بالفتح) وهما بمعنى الغفلة وعدم التجربة كما حققناه بالتفصيل في تفسير (٦ : ١١١ يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) واستشهدنا عليه بخداع الشيطان لآدم وحواء في مسألتنا [1] . وقيل دلاهما حال كونهما متلبسين بغرور ، والاول أظهر . والظاهر أنهما اغترا وانخدعا بقسمه وصدقا قوله لاعتقادهما ان أحدا لا يحلف بالله كاذبا ، واستنكر بعضهم ان يكونا صدقاه واستكبر ان يقع ذلك منهما ، وزعم ان تصديقه كفر ، ورجح هؤلاء ان يكون الغرور بتزيين الشهوة ، فان من غرائز البشر حب التجربة واستكشاف المجهول ، والرغبة في الممنوع ، فجاء الوسواس ناخا في نار هذه الشهوات الغريزية مذكيا لها ، مثيرا للنفس بها الى الى مخالفة النهي ، حتى نسي آدم عهد ربه ، ولم يكن له من العزم ما يصرفه عن متابعة امرأته ، ويعتصم به من تأثير شيطانه ، كما قال تعالى في سورة طه (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما) وفي حديث أبي هريرة في الصحيح « ولولا حواء لم تخن انثى زوجها » بناء على انها هي التي زينت له الاكل من الشجرة والمراد ان المرأة فطرت على تزيين ماتشتهيه للرجل . وقيل ان ذلك بنزع العرق أي الوراثة

﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ أي فلما ذاقا ثمرة الشجرة ظهرت لكل منهما سوأته وسوأة صاحبه وكانت مواراة عنهما ، قيل بلباس من الظفر كان يسترهما فسقط عنهما ، وبقيت له بقية في رءوس أصابعهما ، وقيل بلباس مجهول كان الله تعالى البسهما اياه ، وقيل بنور كان يحجبهما ، ولا دليل على شيء من ذلك ولم يصح به اثر عن

(١) يراجع في أول الجزء الثامن من التفسير

المعصوم . والاقرب عندي ان معنى ظهورها لهما ان شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الاكل من الشجرة فنبهتهما الى ما كان خفيا عنهما من امرها، فعجلا من ظهورها ، وشعرا بالحاجة الى سترها ، وشرعا يخصفان أي يلزقان أو يربطان يضعان على ابدانهما من ورق اشجار الجنة العريض ما يسترها — من خصف الاسكاف النعل اذا وضع عليها مثلها — . فالمواراة كانت معنوية ، فان كانت حسية فانما الا الشعر ساتر خلقي ، وقد تظهر الشهوة ما أخفاه الشعر ، وان لم يسقط بتأثير ذلك الاكل . ويدل على كل من هذين الوجهين فطرة الانسان التي نزلت الآيات في شرح حقيقتها وغرائزها . والله اعلم بمراده ، وخلقه وقدره أصدق شاهد لكتابه

﴿ وناداهما ربهما ألم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين ﴾ الاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ ، أي وقال لهما ربهما الذي يربيهما في طور المخالفة والعصيان، كما يربيهما في حال الطاعه والاذعان ، الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما إن الشيطان عدو لكما دون غيركما من الخلق بين العداوة ظاهرها فلا تطيعاه يخرجكما من الجنة حيث العيش الرغد الى حيث الشقاء في المعيشة والتعب في جهاد الحياة . وهذا القول هو ما ورد في سورة طه (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) والقرآن يفسر بعضه بعضا سواء ما تقدم نزوله منه وما تأخر

﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ هذا بيان مستأنف لما كان من أمرهما بعد ان تذكرا نهي الرب لهما عن الاكل من الشجرة لما فيه من ظلمهما لانفسهما به وهو أنهما قالا : يا ربنا! إننا ظلمنا أنفسنا بطاعتنا للشيطان وعصياننا لك كما أنذرتنا، وقد عرفنا ضعفنا وعجزنا عن التزام عزائم الطاعات، وان لم تغفر لنا ما نظلم به أنفسنا ، وترحمنا بهدايتك لنا وتوفيقك ايانا الى ترك الظلم، والاعتصام من الجهل والجهالة بالعلم والحلم، وبقبولنا اذا نحن تبنا اليك، وباعطائك ايانا من فضلك ، فوق ما نستحق بعد ذلك ، فوحقك لنكونن اذاً من الخاسرين لانفسنا، ولاسعادة والفلاح بتزكيتها، وانما ينال الفوز والفلاح بمغفرتك ورحمتك، لمن يتوب ويتبع سبيلك ، دون من يصر على ذنبه، ويحتج على ربه، كالشيطان الرجيم، الذي أبى واستكبر ، واحتج لنفسه على المعصية وأصر،

هذا ما يدل عليه المقام وتقتضيه الحال من معنى كلمات آدم التى تلقاها من ربه ، وهي التي أشير اليها في سورة البقرة ، (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) قالها خاشعا متضرعا وتبعته زوجه بها ، فحذفهما لمفعول «تغفر» - اذ لم يقولا وان لم تغفر لنا ذنبنا هذا أو ظلمنا - يدل على أنهما قد علقا النجاة من الخسران على المغفرة العامة المطلقة التي تشمل هذا الذنب وغيره ؛ من كل ذنب يتوب الانسان عنه ويرجع الى ربه ، وهو الذي يقتضيه مقام بيان حال الفطرة البشرية المبين في آيات أخرى كآية الاحزاب في حمل الانسان للامانة وكونه كان بذلك ظلوما جهولا ، وآية المعارج (ان الانسان خلق هلوعا * اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا ، الا المصلين) الخ ويؤيده ان هذا الذنب بعينه قد عوقبا عليه وشهرا به باعلامه تعالى ذريتهما به ، وهاك ما أجابهما الرب تعالى به ، إذ المقام مقام السؤال عنه :

﴿ قال اهبطوا جميعا بعضكم لبعض عدو ﴾ الخطاب لآدم وحواء عليهما السلام ، وللشيطان عليه اللعنة والملام ، أي اهبطوا من هذه الجنة أو من هذه المكانة — على ما تقدم مثله في قصة ابليس — بعضكم وهو الشيطان ، عدو لبعض وهو الانسان ، وأما الانسان فليس عدوا للشيطان ، لانه ليس مندفعا الى اغوائه وايذائه ، وانما يجب عليه أن يتخذه عدوا بأن لا يغفل عن عداوته له ولا يأمن وسوسته واغواءه ، كما قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقيل ان الخطاب لهما بالذات ولذريتهما بالتبع ، وفيه خطاب المعدوم — وقيل هو خطاب لهما فقط بدليل قوله في سورة طه (قال اهبطا منها) الخ وفي هذه التثنية قولان للمفسرين أحدهما انها لآدم وحواء ، والثاني انها لآدم وابليس ، وحواء تبع لآدم ، وهذا أقوى لانه جعل بعض المخاطبين عدوا لبعض وانما العداوة بين الانسان والشيطان لا بين المرء وزوجه التي خلقت ليسكن اليها وتكون بينهما المودة والرحمة . فعجبا لمن غفل عن هذا . ويحتمل ان تكون التثنية للفريقين فريقي الانسان والشيطان ، والمتبادر ان هذا الاخراج من ذلك النعيم عقاب على تلك المعصية ، وتأويل لكونها ظلما منهما لانفسهما ، وهو من نوع العقاب الذي قضت سنته تعالى في طبيعة الخلق ان يكون أثرا طبيعيا للعمل السيء ، مترتبا عليه ترتب المسبب على السبب ، وأما النوع الآخر من العقاب عليه من حيث هو عصيان للرب تعالى

الذي يكون في الآخرة فقد غفره تعالى لهما بالتوبة التي ذهبت بأثره من النفس وجعلتها محلا لاصطفائه تعالى كما قال في سورة طه (وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)

﴿ ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ﴾ أي ولكم في الارض استقرار أو مكان تستقرون فيه ، ومتاع تتمتعون به في معيشتكم الى حين ، أي زمن مقدر في علم الله تعالى وهو الاجل الذي تنتهي فيه أعماركم وتقوم به قيامتكم ، والمستقر يطلق مصدراً بمعنى الاستقرار واسم مكان منه والمتاع ماينتفع به ، وهذا المستقر والمتاع هنا بمعنى قوله تعالى في أول هذا السياق (ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش) فهو تعالى يذكرنا فيما خاطب به آخرنا على لسان آخر رسله وخاتمهم (ص) بما قاله لاولنا

ثم بين تعالى هذا القول المجمل بما هو جدير ان يفكر فيه ويسئل عنه فاستأنفه كسابقه وهو ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ أي في هذه الارض التي خلقتم منها تحيون مدة العمر المقدر لكل منكم ولمجموع نوعكم ، وفيها تموتون عند انتهائه ، ومنها تخرجون بعد موت الجميع وعند مايريد الخالق أن يبعثكم يوم القيامة للنشأة الآخرة ، كما قال في سورة طه (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وهي تشبه النشأة الاولى اذ قال (كما بدأكم تعودون) وقال مذكرا بها (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على ان نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون)

مغزى القصة والعبرة فيها

قد بينا من قبل أن الله قص علينا خبر نشأتنا الاولى ، بما يبين لنا سنته تعالى في فطرتنا ، وما يجب علينا من شكره وطاعته في تزكيتها وتهذيب غرائزها. وملخص هذه الآيات فيها مع مايفسرها ويوضحها من السور الاخرى أن الله تعالى خلق الانسان ليكون خليفة له في الارض ، وجعله مستعدا لعلم كل شيء فيها ، ولتسخير جميع مافيها من القوة والمادة لمنافعه ليكون في ذلك مظهرا لاسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، وتعلقها بتدبير خلقه ومعاملتهم في الآخرة والاولى ، وانه كان في نشأته الاولى في جنة من النعيم وراحة البال ، وانه لاستعداده للامور المتضادة ، التي يكون بها مظهرا للصفات المتقابلة ، كالضار والنافع والمنتقم والغافر ، كانت نفسه مستعدة للتأثر بالارواح التي تجذبها

الى الحق والخير ، وبالارواح الشيطانية التي تجذبها الى الباطل والشر ، وان عاقبة التأثر الاول سعادة الدارين بما تقبله طبيعة كل منهما ، وعاقبة الثاني شقاء الدارين بقدر مايوجد من أسباب الشقاء فيهما ، ويحتاج البشر في ذلك الى هداية الوحي الالهي الهادية الى اتقاء الاول والتعرض للآخر ، وهو مابينه تعالى في سورة طه بقوله (١٢٠ : ٢٠ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى ١٢١ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ١٢٢ ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى ١٢٣ قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا ١٢٤ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) ونحوه ماتقدم في سورة البقرة فهذا أثر الدين في الحفظ من شقاء الدنيا وهلاك الآخرة ، وكتاب الله حجة على من لا يصدق عليهم ذلك في حالهم ، ومن يفسرونه بما يخالف ذلك باقوالهم

وقد تقدم في تفسير القصة من سورة البقرة أن بعضهم جعلها تمثيلا لبيان هذه السنن والنواميس في فطرة البشر والشياطين على ان يكون المراد بآدم نوع الانسان الذي هو اصله كما تسمى العرب القبيلة باسم أصلها وجدها الاشهر فتقول فعلت قريش كذا وكذا وقالت تميم كيت وكيت — وان الجنة عبارة عن نعمة الحياة ، وان الشجرة عبارة عن الغريزة التي تثمر المعصية والمخالفة ، كما مثل كلمتي الكفر والايمان بالشجرة الخبيثة والشجرة الطيبة ، وان الامر بالخروج من الجنة أمر قدر وتكوين ، لا أمر تشريع وتكليف ، وقد شرح الاستاذ الامام هذا التأويل شرحا بليغاً يراجع هنالك ، والغرض المقصود منه لا يتوقف عليه ، وانما هو أقرب الى أذهان من يعسر إقناعهم بظواهر النصوص ولا تطمئن قلوبهم الا بمثل هذا الضرب من البيان .

هذا ملخص مضمون القصة أو ملخص بقيتها ، وأما ملخص مافيها من العبرة فهو انه ينبغي لنا أن نعرف أنفسنا بغرائزها واستعدادها للكمال ، وما يعرض لها دونه من الموانع ، فيصرفها عنه الى النقائص ، وان أنفع مايعيننا على تربيتها ان نتذكر عهده الينا بأن نعبده وحده ، وأن لا نعبد معه الشيطان ولا غيره ، وان نذكر ربنا ولا ننساه فننسى أنفسنا ، ونغفل عن تزكيتها ، وصقلها بصقال التوبة كلما عرض لها من وسواس الشيطان مايلوثها ، فانه إن يترك صار صدأ وطبعاً مفسداً لها ، وما أفسد أنفس البشر ودساها ، الا غفلة عقولهم

وبصائرهم عنها، وتركها كالريشة في مهاب أهواء الشهوات ، ووساوس شياطين الضلالات ، فعلى العاقل أن يعرف قيمتها ، ويحرص عليها أشد من حرصه على ماعساه يملك من نفائس الجواهر ، وأعلاق الذخائر ، فان حرصه على مثل هذا انما يكون لاجلها ، وهو يبذله عند الضرورة في أحقر مالابد لها منه ، وذلك بأن يطلب لها أقصى ما تسمو اليه همته من الكمال ، ويحاسبه كل يوم مرة أو اكثر على ما بذلت من السعي لذلك ، وعلى مكافحة ما يصدها عنه من الاهواء والوساوس، وينصب الميزان القسط لما يشتبه عليها من الآراء والخواطر ، ليعرف كنه الحق والخير فيلتزمهما، وأضدادهما من الشر والباطل فيجتنبهما، وليتدبر ما قفى به الكتاب العزيز على القصة من الوصايا في الآيات الآتية

الاشكالات في القصة

قد اكثر المفسرون والمتكلمون في هذه القصة من استخراج الاشكالات ، والجواب عنها بأنواع من التمحلات . وهي مبنية على ماجروا عليه من أن آدم كان نبيا ورسولا . وان الرسل معصومون من معاصي الله تعالى — فكيف وسوس له الشيطان فاغواه ؟ وكيف اقسم له فصدقه فيما يخالف خبر الله ؟ وكيف اطمعه في ان يكون ملكا أو خالدا فطمع وهو يستلزم انكار البعث ! واذا كان لم يصدقه فكيف أطاعه ؟ وهل الامر له بالاكل من الجنة أمر وجوب ام اباحة ؟ وهل النهي عن الشجرة للتحريم او الكراهة — الخ ما هنالك حتى زعم بعضهم أن معصيته كانت صورية ، وزعم بعض الصوفية ان حقيقة هذه المسألة لاتعرف الا بالكشف أو إلا في الآخرة . ولا يرد على ما اوردناه شيء من ذلك — فاما على جعل التأويل من باب التمثيل ، وجعل الامر والنهي للتكوين لا للتكليف ، فالامر ظاهر . واما على الوجه الاول فما جليناه فيه يقربه من الوجه الآخر ، وآدم لم يكن نبيا رسولا عند بدء خلقه اتفاقا ، ولا موضع للرسالة في ذلك الطور، والظاهر من الآيات الواردة في الرسل وفي بعض الاحاديث الصحيحة انه لم يكن رسولا مطلقا، وان أول الرسل نوح عليه وعليهم السلام[1] وعصمة الانبياء من كل معصية قبل النبوة وبعدها لم ينقل الاعن بعض الروافض، ولا يظهر دليل العصمة ولا حكمتها فيه. اذ لم يكن هنالك أحد يخاف من سوء الاسوة عليه هذا ما الهمه تعالى من بيان معاني هذه الآيات بما يدل عليه الاسلوب العربي

(١) قد فصلنا القول في هذه المسألة في تفسير سورة الانعام فيراجع في الجزء السابع

مع مراعاة سنن الله تعالى في الخليقة، وما ترشد اليهم الآيات الاخرى في القصة وما يناسبها، ولم ندخل فيه شيئا من تلك الروايات المأثورة، والآراء المشهورة، التي لا دليل عليها من قول الله ولا قول رسوله ، ولا من سننه تعالى في خلقه، اذ كل ما ورد في ذلك أوجله من الاسرائيليات التي لا يوثق بها، وقد فتن كثير من المفسرين بنقلها ، كقصة الحية ودخول ابليس فيها وما جرى بينها وبين حواء من الحوار

كلمة في الاسرائيليات الواردة في التفسير

ومن أراد الاسرائيليات فليرجع الى المتفق عليه عند أهل الكتاب ليعلم الفرق بين ماعندنا وما عندهم فليراجع سائر ما ورد في القصة بعد الذي نشرناه منها من سفر التكوين دون غيره مما لا يعرف له أصل عندهم وهو في الفصل الثالث منه . وملخصه ان الحية كانت أحيل حيوان البرية وانها قالت لحواء انها هي وزوجها لا يموتان اذا اكلا من الشجرة كما قال لهما الرب، بل يصيران كآلهة يعرفان الخير والشر ، وأن حواء رأت أن الشجرة طيبة الاكل بهجة المنظر منية للنفس فأكلت منها واطعمت زوجها، فأكل، فانفتحت أعينهما، وعلما انهما عريانان فخاطا لانفسهما مآزر من ورق التين «فسمعا صوت الرب الاله وهو متمش في الجنة» فاختبآ من وجهه بين الشجر، فنادى الرب آدم، فاعتذر بتواريه عنه لانه عريان، فسأله من أعلمه انه عريان وهل أكل من الشجرة؟ فاعتذر بأن امرأته أطعمته ، وسأل الرب المرأة فاعتذرت باغواء الحية لها « ١٤ فقال الرب الاله للحية : اذ صنعت هذا فأنت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحوش البرية ، على صدرك تمشين ، وترابا تأكلين طول أيام حياتك[1] ١٥ وأجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها فهو يسحق رأسك وأنت ترصدين عقبه » وقال للمرأة انه يكثر مشقات حملها وآلام ولادتها وانها تنقاد الى بعلها وهو يسودها ، وقال لآدم إن الارض ملعونة بسببه، وأنه بمشقة يأكل طول أيام حياته وبعرق وجهه يأكل خبزا حتى يعود الى التراب الذي أخذ منه ، ثم قال الرب: ٢٢ هوذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر ، والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل فيحيا الى الدهر ٢٣ فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليحرث الارض التي

(١) أي لا تأكلين الا التراب وهو المشهور عند العوام والواقع انها لا تأكل ترابا البتة وانما تأكل من الحشرات وخشاش الارض وما في معناها كالبيض

أخذ منها » اه وفي هذه القصة من الاشكالات ماترى وليس فيما ورد في القرآن شيء مشكل فيها ، وقد صرح النصارى منهم بأن ابليس دخل في الحية وتوسل بها الى اغواء حواء . ونقل عنهم المسلمون مانقلوا في ذلك ، ونحن لانعتد بما يخالف ما في القرآن وصحيح ما في السنة من ذلك

اذا علمت هذا فلا يغرنك شيء مما روي في التفسير المأثور في تفصيل هذه القصة فأكثره لا يصح وهو أيضا مأخوذ من تلك الاسرائيليات المأخوذة عن اليهود الذين دخلوا في الاسلام والذين لم يدخلوا فيه . كان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره عنده هذه الاسرائيليات من غير بيان ، فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لابد ان يكون له أصل مرفوع الى النبي (ص) لانه لايعرف بالرأي ، فيعدونه من الموقوف الذي له حكم المرفوع ، حتى روي أن ابن عباس (رض) كتب الى بعض أحبار اليهود يسأله عن بعض ما ورد في القرآن ليعلم ما عندهم من العلم فيه ، وكان بعض المسلمين يصدقونهم فيما لا يخالف كلام الله ورسوله ، وينقلون رواياتهم وان خالفت ، فصار يعسر تمييز المخالف من الموافق ، الا على أساطين العلماء الواسعي الاطلاع على السنة الذين يفهمونها ويفهمون القرآن حق الفهم ، وكلما قل هؤلاء في الامة كثر الذين يأخذون كل ماذكر في كتب التفسير والتاريخ والمواعظ من الاسرائيليات بالتسليم ، مع أن النبي (ص) قال « لاتصدقوهم ولا تكذبوهم » ذلك بأنهم قد حرفوا ، وزادوا ونقصوا ، كما قال الله تعالى فيهم إنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ونسوا حظا مما ذكروا به ، فلا نصدق رواياتهم لئلا تكون مما حرفوه أو زادوه ، ولا نكذبها لئلا تكون مما اوتوه فحفظوه ، ويقل في صحيح المأثور عن الصحابة ماهو من الاسرائيليات وان روى بعضهم عن كعب الاحبار كأبي هريرة (رض) الذي ترى اكثر أحاديثه عنعنة وأقلها ما يصرح فيه بالسماع

ولشيخ الاسلام ابن تيمية كتاب في فن التفسير نقل عنه السيوطي في الاتقان بحثا طويلا في المفسرين واختلافهم في التفسير وقال انه نفيس جدا ومنه فصل فيما لايعلم الامن طريق النقل وهو قسمان ما يمكن معرفة الصحيح فيه من غيره وما لا يمكن — وهو الذي تدخل فيه الاسرائيليات — وقد قال فيه ما نصه : —

« فما كان منه منقولا نقلا صحيحا عن النبي (ص) قبل ومالا بأن نقل

عن أهل الكتاب ككعب ووهب (أي كعب الاحبار ووهب ابن منبه وهما من خيارهم) وقف عن تصديقه وتكذيبه لقوله (ص) «اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» وكذا ما نقل عن بعض التابعين وان لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل من ذلك عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين لان احتمال أن يكون سمعه من النبي (ص) او من بعض من سمعه منه أقوى ، ولان نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال انه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟ (١) وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود كثير ولله الحمد وإن قال الامام أحمد ثلاثة ليس لها أصل التفسير والملاحم والمغازي ، وذلك لان الغالب عليها المراسيل » اه

---

(٢٥) يٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوٰرِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ آيٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ
(٢٦) يٰبَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا . إِنَّهُ يَرٰيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيٰطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بعد أن قص الله تعالى على بني آدم قصة نشأتهم الاولى وما خلقوا مستعدين له من السعادة ونعيم الجنة ، وما يصدهم عن ذلك من وسوسة الشيطان واغوائه ، رتب عليها هذه النصائح الهادية لهم إلى أقوم طرق تربيتهم لانفسهم — كما قلنا في بيان تناسب الآيات في أول ذلك السياق — فقال

---

(١) ههنا يجب التدقيق فيما جزم به الصحابي كيف نعلمه مع النقل عنهم بالمعنى وهل كل صحابي بلغه النهي عن تصديقهم

﴿ يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ﴾ الريش لباس الحاجة والزينة مستعار من ريش الطائر وليس في اجناس الحيوان كالطير في كثرة انواع ريشها وجمال مناظرها وتعدد ألوانها فهي جامعة لجميع المنافع والزينة ومنها ماهو اجمل من جميع مافي الطبيعة ، وقرأ ابو زيد عن المفضل (ورياشا) وهو مروي عن زر بن حبيش والحسن البصري ، وفيه حديث مرفوع قال ابن جرير في اسناده نظر ، قيل: الرياش جمع ريش، فهو كشعب وشعاب وذئب وذئاب ، وقال الجوهري الريش والرياش بمعنى كاللبس واللباس ، وهو اللباس الفاخر . وقال ابن السكيت : الرياش مختص بالثياب والاثاث ، والريش قد يطلق على سائر الاموال . وقال ابن جرير : ويحتمل ان يكون اراد به مصدرا من قول القائل راشه الله يريشه ريشا ورياشا كما يقال لبسه يلبسه لباسا ولبسا (بكسر اللام) (ثم قال) والرياش في كلام العرب الاثاث وما ظهر من الثياب من المتاع مما يلبس أو يحشى من فراش او دثار ، والريش انما هو المتاع والاموال عندهم، وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال ، يقولون اعطاه سرجا بريشه — أي بكسوته وجهازه. ويقولون انه لحسن ريش الثياب. وقد يستعمل الرياش في الخصب ورفاهة العيش . ثم نقل عن بعض مفسري السلف مايؤيد هذه الاقوال ، فعن ابن عباس ومجاهد والسدي وعروة ابن الزبير ان الريش المال، وعن آخرين أنه المعاش او الجمال ، والمختار عندنا من هذه الاقوال انه لباس الحاجة والزينة معا بدليل اقترانه بلباس الستر الذي يواري العورات ولباس التقوى

خاطب الله تعالى بني آدم في هذه الآية وامثالها بالنداء الذي يخاطب به البعيد لما كان عليه عربهم وعجمهم عند نزول هذه السورة في مكة من البعد عن الفطرة السليمة، والشرعة القويمة، تنبيها للاذهان ،بما يقرع الآذان، فامتن عليهم — بعد ان أنبأهم مما كان من عري سلفهم الاول — بما انعم به عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وانواعه من الادني الذي يستر السوأة عن اعين الناس الى انواع الحلل التي تشبه ريش الطير في وقاية البدن من الحر والبرد بستر جميع البدن وما في ذلك من أنواع الزينة والجمال اللائقة بجميع ذكران البشر واناثهم ، على اختلاف اسنانهم واحوالهم، فهو يقول يابني آدم انا بما لنا من القدرة والنعمة والرحمة قد انزلنا عليكم من علو سمائنا ، بتدبيرنا لاموركم من فوق عرشنا ،

لباسا يواري سوآتكم وهو أدنى اللباس وأقله الذي يعد فاقده ذليلا مهينا ـ وريشا تتزينون به في مساجدكم ومجالسكم ومجامعكم ، وهو أعلاه وأكمله ، وبينهما لباس الحاجة وهو ما يقي الحر والبرد ، والامتنان به يؤخذ من الامتنان بما فوقه بطريق المفهوم من الاسلوب ، أو هو داخل فيه بطريق المنطوق على ما اخترنا آنفا

والمراد بانزال ماذكر أن الله تعالى خلق لبني آدم مادته من القطن والصوف والحرير وغيرها ، وعلمهم بما خلق لهم من الغرائز والقوى والاعضاء وسائل صنع اللباس منها كالزراعة والغزل والنسج والخياطة

وإن منته تعالى بهذه الصناعات على أهل هذا العصر أضعاف منته على المتقدمين من شعوب بني آدم فيجب أن يكون شكرهم له أعظم ، فقد بلغ من اتقان صناعات اللباس أن عاهل المانية الاخير دخل مرة أحد معامل الثياب ليشاهد ماوصلت اليه من الاتقان فجزوا أمامه عند دخوله صوف بعض اكباش الغنم — ولما انتهى من التجوال في المعمل ومشاهدة أنواع العمل فيه وأراد الخروج قدموا له معطفا ليلبسه تذكارا لهذه الزيارة وأخبروه أنه صنع من الصوف الذي جزوه أمامه عند دخوله — فهم قد نظفوه في الآلات المنظفة فغزلوه بآلات الغزل فنسجوه بآلات النسج ففصلوه فخاطوه في تلك الفترة القصيرة ، فانتقل في ساعة أو ساعتين من ظهر الخروف الى ظهر الامبراطور

وامتنانه تعالى على بني آدم بلباس الزينة يدل على استحبابها ، ولايعارضه قوله تعالى في أوائل سورة الكهف (١٧ : ٨ انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا) وان فسر الحسن البصري احسان العمل بترك الدنيا وسفيان الثوري بالزهد فيها . ذلك بأن دين الاسلام هو دين الفطرة فليس فيه مايخالف مقتضاها وينافض غرائزها ، بل هو مهذب ومكمل لها . وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم الى اظهار سنن الله في الخليقة وأنواع نعمه على عباده كما سنفصله في تفسير (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده) في هذا السياق ، وتحقيق معنى كونها ابتلاء ان الله تعالى يختبر بها طالبها مايقصد منها ؟ وواجدها أيشكر المنعم عليه بها اذا استعملها ، ويقف عند الحد المشروع فيها ، وماذا يقصد وينوي بترك ما يتركه منها ، وفاقدها ايصبر على

فقدها ، ام يكون ساخطا على ربه وحاسدا لاهلها ؟

واما قوله تعالى ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ فجمهور مفسري السلف على انه اللباس المعنوي المجازي ، فعن ابن زيد انه عين التقوى — اي اللباس الذي هو التقوى — وذكر من معناه ما يناسب المقام فقال : يتقي الله فيواري عورته . وعن زيد بن علي تفسيره بالاسلام ، وعن ابن عباس انه الايمان والعمل الصالح قال الايمان والعمل خير من الريش واللباس ، وعن معبد الجهني أنه الحياء . وفي رواية عن ابن عباس أنه السمت الحسن في الوجه ، ومراده ما يدل على ما عليه النفس من طيب السريرة وبذلك يكون بمعنى ماسبقه ، ورووا من الحديث المرفوع مايؤيده فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال رأيت عثمان على المنبر قال : أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر فاني سمعت رسول الله (ص) يقول « والذي نفس محمد بيده ما عمل أحد قط عملا سرا الا البسه الله رداءه علانية ان خيرا فخير وان شرا فشر » ثم تلا هذه الآية . وفيه انه قال ورياشا ولم يقل وريشا . وفسره عكرمة وعطاء بما يلبس المتقون يوم القيامة قالا هو خير مما يلبس أهل الدنيا . ومعناه أن اللباس الذي يكون في الآخرة جزاء على التقوى ، ذلك خير من لباس أهل الدنيا . هذه أقوالهم ملخصة من الدر المنثور . وجعله بعضهم من اللباس الحسي الحقيقي ففي بعض كتب التفسير عن زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام أنه لباس الحرب الدرع والمغفر والآلات التي يتقي بها العدو ، واختاره أبو مسلم الاصفهاني . وهو مأخوذ من قوله تعالى في سورة النحل (١٦ : ٨١ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) وقوله تعالى في داود من سورة الانبياء عليهم السلام (٢١ : ٧٩ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون) ولا مانع عندنا من استعمال التقوى فيما يعم هذا وذاك ، أي تقوى الله بالايمان والعمل وما له من الجزاء ، وتقوى فتك العدو بلبس الدرع والمغفر ونحوهما . على ماقررناه من قبل في مثل هذه المعاني التي لاتتعارض مدلولا نها في الاشتراك وفي الحقيقة والمجاز . والامر أوسع فيما يسمونه عموم المجاز . وأضعف الاقوال في لباس التقوى انه لباس النسك والتواضع كدروع الصوف ومرقعاته التي ابتدعها بعض العباد والمتصوفة ، وانما هي شر لاخير لانها لباس شهوة وشهرة مذمومة وكذا القول بأنه الحسن من الثياب فان هذا هو الريش

﴿ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ اي ذلك الذي ذكر من نعم الله بانزال انواع الملابس الصورية والمعنوية من آيات الله تعالى ودلائل احسانه الى بني آدم وكثرة نعمه عليهم ، التي من شأنها ان تعدهم لتذكر فضله ومنه والقيام بما يجب عليهم من شكرها ، واتقاء فتنة الشيطان لهم بابداء العورات تارة وبالاسراف في الزينة تارة اخرى . وسيأتي ما ذكر مفسرو السلف في هذا السياق من طواف المشركين بالبيت الحرام عراة وما لهم من الشبهة في ذلك

ومن مباحث اللفظ ان اسم الاشارة في قوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير) استعمل مكان الضمير في الربط . وجعل جملة (ذلك خير) خبراً لقوله (ولباس التقوى) يدل على تأكيد مضمونها بتكرار الاسناد . وذهب بعضهم الى جعل « ذلك » صفة لباس ومنهم الزجاج وجعله بعضهم بدلا او بيانا له

﴿ يابني آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ يقال في هذا النداء ماقيل فيما قبله ، وتكرار النداء في مقام الوعظ والتذكير ، من أقوى أساليب التنبيه والتأثير ، يعرف ذلك الانسان من نفسه ، ويشعر به في قلبه ، ونظيره في التنزيل قصة الجن من سورة الاحقاف اذجاء فيها الوعظ والانذار بتكرار النداء : ياقومنا ... ياقومنا .... ووعظ مؤمن آل فرعون في سورة غافر : ياقوم ... ياقوم . وقد فاتنا أن نذكر في تفسير النداء في الآية الاولى أن الذي يفهم من أساليب العربية في نسبة الانسان الى أحد أجداده أنه خاص بالجد الذي صار رئيس القبيلة أو العشيرة الكبيرة التي انحصر نسبها فيه كقريش وعبدالقادر الجيلاني وعثمان مؤسس السلطنة العثمانية ومحمد علي الكبير مؤسس دولة مصر الجديدة . أو الذي له صفة ممتازة يقتضي المقام تذكير من ينسب اليه بها لمشاركته له فيها أو للتعريض بتجرده منها مثلا ، كأن تقول لبعض احفاد الخديوي توفيق يا ابن اسماعيل أو هذا ابن اسماعيل في مقام السخاء وسعة العطاء إثباتا أو نفيا ، ولو قلت له في هذا المقام يا ابن توفيق كان خطأ فان توفيقاً لم يشتهر بصفة السخاء وكثرة الهبات . وتسمية الناس أبناء آدم من النوع الاول ، وفي كل منهما تدل القرينة على أن المنسوب اليه أحد الاجداد وليس هو الاب . فمن استدل بالنداء في هذه الآيات على أن أولاد الاولاد يدخلون في الوقف على الاولاد بدلالة اللغة فقد أخطأ

والفتنة الابتلاء والاختبار واصله من قولهم فتن الذهب والفضة اذا عرضهما

على النار، ليعرف الزيف من النضار، وحجر الصائغ الذي يختبرهما به يسمى الفتانة. والفتنة تكون بالمحن والشدائد غالبا، وقد تكون بالاستمالة بالشهوات فان الصبر عن الشهوات قد يكون أعسر من الصبر على الشدائد

ومعنى لا يفتننكم الشيطان — لا تغفلوا عن أنفسكم ووسوسته لكم فتمكنوه بذلك من خداعكم بها وايقاعكم في المعاصي كما وسوس لابويكم آدم وحواء فزين لهما معصية ربهما، ففتنهما حتى عصياه بالاكل من الشجرة التي نهاهما عنها. فكان لذلك سببا لخروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها، ودخلا في طور آخر من الحياة يكابدان فيها شقاء المعيشة وهمومها، وان الفتنة التي تحرم المفتون من دخول الجنة، أسهل من الفتنة التي تخرج من الجنة

﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ﴾ أي أخرجهما من الجنة حال كونه نازعا عنهما لباسهما — أي سببا لنزع ما اتخذاه لباسا لهما من ورق الجنة لاجل أن يريهما سوآتهما أو لتكون عاقبة ذلك اراءتهما سوآتهما دائما. ويفهم من هذا ماهو المعقول من أنهما كانا يعيشان بعد الخروج منها عريانين اذ ليس في الارض ثياب تصنع، وما ثم الا ورق الشجر حيث يوجد، ولا نعلم أكان يوجد في الارض شجر ذو ورق عريض في غير الجنة التي أخرجا منها؟ وجميع الباحثين في طبائع الاجتماع وعاديات البشر وآثارهم يجزمون بأنهم كانوا قبل الاهتداء الى الصناعات يعيشون عراة وان أول ما اكتسوا به ورق الشجر وجلود الحيوانات التي يصطادونها، ولا يزال في المتوحشين منهم من يعيش كذلك. وهذا الذي قلناه يدل عليه جعلهم (ينزع) حالا من فاعل يخرج ومثله جعله حالا من أبويكم الذي هو مفعول يخرج. ولكن جميع ما اطلعنا عليه من أقوال المفسرين يجعل ماهنا عين ماتقدم من ظهور سوآتهما لهما عقب الاكل من الشجرة قبل الاخراج من الجنة الذي كان بعد سترهما سوآتهما بما خصفا عليهما من ورقها، والمتبادر ان هذا غير ذلك. وهنالك لم يقل انه كان عليهما لباس فنزع، وانما كان شيء موارى فظهر، فصار كل منهما يرى من نفسه ومن الآخر ما لم يكن يرى

وقد جعل بعضهم هذا اللباس حسيا، وجعله بعضهم معنويا، فروي عن ابن عباس وعكرمة ان لباسهما كان الظفر وانه نزع عنهما بسبب الاكل من الشجرة وتركت الاظفار في رءوس الاصابع تذكرة وزينة، وعن وهب بن منبه انه كان عليهما نور يمنع رؤية السوأتين وهو المراد بلباسهما. وقد بينا

هنالك ان هذا وذاك من الاسرائيليات التي لادليل عليها . وعن مجاهد في قوله «ينزع عنهما لباسهما» قال التقوى . وقد نقل ابن جرير هذه الاقوال ولم يعتد بشيء منها ، بل جوز ان يكون ذلك اللباس غيرها ، وعلله بأنه ليس في المسألة خبر تثبت به الحجة ، واختار التفويض وترك تعيين ذلك اللباس . وهذا ما اعتمدنا عليه هنالك في رد الروايات ،فان التعيين في مثلها لا يقبل الا بخبر صحيح من المعصوم ، واما مارجحناه من غير جزم فأخذناه من سنة الله تعالى في التكوين وبدء الخلق

وقد استدل بعض الناس بهذه القصة على كراهة رؤية كل من الزوجين سوأة الآخر حتى في خلوة المباعلة الزوجية ، وانما القصة مبينة لحال الفطرة وليس فيها حكم التكليف الشرعي في هذه المسألة ، هل هو الكراهة أم الاباحة ، ومن الناس من يرى أن القول بكراهة ماذكر حرج شديد وتحكم في الفطرة ، وحجر عليها في صفة التمتع الحلال المطلوب شرعا بما لا تظهر له حكمة ، والمختار ان هذا من المباح ولا حجر فيه ولا حرج ، وما ورد في هذا الباب من السنة فآداب إرشادية يستفيد كل أحد منها بقدر سلامة الفطرة . وكمال الفضيلة ،كحديث عائشة إنه (ص) ما رأى منها ولا رأت منه ،ولكن لا نسلم ان جعل رؤية السوءة مكروها تنزيها لايحسن التمادي فيه مما لاتظهر له حكمة تليق بدين الفطرة ،فان اطلاق العنان في المباحات كلها قد يفضي الى الاسراف الضار الذي يقصد به صاحبه زيادة اللذة فيصدق قول الامثال : من طلب الزيادة وقع في النقصان ، ورب أكلة هاضت الآكل ، وحرمته ما كل . وماجاوز حده ، جاور ضده . ولكن هذه حكمة عالية لا يفقهها الا حكيم خبير ، يعلم ان من أعطى نفسه منتهى مايقدر عليه من اللذة — وان مباحة — فلم يقف عند حد ادب شرعي ولا فطري ولا طبي آل أمره في الاسراف الى اضعاف هذه اللذة ، حتى يحتاج في إثارتها الى المعالجة والادوية ،ثم لا تكون الا ناقصة ، ويتكرر إضعافها بعد إثارتها بسنة رد الفعل ، حتى تكون مرضا ، ويكون صاحبها حرضاً ، أو يكون من الهالكين . ولهذا ترى اكثر المترفين سيئي الهضم شديدي الاقهاء والطسى (١) يكثرون حتى في سن الشباب من الادوية والمحرضات على الطعام ، والمعاجين والحبوب السامة

(١) الاقهاء فقد شهوة الطعام والطسى التخمة من كثرة الدهن والدسم وفعله طسي كرضي وطسا كغزا

التي تقوي الباه ، فتنتابهم الامراض والاسقام ، ويسرع اليهم الهرم اذا لم يسرع الحمام

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ الجملة تعليل للنهي عن تمكين الشيطان مما يبغي من الفتنة ؛ وتأكيد للتحذير منه ، والتذكير بعداوته وضرره ، وذلك أنه يراناهو وقبيله أي جنوده وذريته من شياطين الجن ولا نراهم (واصل القبيل الجماعة كالقبيلة وخص بعضهم القبيلة بمن كان لهم أب واحد والقبيل اعم) « وحيث » ظرف مكان ، أي يرونكم من حيث يكونون غير مرئيين منكم ، والضرر اذا جاء من حيث لا يرى كان خطره اكبر ، ووجوب العناية باتقائه أشد ، كاتقاء أسباب بعض الادواء والاوبئة التي ثبتت في هذا الزمان برؤية العينين بالمجهر — أي المرآة أو النظارة المكبرة للمرئيات — وهو أن لكل داء منها جنة من الديدان أو الهوام الخفية تنفذ الى البدن بنقل الذباب أو القمل أو البراغيث أو مع الطعام أو الشراب او الهواء فتتوالدو تنمي بسرعة عجيبة حتى تفسد على المرء رئته في داء السل ، وامعاءه في الهيضة الوبائية ، ودمه في الطاعون والحميات الخبيثة ، وقد أشير الى سبب الطاعون فيما ورد من أنه من وخز الجن ، ووالى داء السل فيما ورد من تحول الغبار في الصدر الى نسمة ،

وفعل جنة الشياطين في أنفس البشر كفعل هذه الجنة التي يسميها الاطباء الميكروبات في اجسادهم ، وفي غيرها من اجسام الاحياء : تؤثر فيها من حيث لا ترى فتتقي ، وانما ينبغي للعقلاء أن يأخذوا في اتقاء ضررها بنصائح أطباء الابدان ولا سيما في أوقات الاوبئة كاستعمال المطهرات الطبية والتوقي من شرب الماء الملوث بوصول شيء اليه مما يخرج من المصابين بالهيضة أو الحمى التيفوئيدية ، إلا أن يغلى ثم يحفظ في آنية نظيفة وغير ذلك . ولو كانوا يرون تلك الجنة بأعينهم كما يراها الاطباء بمجاهرهم ، لا تقوها من غير توصية بقدر طاقتهم . والوقاية نوعان احدهما اتخاذ الاسباب التي تمنع طروءها من الخارج كالذي تفعله الحكومات في المحاجر الصحية في ثغور البلاد ومداخلها أو في أمكنة بعيدة عنها كجزائر البحار للوقاية العامة للبلاد كلها . أو في بعض البلاد دون بعض ، ومثله ما يتخذه أهل البيوت لوقاية بيوتهم ، والنوع الثاني تقوية الابدان بالاغذية الجيدة والنظافة التامة لتقوى على منع فتك هذه الجنة فيها اذا وصلت اليها ، كما يتقي تولد السوس في حب الحصيد بتجفيفه ووضع بعض المواد

الواقية فيه، وكما يتقي وصول العث الى الثياب الصوفية بمنع وصول الغبار اليها ، أو بوضع الدواء المسمى بالنفتالين بينها، وهو يقتل العث برائحته

كذلك يجب الاخذ بارشاد طب الانفس والارواح في وقايتها من فتك جنة الشياطين فيها بالوسوسة التي تزين للناس الاباطيل والشرور المحرمة في هـذا الطب لشدة ضررها ، ولم يحرم الدين شيئا على الناس الا لضرره وافساده ، فان مداخلها في أنفسهم ، وتأثيرها في قلوبهم وخواطرهم، كدخول تلك في أجسادهم، وتأثيرها في أعضائهم من حيث لا ترى . واتقاؤها كاتقائها نوعان ، أحدهما تقوية الارواح بالايمان بالله تعالى وصفاته ومراقبته ومناجاته واخلاص العبادة له والتخلق بالاخلاق الكريمة والفضائل ، وترك الفواحش ماظهر منها ومابطن والاثم والبغي بغير حق، حتى ترسخ فيها ملكات الخير وحب الحق وكراهة الباطل والشرور — فحينئذ تبعد المناسبة بينهـا وبين تلك الارواح الشيطانيـة التي تدعو الى الباطل والشر فتبعد عنها ، ولا تطيق الدنو منها، كما هو شأن العث مع الثوب المشبع برائحة النفتالين ، بل الجعل مع عطر الورد أو الياسمين . وهؤلاء المتقون هم عباد الله المخلصون، الذين ليس له عليهم من سلطان كما بينه تعالى بقوله في بيان هذه الحقائق الفطرية الواردة بأسلوب الخطاب بين الشيطان وبين الرب تبارك وتعالى من سورة الحجر (١٥ : ٣٩ قال (أي الشيطان) رب بما أغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين ٤٠ الا عبادك منهم المخلصين ٤١ قال (أي الرب تعالى) هذا صراط علي مستقيم ٤٢ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) وقد تقدم هذا وأمثاله في تفسير القصة . وهذا الصراط المستقيم في الآية هو سنته تعالى في الخلقة الروحية بأن الروح الكامل المهذب بما ذكر لاتؤثر فيه الوسوسة الشيطانية ولا تتمكن منه ، وهـذا هو معنى نفي السلطان عنه ، كما أن الميكروبات والهوام لا تجد لها مأوى في الاجساد النظيفة الطاهرة القوية

والنوع الثاني من هذه التقوى ما يعالج به الوسواس بعد طروئه كما يعالج المرض بعد حدوثه بتأثير تلك الهوام الخفية فيه بالادوية التي تقتلها وتمنع امتداد ضررها. وأول مايجب في ذلك بعد التنبه والتذكر لما حصل بسبب الوسوسة من فعل معصية أو ترك واجب أن تترك المعصية ويؤدى الواجب ويتوب العاصي كما تاب أبونا آدم وزوجه عليهما السلام. وأن يستعان على ذلك بذكر الله تعالى بالقلب والتضرع

اليه باللسان ، كما فعل أبوانا بقولهما (ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية وفاقا لما ذكرنا في معالجة الامراض . وسيأتي تفصيل القول في تأثير ذكر الله تعالى في معالجة الخواطر الرديئة والافكار الباطلة التي تحدثها هذه الوسوسة في تفسير قوله تعالى في آخر السورة (١٩٩ واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ٢٠٠ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ومنه ما ورد من الحديث الصحيح في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه من فرار الشيطان منه ، وكونه ما سلك فجا الا سلك الشيطان فجا غيره

قد سبق لنا بيان مثل هذا التشابه بين تأثير الاحياء الخفية المجتنة في الاجساد وفي الانفس ، وقد أعدناه هنا مفصلا لقوة المناسبة ، ولتذكير المؤمنين ، بأقوى ما يردون به شبهات بعض الماديين ، الذين ينكرون وجود الجنة والشياطين ، لانهم لا يرونهم ؛ أولان وجودهم بعيد عن النظريات والمألوفات عندهم ، على أن أرواحهم الخبيثة التي ينكرون وجودها أيضا هي أوسع الاوطان لهم ، ولو كان الاستدلال بعدم رؤية الشيء على عدم وجوده صحيحا وأصلا ينبغي للعقلاء الاعتماد عليه لما بحث عاقل في الدنيا عما في الوجود من المواد والقوى المجهولة ، ولما اكتشفت هذه الميكروبات التي ارتقت بها علوم الطب والجراحة الى الدرجة التي وصلت اليها ، ولا تزال قابلة للارتقاء باكتشاف أمثالها ، ولما اكتشفت الكهرباء التي أحدث اكتشافها هذا التأثير العظيم في الحضارة ، ولو لم تكتشف هذه الميكروبات وأخبر أمثالهم بها مخبر في القرون الخالية لعدوه مجنونا وجزموا باستحالة وجود أحياء لا ترى يوجد في نقطة الماء الصغيرة ألوف الالوف منها وأنها تدخل في الابدان من خرطوم البعوضة أو البرغوث الخ كما أن ما يجزم به علماء الكهرباء من تأثيرها في تكوين العالم وما تعرفه الشعوب الكثيرة الآن من تخاطب الناس بها من البلاد البعيدة بآلات التلغراف والتلفون اللاسلكية — كله مما لم يكن يتصوره عقل ، وقد وقع بالفعل .

فان كانوا يقولون : إن مقتضى العقل أن لا يقبل أحد قول الاطباء في اتقاء ميكروبات الامراض والاوبئة وفي المعالجة والتداوي منها الا اذا رآها كما يرونها وثبت عنده ضررها كما ثبت عندهم — فاننا نعذرهم حينئذ في قولهم إن من مقتضى العقل أن لا يقبل أحد قول أطباء الارواح وهم الرسل عليهم السلام وورثتهم من العلماء الهادين المرشدين في اتقاء تاثير وسوسة الشياطين وفي التوبة من سوء

تأثيرها بارتكاب المعاصي والشرور — وحينئذ يكون هذا العقل المادي المأفون قاضيا على أصحابه المساكين بفساد أبدانهم وأرواحهم جميعا .

فان قيل ان الاطباء قد ثبتت فائدة طبهم وأدويتهم بالتجربة فوجبت طاعتهم والتسليم لهم بما يقولون — قلنا ان فائدة طب الانبياء وورثتهم في هداية الناس وتهذيب أخلاقهم ، وصلاح أعمالهم ، أشد ثبوتا ، ولكن هؤلاء الماديين على ضعف عقولهم يؤمنون بكل ما يقوله الاطباء وإن لم يثبت عندهم بالرؤية ، ولا بنظريات الفكر ، فهم يجتهدون في حفظ أبدانهم من الجهة المادية ولكنهم يجهلون ما يجني عليهم كفرهم بالطب الروحي الديني في أرواحهم وأبدانهم جميعا ، فان هذا الكفر يحصر همهم في التمتع باللذات الدنيوية فيسرفون فيها بما يضعف أبدانهم مهما تكن العناية بها عظيمة . دع افساد أخلاقهم وأرواحهم وما يجنيه عليهم وعلى أمتهم وعلى البشر جميعا . فلو كان الخونة الذين يتخذهم الاجانب أعوانا لهم على استعباد أمتهم مؤمنين معتصمين بتقوى الله وهدي كتبه ورسله من الطمع وحب الرئاسة بالباطل وغير ذلك مما حرمه الله تعالى لما خانوا الله وخانوا أمانة أمتهم وأوطانهم اتباعا لشهواتهم ، وطمعا في تأثل الاموال والادخار للاولاد ؛ (٨ : ٢٧ يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون ٢٨ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم) بل قال أعظم فيلسوف يحترمون عقله وعلمه : ان هذه الافكار المادية التي تغلبت في أوربة على الفضائل قد محت الحق من عقول أهلها فلا يعقلون منه الا تحكيم القوة ، وستتخبط به الامم ويختبط بعضهم ببعض ليتبين من هو الاقوى فيكون سلطان العالم . هذا ما سمعه الاستاذ الامام من الفيلسوف هربرت سبنسر (في ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣) وكتبه عنه وقد زادنا في روايته اللفظية له أنه كان يتوقع هذه الحرب العامة الوحشية ، ويعدها من سيئات الافكار المادية وضعف الفضيلة ، وقد روينا ذلك عنه بالمعنى مع فوائد أخرى من قبل

ومن المصائب على البشر أن أكثر المؤمنين بطب الدين الروحي في هذه القرون الاخيرة لا يقفون فيها عند حدود ما أنزل الله على رسوله وما فهمه منه رواته من السلف الصالح بل زادوا وما زالوا يزيدون فيه من الخرافات ، والبدع والضلالات ، ما جعلهم حجة على دينهم وفتنة للذين كفروا ينفرونهم منه — فتراهم لا يتقون الوسواس الضار الذين يجدونه في خواطرهم كما يجب

وإنما يتبعون في الجن والشياطين تضليل الدجالين والدجالات كزعمهم أن الشياطين يمرضون الاجساد ويخطفون الاطفال ، وان لهؤلاء الدجالين صلة بهم وتأثيرا في حملهم على ترك الضرر والمساعدة على النفع بشفاء المرضى ورد المفقودين ، والحب والبغض بين الازواج والعشاق ، ومن ذلك الزار الذي يخرجون به الشياطين من الاجساد بزعمهم ؛ ولهذه الخرافات مضار ورزايا كثيرة في الابدان والارواح والاموال والاعراض ، فهي بذلك شبهة كبيرة للماديين على المتدينين ، المقلدين للجهال والدجالين ، والدين لم يثبت للشياطين مايزعمه الدجالون ، ولم يثبت لهم ولا لغيرهم مايدعونه من التصرف فيهم ، وانما يثبت كتاب الله تعالى للشياطين وسوسة هي من الاسباب العادية للتأثير في القلوب المستعدة لها كتأثير جنة الهوام في الاجساد المستعدة ، وان مقاومة كل منهما في استطاعة الانسان ، وقد أرشده اليه القرآن . وصرح في هذه الآية بان الشياطين يرون الناس من حيث لا يراهم الناس ، وهؤلاء الدجالون ينفون ما أثبت كتاب الله ويثبتون مانفاه ؛ ويقولون بغير علم

روي عن ابن عباس (رض) أن النبيّ (ص) مارأى الجن الذين استمعوا القرآن منه مستدلا بقوله تعالى (قل أوحي اليّ انه استمع نفر من الجن) ولكن روي عن ابن مسعود أنه رآهم وفي احاديث اخرى انه كان يرى الشياطين . وكان الشافعي (رح) يرى أن رؤيتهم من الخوارق الخاصة بالانبياء فقد روى البيهقي في مناقبه عن صاحبه الربيع أنه سمعه يقول من زعم أنه يرى الجن رددنا شهادته الا أن يكون نبيا . وخصه بعضهم برؤيتهم على صورتهم التي خلقوا عليها . واختلفت فرق المسلمين في تشكلهم بالصور فالجمهور يثبتونه ولكن بعضهم يقول : إنه تخييل لا حقيقة . وهو مروي عن عمر (رض) فقد قال مامعناه : إن أحداً لا يستطيع تغيير الصورة التي خلقه الله عليها ولكن تخييل كتخييل سحرة الانس - وتقدم نص الرواية في بحث استهواء الشياطين من سورة الانعام وما فيها — وأخرج ابو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال « أي رجل منكم تخيل له الشيطان فلا يصدن عنه وليمض قدما فانهم منكم أشد فرقا منكم منهم » الخ وهو صحيح في كون الشياطين وسائر الجن العاقلة تخاف من البشر الذين خلقهم الله تعالى أرقى منهم كجن الحشرات الذين ورد في الحديث أن منها مايطير ومنها حيات وعقارب . وقد فصلنا القول فيما ورد في الجن وما قيل فيهم في مواضع من التفسير ومن

المنار ولا حجة في شيء منها لهؤلاء الدجالين الذين يأكلون أموال جهلة العوام بالباطل ، بولايتهم للشياطين وولاية الشياطين لهم، وقد خوفوا الناس منهم حتى أوقعوا الرعب في قلوبهم، وأوقعوهم في ضلالات كثيرة

ان مفاسد(الزار) كثيرة مشهورة في هذه البلاد ، وقد وصفناها من قبل في المنار ، وسببها اعتقاد الكثيرات من النساء المرضى بأمراض عادية ولاسيما اذا كانت عصبية ، ان الشياطين قد دخلت في أجسادهن ، وأن صانعات الزار يخرجنهم منها بارضائهم والتقرب اليهم بالقرابين وغيرها ، وهذا نوع من عبادة الجن التي كانت في الجاهلية فأزالها الاسلام باصلاحه ، ولما جهل الاسلام في كثير من البلاد وقبائل البدو عادت الى أهلها ، وقد كان من حسنات تأثير الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجدد للاسلام في نجد ابطال عبادة الجن وغير الجن منها، ولم يبق فيها الا أهل تجريد التوحيد واخلاص العبادة لله، ولكن علماء الازهر هنا لا يعنون أقل عناية بمقاومة هذه البدع والخرافات وامثالها ولا المعاصي الفاشية في هذه البلاد .

ونحن نذكر من ذلك واقعة وقفنا عليها من امرأة كانت تأتينا باللبن كل صباح من ريف الجيزة . وهي أن ولدها غرق في النيل فسألت عنه بعض الدجالين فأخبرها بأن أحد الاسياد (أي عفاريت الجن) أنقذه ووضعه عنده فهو يعيش في ضيق وشظف وانه هو يمكنه أن يوصل اليه ، ماتجود به والدته عليه، فكانت تعطيه ماتقدر عليه من الطعام والدجاج والحمام المقلي مع شيء من الدراهم اجرة لنقله، وتعتقد ان ذلك كله يصل الى ولدها عند العفريت الذي أخذه، ويكون سبباً لحسن معاملته له، وربما يطلقه بعد ، وما زال أهل بيتنا ينصحن لها بترك ذلك الدجال المفتري المحتال حتى أقنعنها بكذبه بعد ان خسرت كل ما كانت تربحه من بيع اللبن.

فان قيل ان الاناجيل أثبتت ان الشياطين تدخل في أجساد الناس وتصرعهم، وان المسيح عليه السلام كان يخرج هذه الشياطين باذن الله تعالى منهم، وفي القرآن المجيد مايشير الى ذلك في قوله تعالى(كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) وان قالوا انه تمثيل حكي به ماكان مألوفاً عند العرب، وقد حكي عن بعض العلماء المحققين دون الخرافيين وقائع فيه كوقائع الانجيل ، ومن ذلك ماحكاه العلامة ابن القيم عن أستاذه شيخ الاسلام ابن تيمية، فهل كل تنكر ذلك أم ماذا تقول فيه ؟

فالجواب اننا وان كنا لانعرف لهذه الاناجيل أسانيد صحيحة متصلة وقد أمرنا أن لانصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم فيما لاحجة له اوعليه في كتابنا — وان كان شيخا الاسلام من أجل الثقات عندنا فيما يرويان عن أنفسهما وعن غيرهما بالجزم — فاننا نقول: ان وقائع الاحوال في هذا المقام فيها اجمال، هي به قابلة لانواع شتى من الاحتمال ، على ان ما يؤخذ منها على ظاهره لاحجة فيه على شيء من أعمال الدجالين التي ينكرها الشرع والعقل ، وأين دجل هؤلاء الفساق المحتالين من معجزة أو كرامة يكرم الله بها نبياً مرسلا أو ولياً صالحاً فيشفي على يديه مصروعا ألم به الشيطان أم لم يلمّ ، وما إلمام الشيطان ببعض الناس بالمحال عقلا حتى نحار في فهم أمثال هذه الروايات النادرة عند أهل الكتاب وعندنا بل عند جميع الامم ،وان بعض الامراض العصبية التي يصرع أصحابها لا يسهم الشيطان فيها أم لا لتشفى بتأثير الاعتقاد وبتأثير ارادة الارواح القوية اذا توجهت الى الله تعالى سائلة شفاءها ، وما نحن بالذين يدارون الماديين أو يبالون بانكارهم لكل مالا يثبته الحس لهم، ونعتقد ان جملة ماورد عن الانبياء والعلماء وما اشتهر عند كل الامم يفيد في مجموعه التواتر المعنوي في اثبات اصل لهذه المسألة .

وما لنا لا نذكر انه قد وقع لنا من ذلك مايعده كثير من الناس أمراً عظيما ويستبعدون أن يكون من فلتات الاتفاق ونوادر المصادفات، : من ذلك انه كان في بلدنا (القلمون) في سورية رجل صياد اسمه (عمر كسن) رمى شبكته ليلة في البحر فسمع صوتاً غير مألوف فما لبث بعد ذلك ان صار يصرع، ويخيل اليه هجوم فئة من الجن عليه يضربونه متهمين إياه باصابة فتاة منهم ، ورآني وهو غائب عن الحس بالهيئة التي كنت أخلو فيها للعبادة وذكر الله في حجرة خاصة وبيدي مخصرة قصيرة من الابنوس كنت أعتمد عليها — ولم يكن رأى ذلك قط — رآني أطرد الجن عنه بهذه المخصرة ، وكان أهله قد ذكروا لي أمره ، ثم دعوني الى رؤيته ورقيته والدعاء له ، فذهبت فألفيته مغمى عليه لايرى ولا يسمع ممن حوله شيئاً، ولكنه كان يقول: جاء سيدنا الشيخ رشيد .... ولما رأيته على هذه الحالة توجهت الى الله تعالى باخلاص وخشوع ووضعت يدي على رأسه وقلت: (بسم الله الرحمن الرحيم . فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) ففتح عينيه وقام كأنما نشط من عقال ، ثم عاد اليه هذا بعد زمن طويل لاأذكره وشفاه الله تعالى وأذهب عنه الروع ثانية بنحو مما أذهبه عنه في المرة الاولى ، ولكنني

لم أر أولئك الجن الذين كان يراني أجدادهم وأذودهم عنه ، والواقعة تحتمل التأويل عندي ، ولا اعدها دليلا قطعياً على كون صرعه كان من الجن كما انه لامانع عندي ان يكون منهم ، وقد ذكرت هذه الواقعة لشهرتها عندنا في البلد ، وقد يكون من غريب الاتفاق انني كنت اعاشر بعض اصحاب هذا الصرع ولكن لم يكن يحدث لهم وانا معهم قط . ومنهم حموده بك اخو شيخنا الاستاذ الامام ، كنت اكثر الناس معاشرة لهم وما من احد كان يكثر زيارتهم الا ورأى حموده يصرع ولاسيما بعد اشتداد النوبات عليه في اثناء مرض الشيخ وبعده حتى كانت ربما تتعدد في اليوم الواحد ولكنني كنت امكث عندهم في الاسكندرية الايام والليالي ، ولم يقع له شيء من ذلك امامي ، ومثله في ذلك صديقنا محمد شريف الفاروقي — رحمهما الله تعالى — ولا استبعد أن يكون لبعض الارواح تأثير في بعض ، كما لا أنفي على سبيل القطع ان يكون ذلك من نوادر الاتفاق ، وكان شيوخ بلدنا ينقلون عن جدي الثالث غرائب في هذا الباب

وانني لم أذكر مثل هذا الا لامرين احدهما ان لا يظن ظان انني اميل في تشددي في كشف غش الدجالين الى آراء الماديين ، وثانيهما ان لا يجعل احد ما نقل عن مثل شيخ الاسلام من ارساله رسولا الى المصروع يخرج منه الشيطان حجة على من ينكر دجل هؤلاء الضالين من عباد الشياطين او الدعاة الى عبادتهم بتخويف الناس مما لا يخيف منهم ، او التقرب اليهم بما يعد عبادة لهم ، كما يعبد اليزيدية ابليس جهرا بدعوى انهم بذلك يتقون شره والعياذ بالله تعالى فأمثال هؤلاء الدجالين واتباعهم هم الذين قال الله تعالى فيهم : —

﴿ انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ أي قد مضت سنتنا في التناسب بين انواع المخلوقات المتجانسة والمتشا كلة ان يكون الشياطين الذين هم شرار الجن ، أولياء لشرار الانس ، وهم الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله ايمان اذعان بحيث يهتدون بوحيه ويزكون انفسهم بعبادته وآدابه حتى يبعد التناسب والتجانس بينهما ، فهذا الجعل لا يدل على ما يدعيه الجبرية ، واسناده الى الله تعالى لا يقتضي أنه جعله خارجا عن نظام الاسباب والمسببات ونتائج الاعمال الاختيارية التي تسند الى مكتسبيها باعتبار صدورها عنهم والى الخالق تعالى باعتبار خلقه وتقديره لذلك في نظام الكون وسننه ، وقد أسند هذه الولاية الى مكتسبيها بمزاولة أسبابها في قوله الآتي قريبا

(انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون) فاكتساب الكفار لولاية الشياطين باستعدادهم لقبول وسوستهم وإغوائهم، وعدم احتراسهم من الخواطر الباطلة او الشريرة من لمتهم، كاكتساب ضعفاء البنية للامراض باستعدادهم لها، وعدم احتراسهم من أسبابها، كالقذارة وتناول الاطعمة والاشربة القابلة للفساد، بما فيها من جراثيم تلك الامراض، — كما تقدم شرحه آنفا — فأولياء الشيطان هم اصحاب الوساوس والاوهام، والخرافات والطغيان، والمتولون لقرنائه من اهل الطاغوت والدجل والنفاق، كما يؤخذ من عدة آيات،

وقد كانوا في الجاهلية يعبدون الجن والشياطين لابطاعتهم في وسوستهم فقط بل كان منهم من يستعيذ بهم كما قال تعالى (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) وكانوا يتقربون اليهم بما يظنون أنه يعطفهم عليهم فيمنع ضررهم أو يحملهم على نفعهم كما يتقرب اليهم الدجالون اليوم بالبخور والعزائم والاستغاثة، وكل ذلك عبادة تدخل في قوله تعالى (ألم أعهد اليكم يابني آدم الاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين* وان اعبدوني هذا صراط مستقيم)! وقد اشتهر أن بعض الدجالين، يتقرب الى الشياطين بكتابة شيء من القرآن وشده على عورته وهذا من اقبح انواع الكفر واسفلها، فهل يليق بالمؤمن الذي يتولى الله ورسوله ان يلجأ الى احد من هؤلاء الدجالين في مصالحه يرجو منه نفعا او دفع ضر؟

وجملة القول إن الله تعالى فضل الانس على الجن وجعلهم ارقى منهم، ولو كانوا يرون المكلفين منهم كالشياطين لتصرفوا فيهم كما يتصرفون بجنة الهوام وميكروبات الامراض. وفاقا لقول الحبر ابن عباس (رض) ان خوفهم منا اشد من خوفنا منهم. والوسوسة منهم تكون على قدر استعدادنا لقبولها فذنبها علينا. وان ما يذكره الناس من ضررهم وصرعهم فاكثره كذب ودجل والنادر لا حكم له.

---

(٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا. قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟

(٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٢٩) كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٣٠) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ. إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ

هذا بيان لبعض آثار ولاية الشياطين للذين لا يؤمنون ، أي أنهم يطيعونهم في اغوائهم في أقبح الاشياء ولا يشعرون بقبحها

﴿ واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الجملة : واذا فعل الذين لا يؤمنون بالله الذين جعل الله لهم الشياطين اولياء قبيحا من الفعل وهو الفاحشة وذلك تعريهم للطواف بالبيت وتجردهم له فعذلوا على ماأتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه قالوا : وجدنا على مثل ما نفعل آبائنا فنحن نفعل مثل ماكانوا يفعلون ونقتدي بهم ونستن بسنتهم ، والله امرنا به فنحن نتبع أمره فيه .اهـ والفاحشة كل ماعظم قبحه وفسرها هو وغيره هنا بطواف اهل الجاهلية عراة لان المسلمين لما كانوا يعذلونهم ويقبحون فعلتهم هذه كانوا يجيبون بهذا الجواب . ومما رواه في ذلك قول مجاهد : كانوا يطوفون بالبيت عراة يقولون نطوف كما ولدتنا امهاتنا فتضع المرأة على قبلها النسعة (اي القطعة من سيور الجلد) أو الشيء فتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وقد تقدم ذكر هذه الفعلة الفاحشة وما روي من شبهتهم الشيطانية عليها وهي أنهم لا يطوفون ببيت ربهم في ثياب عصوه بها ، وبينا فساد هذا القول فأما اعتذارهم بالتقليد فقد رده الكتاب العزيز في مواضع تقدم بعضها في سورتي البقرة والمائدة . وقال مفسرو المتكلمين كالزمخشري والبيضاوي والرازي انه تعالى لم يجب عن هذه الحجة وهي محض التقليد لما تقرر في العقول من أنه طريقة فاسدة لان التقليد حاصل في الاديان المتناقضة فلو كان حقا لزم القول بحقية الاديان المتناقضة ، وهو محال . فلما كان فساد هذا الطريق ظاهرا لم يذكر الله تعالى الجواب عنه . هذا تقرير الرازي ، وقوله بفساد التقليد وكونه حجة داحضة في نظر العقول السليمة صحيح ، ولكن زعمه أن هذا سبب

لعدم الرد غير صحيح ، فقد رد تعالى عليهم بمثل قوله (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاولا يهتدون)والصواب أنه استغنى عن الرد الصريح هنا بردما اقترن به المتضمن للرد عليه وبيان بطلانه

وأما اعتذارهم بما زعموا من أن الله تعالى أمرهم بذلك فقد أمر الله تعالى رسوله (ص)بأن يدحضه بقوله لهم ﴿ قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ وهذا القول تكذيب لهم من طريقي العقل والنقل ، أما الاول فتقريره أن هذا الفعل لا خلاف بينكم وبيننا في أنه من الفحشاء أي أقبح القبائح ، والله تعالى منزه بكماله المطلق الذي لا شائبة للنقص فيه أن يأمر بالفحشاء وانما الذي يأمر بها هو الشيطان الذي هو مجمع النقائص كما قال تعالى في آية أخرى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) وهذا حجة على من ينكر الحسن والقبح العقلي في الاحكام الشرعية لاجل مخالفة من توسعوا في تحكيم العقل في ذلك . وأما طريق النقل فهو ان ما يسند الى الله تعالى من أمر ونهي لا يثبت بمجرد الدعوى بل يجب أن يعلم بوحي منه تعالى الى رسول من عنده ثبتت رسالته بتأييده تعالى له بالآيات البينات . فالاستفهام في قوله تعالى « أتقولون على الله ما لا تعلمون» للانكار المتضمن للتوبيخ ، وللرد على المقلدين فانهم باتباع آبائهم وأجدادهم وشيوخهم في آرائهم وأعمالهم الدينية غير المسندة الى الوحي الالهي يقولون على الله مالا يعلمون انه شرعه لعباده .

وبعد أن أنكر عليهم أن يكونوا على علم في هذا الطريق النقلي وهو من باب السلب والنفي ، توجهت الانفس الى معرفة ما يأمر به تعالى من محاسن الاعمال ، ومكارم الاخلاق والخصال ، فبينه بطريق الاستئناف ، قائلا لرسوله ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ أي العدل والاعتدال في الامور كلها ، وهو الوسط بين الافراط والتفريط فيها ، وقد تقدم تفسيره لفظا ومعنى في سورتي النساء والمائدة ، والوسط في اللباس الذي يعبد الله تعالى فيه أن يكون حلالا نظيفا لائقا بحال لابسه في الناس لا ثوب شهرة في تفريط التبذل ، ولا في إفراط التطرس ، وسيأتي الامر بأخذ الزينة عند المساجد من هذا السياق ، وقدم عليه هنا مايتعلق بفقه العبادة ولبابها الدال على جهلهم بها ، وهو قوله ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي قل لهم أيها الرسول أمر ربي بالقسط

فأقسطوا وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد — او وقل لهم أقيموا الخ — اقامة الشيء إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه كاقامة الصلاة واقامة الوزن بالقسط، والوجه حسي ومعنوي — فقوله تعالى (فول وجهك شطر المسجد الحرام) من الاول وقوله (فأقم وجهك للدين حنيفاً) من الثاني ، والمراد به توجه القلب وصحة القصد ؛ فان الوجه يطلق على الذات ، وما هنا من الثاني وان وردعن بعضهم تفسيره بالاول أيضاً وجعله بعضهم بمعنى التوجه الى الكعبة في كل صلاة في كل مسجد أينما كان . والمعنى : أعطوا توجهكم الى الله تعالى عند كل مسجد تعبدونه فيه حقه من صحة النية وحضور القلب وصرف الشواغل سواء كانت العبادة طوافا أو صلاة أو ذكراً أو فكراً — وادعوه وحده مخلصين له الدين ، بأن لا تشوبوا دعاءكم ولا غيره من عبادتكم له بأدنى شائبة من الشرك الاكبر وهو التوجه الى غيره من عباده المكرمين، كالملائكة والرسل والصالحين، ولا الى ماوضع للتذكير بهم من الاصنام والقبور وغيرها — ولا من الشرك الاصغر وهو الرياء وحب اطلاع الناس على عبادتكم والثناء عليكم بها والتنويه بذكركم فيها. وكانوا يتوجهون الى غيره معه زاعمين أن المذنب لا يليق به أن يقبل على الله وحده ويقيم وجهه له حنيفا، بل لا بد له أن يتوسل اليه بأحد من عباده الطاهرين المكرمين ليشفع لهم عنده ويقربهم اليه زلفى . وهذا من وسواس الشيطان ، وشبهتهم فيه كشبهتهم في عدم الطواف في ثياب عصوه فيها ، وجعل هذا وذاك من الدين ونسبته الى الله تعالى افتراء عليه وقول عليه بغير علم مما أوحاه الى رسله ، وانما اوحى اليهم ما نطقت به هذه الآية وأمثالها من الآيات الناطقة بالامر بتجريد التوحيد من كل شائبة والاخلاص في العبادة — كما أمر بأخذ الزينة عند كل مسجد وجعل الظاهر عنواناً للباطن في طهارته وحسنه من غير رياء ولا تكلف كما هو مقتضى تحري القسط والعدل في كل امر

﴿ كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ هذا تذكير بالبعث والجزاء على الاعمال ودعوة الى الايمان به في إثر بيان اصل الدين ومناط الامر فيه والنهي، الوارد في سياق اصل تكوين البشر، واستعدادهم للايمان والكفر، والخير والشر، وما للشيطان في ذلك من اغواء الكافرين الذين يتولونه، وعدم سلطانه على المؤمنين الذين يتولون الله ورسوله . وهذه الجملة من أبلغ الكلام الموجز المعجز فانها دعوى متضمنة للدليل بتشبيه الاعادة بالبدء فهو يقول:

كما بدأكم ربكم خلقاً وتكويناً بقدرته تعودون اليه يوم القيامة - حالة كونكم فريقين - فريقاً هداهم في الدنيا ببعثة الرسل فاهتدوا بايمانهم به وإقامة وجوههم له وحده في العبادة ودعائه مخلصين له الدين لا يشركون به أحداً ولا شيئا — وفريقا حق عليهم الضلالة لاتباعهم اغواء الشيطان، واعراضهم عن طاعة الرحمن، وكل فريق يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، ومعنى حقت عليهم الضلالة ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية، لأنها جعلت غريزة لهم فكانوا مجبورين عليها، يدل على هذا تعليلها على طريق الاستئناف البياني بقوله تعالى

﴿ انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون ﴾ عاد هنا الى الكلام عن المشركين بضمير الغائبين بعد انتهاء ما أمر به الرسول من خطاب المحتجين منهم بما يبطل حجتهم التي حكاها عنهم — ومعنى اتخاذهم الشياطين أولياء أنهم اطاعوهم في كل ما يزينونه لهم من الفواحش والمنكرات، كأنهم ولوهم امورهم من دون الله الذي يأمر بالعدل والاحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والعدوان، ويحسبون انهم مهتدون فيما تلقنهم الشياطين من الشبهات، كجعل التوجه الى غير الله والتوسل به اليه في الدعاء وغيره مما يقربهم اليه تعالى زلفى، وجعل الرب تعالى كالملوك الجاهلين الظالمين، لا يقبل عبادة عبده المذنب الا بواسطة بعض المقربين عنده، كالملك الجاهل مع وزرائه وحجابه وأعوانه، وغير ذلك مما ذكرآنفا من شبههم على طوافهم عراة، وماتقدم في سورة الانعام، من تحريم ماحرموا من الحرث والانعام،

وأكثر من ضل من البشر في الاعتقاديات والعمليات يحسبون أنهم مهتدون، واقل الكفار الجاحدون للحق كبرا وعنادا كأعداء الرسل في عصورهم، وحاسديهم على ما آتاهم الله من فضله فكرمهم به عليهم، كما حسد ابليس آدم واستكبر عليه، ومنهم فرعون والملأ من أشراف قومه الذين قال تعالى فيهم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ومنهم كبراء طواغيت قريش كأبي جهل والوليد ابن المغيرة والاخنس بن شريق الذين قال تعالى فيهم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وأما سائر الناس فضالون بالتقليد واتباع الشبهات الشيطانية، أو بالنظريات والآراء الباطلة، وهم الذين قال تعالى فيهم (قل هل انبئكم بالاخسرين أعمالا؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) ولو كان التقليد عذراً مقبولا لكان اكثر كفار الارض

في جميع الازمنة والامكنة معذورين ناجين كالمؤمنين ،

ألم تر أن التقليد قد أضل الالوف التي لا تحصى من المسلمين الذين صدق عليهم الحديث الصحيح « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع» فتركوا هداية الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، واتبعوا البدع المستحدثة فاذا دعوا الى الله ورسوله :قالوا قال الشيخ فلان، وفعل الولي الصالح فلان، وهؤلاء أعلم وأهدى منا بالسنة والقرآن . وانما أمرهم الله أن يتبعوا ما أنزله اليهم ونهاهم أن يتبعوا من دونه أولياء كما تقدم في صدر هذه السورة ، وما اضيع البرهان عند المقلد (*

وأما أهل النظر فمنهم من بلغته دعوة الرسول على وجهها أو على غير وجهها ومنهم من لم تبلغه ، وفي كل منهم من يبحث عن الحق ليتبعه ومن لم يبحث ذهب بعض المتكلمين الى أن من بذل جهده في النظر والبحث والاستدلال على الحق فاتبع ما ظهر له أنه الحق بحسب ما وصلت اليه طاقته وكان مخالفا في شيء منه لما جاءت به الرسل لا يدخل في مدلول هذه الآية وأمثالها بل يكون معذوراً عند الله تعالى لقوله (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) . وقد اشترطوا

*) من لطائف الاتفاق أنه قد جاءني وأنا أفسر هذه الآية كتابان أحدهما من (بنكوك – سيام) في الشرق الاقصى والآخر من بعض بلاد اليمن يذكر في كل منهما عداوة بعض المقلدين للمنار ، بأنه يدعو الى ما يخالف بل يحقر ويضلل ما جرى عليه الآباء والاجداد ، فأما ما عليه أهل سيام فمنه أن نساءهم يخرجن الى الاسواق والمجامع عاريات الاجسام لا يستترن الا السوأتين ويشاركن البوذيين في لهوهم ولعب الميسر وفي حفلات عبادتهم في هيا كلهم ، ومنه غير ذلك مما سيذكر في باب الفتاوى – فهذا بعض ما جرى عليه الاباء والاجداد، ولا يجري عليه الذين اهتدوا بالمنار الى كتاب الله وسنة رسوله (ص) وأما بلاد اليمن فان بعض العلويين من الحضارمة قد نشطوا في هذه السنين الى بث دعوة غلو في التشيع ودعوى وجوب اتباع الناس لكل من ينسب الى السلالة العلوية بناء على أن كل ما ورد في آل بيت النبي (ص) في عصره يشاركهم فيه ذراريهم الى يوم القيامة وان كانوا من أجهل الناس بدين الله وأبعدهم عن الاهتداء به. وهم لا يدعون الى مذهب مدون كمذهب الزيدية أو الامامية بل الى فوضى في الدين لا حد لها . وقد قامت قيامة الناس عليهم في جاوه وسنغافوره وغيرها من البلاد التي يبثون فيها هذه الدعاوي الجهلية كما بلغنا وكلهم يكرهون المنار طبعا ويصدون عنه . . فهذه عواقب ضلالة التقليد

في حجية بلوغ الدعوة كونها على وجه من الصحة والحجة يحرك الى النظر فيها والا فليس من شأن أحد من البشر أن يبحث عن كل مايبلغه من أمر الاديان ولا سيما اذا بلغه بصورة مشوهة تدعو الى الاعراض عنها ، واتقاء اضاعة الوقت في النظر فيها ، ويزعم كثير من المسلمين أن جميع أهل هذا العصر قد بلغتهم دعوة الاسلام على وجهها وما أجهلهم بحال العصر وأهله وبالدعوة وادلتها

قال السيد الالوسي في تفسير (ويحسبون أنهم مهتدون) عطف على ما قبله داخل معه في حيز التعليل أو التأكيد ، ولعل الكلام من قبيل * بنو فلان قتلوا فلانا * والاول في مقابلة من هداه الله تعالى شامل للعاند والمخطيء ، والثاني مختص بالثاني ، وهو صادق على المقصر في النظر والباذل غاية الوسع فيه. واختلف في توجه الذم على الاخير وخلوده في النار، ومذهب البعض أنه معذور ، ولم يفرقوا بين من لا عقل له أصلا ومن له عقل لم يدرك به الحق بعد أن لم يدع في القوس منزعا في طلبه ، فحيث يعذر الاول بعدم قيام الحجة عليه يعذر الثاني لذلك . ولا يرون مجرد المالكية واطلاق التصرف حجة . ولله الحجة البالغة ، والتزام أن كل كافر معاند بعد البعثة وظهور أمر الحق كنار على علم — وأنه ليس في مشارق الارض ومغاربها اليوم كافر مستدل — مما لا يقدم عليه الامسلم معاند، أومستدل بما هو أو هي من بيت العنكبوت، وانه لاوهن البيوت ، وادعى بعضهم ان المراد من المعطوف عليه المعاند ومن المعطوف المخطيء ، والظاهر ما قلنا اه

هذا وان المعذور في الخطأ لا يكون عند الله كالمصيب ، وإن الذي يتحرى الحق المرضي عند الله تعالى المنجي في الآخرة لابد أن يعرف باخلاصه في النظر واجتهاده في الطلب كثيرا من الحق والخير ، ومعرفته حجة عليه ، ومن كان هذا شأنه كان أجدر الناس بقبول دعوة الرسل اذا بلغته على وجهها ، لانه أحق بها وأهلها ، فان لم يقبلها كان في نظره على هوى . ويتفاوت هؤلاء المجتهدون المخطئون بتفاوت حظوظهم من معرفة الحق واتباعه ، ومعرفة الخير والعمل به واجتناب ضده، اذ بذلك تتزكى الانفس والمدار في الآخرة على تزكيتها . وقد بينا هذا في موضع آخر من التفسير بما هو أوسع مما هنا . والله أعلم بالصواب، واليه المرجع والمآب .

(٣١) يٰبَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣٢) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ. كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

روى مسلم في صحيحه والنسائي والبيهقي في سننهما ومخرجو التفسير المأثور عن ابن عباس ان النساء كنّ يطفن بالبيت عراة الا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

واخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال كان الناس يطوفون بالبيت عراة يقولون: لانطوف في ثياب أذنبنا فيها، فجاءت امرأة فألقت ثيابها فطافت، ووضعت يدها على قبلها وقالت : (البيت) فنزلت هذه الآية (خذوا زينتكم عند كل مسجد — الى قوله — والطيبات من الرزق) والروايات في هذا المعنى كثيرة عن ابن عباس وتلاميذه وغيرهم من مفسري السلف وفي بعضها عنه أنهم كانوا يطوفون بالليل عراة وأكثرها مطلقة . وفي بعضها عنه: كانت العرب اذا حجوا فنزلوا في أدنى الحل نزعوا ثيابهم ووضعوا رداءهم ودخلوا مكة بغير رداء الا أن يكون للرجل منهم صديق من الحمس [1] فيعيره ثوبه ويطعمه من طعامه ، فأنزل الله (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وفي رواية عن طاوس أنهم كانوا يضعون ثيابهم خارجا من المسجد ويدخلون فاذا دخل رجل وعليه ثيابه يضرب وتنزع عنه ثيابه فنزلت. وعن قتادة حكاية ذلك عن حي من اليمن والصواب انه عام ولم يكن أحد من العرب يلبس ثيابه في

---

(١) الحمس جمع أحمس كحمر جمع أحمر وهو وصف لبني قريش وصفوا به لحماستهم أو تحمسهم أي تشددهم في الدين من الحماسة التي هي الشدة والشجاعة أو لانتمائهم الى الحمساء وهي الكعبة

الطواف الا الحمس من قريش فانهم كانوا يميزون أنفسهم على سائر الناس : يطوفون بثيابهم — وهذا حسن في نفسه — ويأتون البيت من ظهره لا من بابه اذا كانوا محرمين ، وقد أبطل هذا كتاب الله تعالى بقوله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واءتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون) ويقفون عند المشعر الحرام (جبل قزح) بمزدلفة لا في عرفات. ويعللون هذا بأنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه ، وعرفة خارج حد الحرم المعروف بالعلمين المنصوبين اللذين ينفر الحجاج من بينهما عند الدفع منها الى المزدلفة ولذلك ورد أن النبي (ص) لما خرج في حجة الوداع الى الموقف كانت قريش لا تشك في أنه يقف عند المشعر الحرام بمن معه من قريش ويأمر الناس بأن يذهبوا الى عرفة فيقفوا فيها فخاب ظنهم ، وأبطل النبي (ص) امتيازهم وسن لهم ولغيرهم المساواة. وبدأ (ص) بنفسه حتى انه أبى أن يتخذ لنفسه مكاناً في منى يستظل فيه من الشمس لما أرادوا عمله له . وقال « منى مناخ من سبق » رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن عائشة بسند صحيح

وجملة القول إن الروايات في سبب نزول هاتين الآيتين قد روي مثلها في نزول ما قبلهما من آيات اللباس كما تقدم مختصرا. والمعنى أن هذه الآيات كلها نزلت مبطلة لتلك الضلالة الجاهلية الفاحشة ومقررة لوجوب اتخاذ الملابس للستر ولزينة التجمل واظهار نعمة الله على عباده. قال عز وجل

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ يقال في هذا النداء ماقلنا في مثله قبله ونزيد أنه يشمل النساء بالتبع للرجال شرعا لا لغة ويدل على بعثة النبي (ص) الى جميع البشر . والظاهر أن هذه الوصايا مما أوصى الله تعالى به من سبق من الرسل وسنعود الى هذا في تفسير آخرها ؛ والزينة ما يزين الشيء أو الشخص فهي اسم من زانه يزينه زينا ، ضد شانه — اي عابه — يشينه شيناً. وأخذها عبارة عن التزين لانه إنما يحصل بأخذ ما يزين واستعماله ، والمراد بها هنا الثياب الحسنة المعتادة بدليل القرينة والاضافة وسبب نزول الآيات — والا فأنواع الزينة في الدنيا كثيرة ومنها المال والبنون — فلا يدخل فيها ما هو خاص بالنساء من الحلي والحلل التي يتحببن بها الى أزواجهن وقد تكون شاغلة عن العبادة. وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس وهو ما يستر عورته . وقد اقتصر بعضهم على هذا لاجل جعل الامر للوجوب وانما يجب لصحة الصلاة

والطواف ستر العورة فقط على ما جرى عليه جمهور الفقهاء على اختلافهم في تحديد العورة، وقالوا: ان مازاد على ذلك من التجمل بزينة اللباس اللائق عند الصلاة — ولا سيما صلاة الجمعة والجماعة وفي العيدين — سنة لا واجب. ولكن اطلاق الامر يدل على وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد بحسب عرف الناس في تزينهم المعتدل في المجامع والمحافل ليكون المؤمن عند عبادة الله تعالى مع عباده المؤمنين في أجمل حالة لائقة به لا تكلف فيها ولا اسراف ، فمن قدر بلا تكلف على عمامة وإزار ورداء ، أو ما في معناها من قلنسوة وجبة وقباء ، لا يكون ممتثلا للامر بالزينة اذا اقتصر على إزار يستر العورة فقط (وهي عند بعض الائمة السوأتان فقط. وعند الجمهور ما بين السرة والركبة) وان صحت صلاته، فان المقام ليس مقام بيان شروط صحة الصلاة بل هو أوسع من ذلك ، ومن العلماء من يقول : إن ستر العورة في الصلاة واجب لا شرط لصحتها. وان فيما ورد من الاخبار والآثار في المسألة ما يدل على ما قلنا حتى جعلت النعال من الزينة وهي كذلك وان تركها جميع المسلمين في المساجد لانهم يفرشونها كما يفرشون بيوتهم بالحصر أو بالبسط والطنافس

أخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عمر عن رسول الله (ص) قال « اذا صلى أحدكم (أي أراد الصلاة) فليلبس ثوبيه فان الله عز وجل أحق من تزين له . فان لم يكن له ثوبان فليتزر اذا صلى ، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود » واخرج الشافعي واحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي عن ابي هريرة ان النبي (ص) قال « لا يصلين احدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء » واخرج ابو داود والبيهقي عن بريدة قال نهى رسول الله (ص) ان يصلي الرجل في لحاف (ثوب يلتحف به) واحد لا يتوشح به. ونهى ان يصلي الرجل في سراويل وليس عليه رداء . واخرج ابن عدي وابو الشيخ وابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) « خذوا زينة الصلاة — قالوا وما زينة الصلاة ؟ قال — البسوا نعالكم فصلوا فيها » واخرج العقيلي وابو الشيخ ابن مردويه وابن عساكر عن انس قال قال رسول الله (ص) في قول الله (خذوا زينتكم عند كل مسجد) قال « صلوا في نعالكم » وفي معنى هذين الحديثين بضعة احاديث أخرى ضعيفة يؤيدها ما أخرج احمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن انس انه سئل : أكان رسول

الله (ص) يصلي في نعليه ؟ قال : نعم . واخرج احمد والشيخان وغير الترمذي من اصحاب السنن عن ابي هريرة ان سائلا سأل النبي (ص) عن الصلاة في الثوب الواحد فقال « أو لكلكم ثوبان؟ » زاد البخاري في رواية : ثم سأل رجل عمر فقال : اذا وسع الله فأوسعوا : جمع رجل عليه ثيابه ، صلى رجل في ازار ورداء ، في إزار وقميص ، في إزار وقباء[1] في سراويل ورداء ، في سراويل وقميص ، في سراويل وقباء ، في تبّان[2] وقباء ، في تبان وقميص . قال واحسبه قال : في تبان ورداء . وذكروا في هذا السؤال ان سببه مارواه عبدالرزاق فان أبي بن كعب وعبدالله بن مسعود اختلفا فقال أبي : الصلاة في الثوب الواحد غير مكروهة وقال ابن مسعود إنما كان ذلك وفي الثياب قلة — فقام عمر على المنبر فقال : القول ما قال أبي ، ولم يأل ابن مسعود — أي لم يقصر — وروي عن الحسن السبط عليه السلام والرضوان أنه كان اذا قام للصلاة لبس أجود ثيابه فسئل عن ذلك فقال ان الله جميل يحب الجمال فأتجمل لربي وهو يقول (خذوا زينتكم عند كل مسجد)

والمأخوذ من جملة هـذه الروايات وغيرها ماحققه وفصله عمر رضي الله تعالى عنه وهو أن الامر يختلف باختلاف حال الانسان في السعة والضيق كالنفقة قال تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها) فمن عنده ثوب واحد يستر جميع بدنه فليستر به جميع بدنه ويصل به ، فان لم يستر الا العورة كلها أو العورة المغلظة — وهي السوأتان — فليستر به مايستره ، ومن وجد ثوبين مهما يكن نوعهما أو اكثر فليصل بهـا ، والخلاصة أنه يطلب أن يكون في أوسط حال حسنة يقدر عليها . وقد عد الفقهاء من اعذار ترك الجمعة والجماعة فقد الرجل للثياب اللائقة به بين أمثاله حتى العمامة للعالم

هذا الامر بالزينة عند كل مسجد — لا المسجد الحرام وحده — أصل من أصول الاصلاح الدينية والمدنية يعرف بعض قيمته مما روي في سبب نزول هذه الآيات وانما يعرفها حق المعرفة من قرأ تواريخ الامم والملل وعلم أن اكثر المتوحشين الذين يعيشون في الحرجات والغابات ، أفراداً وجماعات ، يأوون الى

---

(١) القباء هو ما يسمى في مصر بالقفطان وفي الشام بالغنباز (٢) التبان بضم التاء وتشديد الباء سراويل ليس له رجلين يتخذ من الجلد و يلبسه في زمننا المصارعون

الكهوف والمغارات ، والقبائل الكثيرة الوثنية ، في بعض جزائر البحار وجبال أفريقية ، كلهم يعيشون عراة الاجسام نساء ورجالا ، وان الاسلام ما وصل الى قوم منهم الا وعلمهم لبس الثياب بايجابه للستر وللزينة إيجابا شرعيا ، ولما أسرف بعض دعاة النصرانية الاوربيين في الطعن في الاسلام لتنفير أهله منه وتحويلهم الى ملتهم ، ولتحريض اوربة عليهم ، رد عليهم بعض المنصفين منهم. فذكر في رده أنّ لانتشار الاسلام في أفريقية منة على أوربة بنشره للمدنية في أهلها بحملهم على ترك العري وإيجابه لبس الثياب الذي كان سبب رواج تجارة النسيج الاوربية فيهم. بل أقول: إن بعض الامم الوثنية ذات الحضارة والعلوم والفنون كان يغلب فيها معيشة العري حتى اذا ما اهتدى بعضهم بالاسلام صاروا يلبسون ويتجملون ثم صاروا يصنعون الثياب ، وقلدهم جيرانهم من الوثنيين بعض التقليد ، هذه بلاد الهند على ارتقاء حضارة الوثنيين فيها قديما وحديثا لا يزال الوف الالوف من نسائهم ورجالهم عراة أو أنصاف أو ارباع عراة . فترى بعض رجالهم في معاهد تجارتهم وصناعتهم بين عار لا يستر الا السوأتين — ويسمونهما « سبيلين » وهي الكلمة العربية التي يستعملها الفقهاء في باب نواقض الوضوء — أو ساتر لنصفه الاسفل فقط ، وامرأة مكشوفة البطن والفخذين أو النصف الاعلى من الجسم كله أو بعضه ، وقد اعترف بعض علمائهم المنصفين بأن المسلمين هم الذين علموهم لبس الثياب والاكل في الاواني ولا يزال اكثر فقرائهم يضعون طعامهم على ورق الشجر ويأكلون منه ، ولكنهم خير من كثير من سائر الوثنيين سترا وزينة ، لان المسلمين كانوا حكامهم ، وقد كانوا ولا يزالون من أرقى مسلمي الارض علما وعملا وتأثيرا في وثنيي بلادهم . وأما المسلمون في بلاد الشرق التي يغلب عليها الجهل فهم أقرب الى الوثنية منهم الى الاسلام في اللباس وكثير من الاعمال الدينية ومنهم نساء مسلمي (سيام) اللاتي لا يرين في أنفسهن عورة سوى السوأتين كما بين هذا من قبل فحيث يقوى الاسلام يكون الستر والزينة اللائقة بكرامة البشر ورقيهم ؟

فمن عرف مثل هذا عرف قيمة هذا الاصل الاصلاحي في الاسلام ، ولولا ان جعل هذا الدين المدني الاعلى اخذ الزينة من شرع الله أوجبه على عباده لما نقل امما وشعوبا كثيرة من الوحشية الفاحشة ، الى الحضارة الراقية ، وإنما يجهل هذا الفضل له من يجهل التاريخ وان كان من اهله ، بل لا يبعد ان يوجد في متحذلقة المتفرنجين من يجلس في ملهى او مقهى اوحانة متكئا مميلا طربوشه على رأسه

يقول : مامعنى جعل اخذ زينة اللباس من امور الدين ؟ وهو من لوازم البشر لا يحتاجون فيه الى وحي الهي ولا شرع ديني؟ وقد يقول مثل هذا في قوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ وهذا الامر المقيد بما عطف عليه من النهي ارشاد عال أيضا فيه صلاح للبشر في دينهم ومعاشهم ومعادهم ، لا يستغنون عنه في وقت من الاوقات ، ولا عصر من الاعصار ، وكل ما بلغوه من سعة العلم في الطب وغيره لم يغنهم عنه . بل هو يغني المهتدي به في امره ونهيه عن معظم وصايا الطب لحفظ الصحة — والمعنى خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات، وكلوا من الطيبات ، واشربوا الماء وغيره من الاشربة النافعة المستلذات ، ﴿ ولا تسرفوا ﴾ فيها ولا تعتدوا بل الزموا الاعتدال ، ﴿ انه لا يحب المسرفين ﴾ اي إذ ربكم الذي انعم عليكم بهذه النعم لمنفعتكم ، لا يحب المسرفين في امرهم، بل يعاقبهم على الاسراف ، بقدر ما ينشأ عنه من المفاسد والمضار ، فالنهي راجع الى الثلاثة كما يؤخذ من أكثر الروايات ، بل حذف المعمول يدل على العموم، اي لا تسرفوا في هذه الاشياء ولا في غيرها، ويؤيده تعليل النهي بأنه تعالى لا يحب جنس المسرفين — أي لانهم يخالفون سننه في فطرتهم ، وشريعته في هدايتهم، بجنايتهم على أنفسهم في ضرر أبدانهم ، وضياع أموالهم، وغير ذلك من مضار الاسراف الشخصية والمنزلية والقومية. اخرج عبد بن حميد والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي (ص) قال « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف فان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وفي معناه عن ابن عباس: كل ماشئت واشرب ماشئت والبس ماشئت اذا أخطأتك اثنتان : سرف أو مخيلة . والمخيلة (بفتح الميم بوزن سفينة) الخيلاء والاعجاب والكبر، وعن عكرمة في قوله « ولا تسرفوا » قال في الثياب والطعام والشراب. وعن وهب بن منبه قال : من السرف أن يكتسي الانسان ويأكل ويشرب ما ليس عنده . وفي رواية عن ابن عباس في قوله (انه لا يحب المسرفين) قال في الطعام والشراب . وفي أخرى قال : أحل الله الاكل والشرب ما لم يكن سرفا أو مخيلة . ولم يذكر اللباس والمخيلة لا تظهر الا فيه

والاصل في الاسراف تجاوز الحد في كل شيء بحسبه ، والحدود منها طبيعي كالجوع والشبع والظمأ والري فلو لم يأكل الانسان الا اذا أحس بالجوع ومتى

شعر بالشبع كف وان كان يستلذ الاستزادة ، ولولم يشرب الا اذا شعر بالظمأ واكتفى بما يزيله فلم يزد عليه لاستلذاذ برد الشراب أو حلاوته ، لم يكن مسرفا في أكله وشربه ، وكان طعامه وشرابه نافعا له — ومنها اقتصادي وهو أن تكون نفقة الثلاثة على نسبة معينة من دخل الانسان لا تستغرق كسبه ، فمن نفينا عنه الاسراف الطبيعي في أكله وشربه قد يكون مسرفا في ماله اذا كان نوع طعامه وشرابه مما لا يفي دخله بمثله — ومنها عقلي أو علمي ، ومنها عرفي وشرعي . ومن حدود الشرع في الطعام والشراب واللباس أنه حرم من الطعام الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، ومن الشراب الخمر ، وهي كل مسكر ، كما حرم كل ضار منهما كالسموم ، ومن اللباس الحرير المصمت أي الخالص وكذا الغالب — على الرجال دون النساء — فهذه أشياء محرمة بأعيانها فلا تباح الا لضرورة تقدر بقدرها . وحرم مما يلابسها الاكل والشرب في أواني الذهب والفضة وهذا وما قبله ثابت في الاحاديث الصحيحة ، والظاهر أن النبي (ص) عده من السرف الذي يدخل في عموم النهي عن الاسراف في الثلاثة ، ونهى ايضا عن لباس الشهرة وعن تشبه المسلمين بغيرهم . واعتبر علماء الشرع عرف الناس فيما يجب من نفقة الاقارب التي تختلف باختلاف الضيق والسعة ، أخذا من قوله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته) الآية — فيجب على الزوج الغني لزوجته الغنية ما لا يجب على الفقير من غذاء ولباس . ولكن درجات الغنى والفقر متفاوتة لا يمكن ضبطها وتحديدها ، والمعتبر في كل طبقة من الناس عرف المعتدلين منهم الذي يدخل في طاقتهم — ومن تجاوز طاقته مباراة لمن هم في الثروة مثله من المسرفين أو لمن هم اغنى منه واقدر كان مسرفا ، وكم خربت هذه المباراة والمنافسة من بيوت كانت عامرة ، ولا سيما اذا اتبعت فيها أهواء النساء في التنافس في الحلي والحلل ، والمهور وتجهيز العرائس ، واحتفالات الاعراس والمآتم ، وما يتبعها من الولائم والوضائم [1] وإن من النساء من ترى من العار أن تلبس الغلالة أو الحلة في زيارتها الا مثالها مرتين بل لا بد لكل زيارة من حلة جديدة . وهذا سرف كبير ، وضرره على الامة أكبر من ضرره على الافراد ، ولا سيما في مثل هذه البلاد ، التي تأتي بكل أنواع الزينة من البلاد الاجنبية ، فتذهب ثروتها الى من يستعين بها على استذلالهم والتعدي على استقلالهم .

(١) الوليمة طعام العرس والوضيمة طعام المأتم

ولا يعارض هذا ما ورد من الآثار وسيرة الخلفاء الراشدين وغيرهم من السلف في التقشف فان هذا الهدي القرآني هو أصل الشرع وكل ما خالفه فله سبب يعرفه الواقف على جملة سيرتهم وما كانوا عليه من الفقر والضيق في أول الاسلام ، وما خافوا على الامة من الفساد بالترف والسرف عند خروجها من ذلك الضيق الى تلك السعة التي لاحد لها بالاستيلاء على ملك كسرى وقيصر

على أن الميل الى التقشف والتقتير والغلوّ في ذلك تدينا معهود من طباع البشر كضده ، والاعتدال والقصد هو الذي خاطب به الشرع الناس كلهم ، وهو يختلف باختلاف اليسر والعسر والزمان والمكان . وما ورد من حديث عائشة عند ابن مردويه والبيهقي من أن الاكل مرتين في اليوم من الاسراف ضعيف ومعارض بالصحاح . وحديث أنس عند ابن ماجه « ان من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » ضعيف أيضا ولكن معناه صحيح وحكمة من جهة أخرى وذلك أن من أتبع نفسه هواها ، ولم يكبح جماحها بقوة الارادة عن بعض شهواتها ، فانها تقوده الى الاسراف والى شرور أخرى ولهذا شرع الله الصيام علينا وعلى من قبلنا . وقد مال بعض الصحابة الى الغلو وشرعوا فيه حتى استأذن بعضهم النبي (ص) في الخصاء فأدبهم الله ورسوله بما ورد من الآيات والاحاديث في ذلك وقد فصلنا القول فيه تفصيلا عند تفسير قوله تعالى من سورة المائدة (٥ : ٩٠ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) الخ الآيتين [1] وبينا فيه أن ما عني بعض الصوفية بنقله من أخبار الزهد في الطعام كالغزالي في كتاب كسر الشهوتين — فأكثره لا أصل له ومنه الموضوع والضعيف وأقله الصحيح وأن جملة سيرة النبي (ص) في الطعام أنه كان يأكل ما وجد من خشن ومستلذ ، ليكون قدوة للمعسرين وهم اكثر أصحابه ، وللموسرين وهم الاقلون منهم في عهده ، وقد أيسروا من بعده ، على أنه ورد أن أحب الطعام اليه اللحم ، ولكنه لم يكن يهتم بالطعام ، وانما كان يهتم بأمر الماء والشراب ، فلا يشرب الا النظيف العذب ، ويحب البارد الحلو ، حتى كان يستعذب له الماء من مسافة يوم أو يومين ، وأما اللباس فكان في عامة أحواله يلبس ما كان يلبس قومه ، ولبس من خشن اللباس ومن أجود أنواعه ليكون قدوة للغني والفقير

(١) راجع ص ١٧ – ٣٢ من جزء التفسير السابع

وجملة القول ان الطعام والشراب ضرورة بشرية حيوانية ، ولكن ضل فيها فريقان من البشر في كل أمة من الامم — فريق الغلاة في الدين الذين يتركون الاكل والشرب من الطيبات المستلذة النافعة بخلا وشحا ، او يحرمونها على أنفسهم تحريما دائما أو في أيام أو أشهر مخصوصة غلوّاً في الدين ، وتقربا الى الله تعالى بتعذيب النفس واضعاف الجسم - وفريق المترفين المسرفين في اللذات البدنيـة الذين جعلوا جل همهم من حياتهم التمتع باللذات ، فهم يأكلون ويتمتعون كما تتمتع الانعام ، بل هم أضل في تمتعهم منها ، لانها تقف عند حاجة فطرتها ، فلا تعدو فيها داعية غريزتها ، التي تحفظ بها حياتها الفردية والنوعية . وأما المترفون من الناس فانهم يسرفون في كل ذلك فيأكلون قبل تحقق الجوع ويشربون على غير ظمأ ، ويتجاوزون قدر الحاجة في الاكل والشرب كما يتجاوزونه في غيرهما ، ويستعينون على ذلك بالتوابل والمحرضات للشهوة ، فيصابون من جراء ذلك بتمدد المعدة ، وسوء الهضم وفساد الامعاء من التخمة ، وكثرة الفضلات في الجسم ، التي تحدث تصلب الشرايين المعجل بالهرم ، وغير ذلك من الامراض . كما هو شأنهم في شهوة داعية النسل التي بينا ضرر الانهماك والاسراف فيها قريبا في الكلام على مسألة ستر السوأتين حتى فيما بين الزوجين وفي مواضع أخرى . لاجل هذا قيد الامر في الاكل والشرب من الطيبات بالنهي عن الاسراف كما قيده في زينة اللباس

هذا وإن الاقتصاد في المعيشة قد وضعت له قواعد وأصول ، فرعت منها مسائل وفروع ، فيحسن الاستنارة بها وبعلم تدبير المنزل على اجتناب ما حظره الشرع من الاسراف والتبذير ، والبخل والتقتير ، واتباع ما حث عليه ورغب فيه من القصد والاعتدال في النفقات والصدقات ، وقد ذكرنا بعض الآيات والاحاديث في ذلك في تفسير قوله تعالى أول سورة النساء (٤ : ٤ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) [١]

﴿ قل من حرم زينـة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ ﴾

حرمت العرب في جاهليتها زينة اللباس في الطواف تعبدا وقربة ، وحرم بعضهم أكل بعض الطيبات من الادهان وغيرها في حال الاحرام بالحج كذلك وحرموا من الحرث والانعام ، ما بينه تعالى في سورة الانعام . وحرم غيرهم

(١) راجع ص ٣٨١ ج ٤ تفسير

من الوثنيين وأهل الكتاب كثيرا من الطيبات والزينة كذلك ، فجاء دين الفطرة الجامع بين مصالح البشر في معاشهم ومعادهم ، المطهر لارواحهم وأجسادهم — ينكر هذا التحكم والظلم للنفس، فالاستفهام في قوله تعالى (قل من حرم) الخ إنكاري يدل على أنه من وساوس الشياطين ، لا مما أوحاه تعالى الى من سبق من المرسلين ،أي لم يحرمه احد منهم،ولم يجعل سبحانه حق التبليغ عنه لغيرهم. واضافة الزينة الى الله تعالى يؤذن باستحسانها والمنة بها ، وإخراجها للناس عبارة عن خلق موادها وتعليمهم طرائق صنعها ، بما أودع في فطرهم من حبها ، وفي عقولهم من الاستعداد للابداع فيها، ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، واكثر للمنعم شكرا ، وأوسعهم بسننه وآياته علما ، والطيبات من الرزق هي المستلذات من الاطعمة والاشربة ، واشتراط كونها حلالا يؤخذ هنا من النهي عن الاسراف فيها ، وصرح به في آيات أخرى كما تقدم في سورتي البقرة (٢ : ١٦٧) والمائدة (٥ : ٩٠ و ٩١)

خلق الله تعالى البشر مستعدين لاظهار آياته وسننه في جميع ما خلقه لهم في هذا العالم الذي يعيشون فيه. ذلك بأنه أودع في غرائزهم ميلا الى العلم والبحث واكتشاف المجهولات ، والاطلاع على الخفيات ، لا حد له يقف عنده ، وحبا للشهوات الحسية والعقلية ، والزينة الصورية والمعنوية ، لا حد له أيضا ، فاندفعوا بهذه الغرائز التي لم تخلق لغيرهم ممن يشاركهم في حياتهم الجسدية كانواع الحيوان، ولا في حياتهم الروحية من الملائكة والجان ، فلم يدعوا شيئا عرفوه بحواسهم الا وعنوا بالبحث فيه، ولا شيئا عرفوه بعقولهم الا وبحثوا عنه ، ولم يكن بحثهم من طريق واحد ولا لغرض واحد ، بل من طرق كثيرة لاغراض شتى، لم تنته ولن تنتهي في هذه الحياة المقضي عليها بالنهاية ، وإنما هم مخلوقون لحياة لا نهاية لها ولا حد، كما تدل عليه غرائزهم واستعدادهم الذي ليس له حد

ولقد كانت غريزة حب الزينة وغريزة حب الطيبات من الرزق سببا لتوسع البشر في اعمال الفلاحة والزراعة، وما رقيها من فنون الصناعة وسائر وسائل العمران واظهار عجائب علم الله وحكمته وقدرته في العالم ، ورحمته واحسانه بالخلق، ولو وقف الانسان عند حد ما تنبت له الارض من الغذاء لحفظ حياة أفراده الشخصية وبقاء حياته النوعية كسائر أنواع الحيوان، لما وجد شيء من هذه العلوم والفنون والاعمال، وهل كان ما ذكر في بيان خلقه الاول من أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهيا

عنها الا بدافع غريزة اكتشاف المجهول، والحرص على الوصول الى الممنوع؟ وهل كان ما ذكر من حرمانهما من الراحة بنعيم الجنة التي يعيشان فيها رغدا بغير عمل، الا لبيان سنة الله في جعل هذا النوع عالما صناعيا تدفعه الحاجة الى العمل، ويدفعه العمل الى العلم، ويدعّه حب الراحة الى التعب، ويثمر له التعب الراحة ؟

وقد عرف من اختبار قبائل هذا النوع وشعوبه في حالي بداوته وحضارته أنه يتعب ويبذل في سبيل الزينة، فوق ما يتعب ويبذل في سبيل ضروريات المعيشة، وكثيراً ما يفضلها عليها عند التعارض، فالمرء قد يضيق على نفسه في طعامه وشرابه ليوفر لنفسه ثمنا لثوب فاخر يتزين به في الاعياد والمجامع، وماذا تقول في المرأة وهي أشد حبا للزينة من الرجل، وقد تؤثرها على جميع اللذات الاخرى؟ وان توسع الاغنياء في أنواع الزينة التي ينفسون بها على الفقراء هو الذي وسع الطرق لاستفادة هؤلاء من فضل أموال أولئك، فان الغواصين الذين يستخرجون اللؤلؤ من أعماق البحار، وعمال الصياغة والحياكة والتطريز والبناء والنقش والتصوير وسائر الزينات، كلهم أو جلهم من الفقراء الذين يتزين الاغنياء بما يعملون لهم وهم منه محرومون ؛ ولكنهم لا يصلون الى مالابد لهم منه من معيشة وزينة تليق بهم الا بسبب تنافس الاغنياء فيه

فحب الزينة أعظم أسباب العمران، واظهار استعداد الانسان، لمعرفة سنن الله وآياته في الاكوان، فهي غير مذمومة في نفسها، وانما يذم الاسراف فيها، والغفلة عن شكر المنعم بها ؛ ومن الاسراف فيها جعلها شاغلة عن عبادة الله تعالى وعن سائر معالي الامور والكمالات الانسانية، من علمية أو عملية أو اجتماعية، دنيوية كانت أو أخروية، ومنه اضاعة الوقت الطويل في التطرز والتطرس والتورن كما يفعل النساء وبعض الشبان. وكذلك الطيبات من الرزق. وهذه الامور المذمومة ليست لوازم للزينة والطيبات تحصل بحصولها، وتزول بزوالها، وليس الحرمان من الزينة والطيبات علة سببية ولا غائية، للقيام بمعالي الامور الدينية والدنيوية، ولا لشكر الله تعالى والرضا منه، ولا هو أعون على ذلك. وانما الابتلاء والاختبار يقع بكل من حصولها والحرمان منهما، وإن المالك لها أقدر على طاعة الله وشكره وتزكية نفسه ونفع غيره من الفاقد لها، فلا وجه اذاً لتحريم الدين لها، ولا لجعله إياهما عائقين عن الكمال بحيث يعبد الله تعالى ويتقرب اليه بتركهما، كما جرى عليه وثنيو البراهمة وغيرهم، وسرت عدواه التقليدية

من المسلمين، فصاروا يبثون في الامة أن أصل الدين وروحه وسره في تعذيب النفس وحرمانها من الطيبات والزينة . وقد كذب الله الجميع بقوله عز وجل ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي قل أيها الرسول لامتك: هي — أي الزينة والطيبات من الرزق — ثابتة للذين آمنوا بالاصالة والاستحقاق في الحياة الدنيا ، ولكن يشاركهم غيرهم فيها بالتبع لهم ، وان لم يستحقها مثلهم ، وهي خالصة لهم يوم القيامة — أو حال كونها خالصة لهم يوم القيامة ، (فقد قرأ نافع « خالصة » بالرفع على أنها خبر والباقون بالنصب على الحالية) — وقيل: ان المعنى هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصة من المنغصات ولكنها تكون لهم يوم القيامة خالصة منها. وهذا المعنى صحيح في نفسه، ولكن المتبادر هو الاول، كما تدل عليه الآيات الناطقة بأن دين الله الحق يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة جميعا كقوله تعالى (فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وقوله تعالى (وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا) وقد بينا هذا المعنى مراراً

وبيان هذا أن المؤمنين انما كانوا أحق من الكافرين بهذه النعم لانهم أجدر بما تتوقف عليه في ترقيها من العلوم والفنون والصناعات التي أرشدهم اليها الدين بما حثهم عليه من معرفة سنن الله تعالى في خلقه، وما أودعه في هذه المخلوقات من الحكم والمنافع والآيات البينات الدالة على قدرته وعلمه وحكمته فيما أحكم من صنعها ، وعلى رحمته وجوده واحسانه الى عباده بتسخيرها لهم، ولانهم أحق بشكره عليها بلسانهم وجوارحهم وقلوبهم . فالمؤمن يزداد علما وإيمانا بربه والهه كلما اكتشف شيئا من سننه وآياته في نفسه أو في غيرها من الموجودات، ويزداد شكرا له كلما زادت نعمه عليه بالعلم وثمرات العلم فيها، ولذلك ذكرنا جل ثناؤه في أول هذا السياق بمنته علينا بتمكيننا في الارض وما جعل لنا فيها من المعايش وبما يجب من شكره عليها ، وقد بينا أن من أصول الشكر قبول النعمة واستعمالها فيما وهبها المنعم لاجله وهو شكر الجوارح، ولا يكمل شكر الاعتقاد بانها من فضله وشكر اللسان بالثناء عليه الا بشكر الاعضاء العملي وهو الاستعمال . وفي حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي والنسائي والحاكم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وهو حديث صحيح .

والذي يظهر لنا من جعل التنظير فيه بين الطاعم الشاكر والصائم الصابر دون الجائع الصابر أن الجوع أمر سلبي ولكن الصيام عمل نفسي يشترط فيه النية فهو طاعة كالاكل بالنية مع الشكر

والاكل والشرب من الطيبات بدون اسراف هما قوام الحياة والصحة التي يتوقف عليها القيام بجميع الاعمال الدينية والدنيوية، من عقلية وبدنية ، ولهما التأثير العظيم في جودة النسل الذي تكثر به الامة ، والاطباء يحظرون الزواج على كثير من المرضى ويعدون زواجهم خطرا على صحتهم ، وجناية على نسلهم وعلى أمتهم ، بما يكون سببا لسوء حال نسلها ، والمؤمن الكامل الذي من شأنه أن لا يعمل عملا الا بنية صالحة يقصد بحسن تغذية بدنه بالطيبات كل ما يعقله من فوائدها ، ويتجنب ما نهى الله عنه من الاسراف فيها ومن أكل الحرام ؛ فيكون عابداً لله تعالى في ذلك كله فتكثر حسناته فيه ، فلا غرو اذا جعل في أكله كالصائم فيما يناله من الثواب ، ولما قال النبي (ص) لاصحابه « وفي بضع احدكم صدقة » اي في الملامسة الزوجية اجر وثواب كثواب الصدقة — قالوا يارسول الله: أيأتي احدنا شهوته ويكون له فيها اجر؟ قال «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك اذا وضعها في الحلال كان له اجر» — رواه مسلم من حديث أبي ذر — والكافر ليس كذلك فانه لا يكون له همّ في الغالب الا التمتع بالشهوة ، غير متحر للحلال ولا لحسن النية ، ولذلك ورد في حديث الصحيحين «المؤمن يأكل في معًى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»

واللباس الجيد النظيف له فوائد في حفظ الصحة معروفة ، وله تأثير في حفظ كرامة المتجمل به في أنفس الناس ، فان القلوب من وراء الاعين ، وفيه اظهار لنعمة الله به وبالسعة في الرزق ، الذي له شأن في القلوب غير شأن التجمل في نفسه ، والمؤمن يثاب بنيته على كل ماهو محمود من هذه الامور وبالشكر عليها . روى أبو داود عن أبي الاحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله (ص) في ثوب دون ، فقال « ألك مال ؟ قال نعم . قال — من أي المال ؟ قال قد آتاني الله من الابل والغنم والخيل والرقيق — قال « فاذا آتاك الله فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته » وأخرج الترمذي وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله (ص) « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال . لما خرجت الحرورية أتيت عليا فقال :

ائت هؤلاء القوم. فلبست أحسن ما يكون من حلل اليمن، فأتيتهم، فقالوا مرحبا بك يا ابن عباس ما هذه الحلة؟ قلت ما تعيبون عليّ؟ لقد رأيت على رسول الله (ص) أحسن ما يكون من الحلل. وأخرج ابن مردويه عنه قال: وجهني علي بن أبي طالب الى ابن الكوّاء واصحابه وعلي قميص رقيق وحلة، فقالوا لي انت ابن عباس وتلبس مثل هذه الثياب؟ قلت اول ما اخاصمكم به قال الله (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده — وخذوا زينتكم عند كل مسجد) وكان رسول الله (ص) يلبس في العيدين بردي حبره.

وحكى الغزالي في كتاب العلم من الاحياء ان يحيى بن يزيد النوفلي كتب الى مالك بن أنس رضي الله عنهما — بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الاولين والآخرين. من يحيى بن يزيد بن عبد الملك الى مالك بن أنس أما بعد فقد بلغني انك تلبس الدقاق، وتأكل الرقاق[1]، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجبا. وقد جلست مجالس العلم وقد ضربت اليك المطي وارتحل اليك الناس واتخذوك اماما ورضوا بقولك، فاتق الله تعالى يامالك. وعليك بالتواضع، كتبت اليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام. فكتب اليه مالك — بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم من مالك بن أنس الى يحيى بن يزيد. سلام الله عليك. أما بعد فقد وصل الي كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة. والادب أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرا واسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. فأما ماذكرت لي اني آكل الرقاق، وألبس الدقاق، واحتجب وأجلس على الوطيء فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) واني لاعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام اه

اذا صحت هذه الحكاية فمراد الامام مالك أن تركه مجموع ذلك خير لمن صار يقتدى به مثله، اوقاله تواضعا، ولذلك لم يتركه، ولم يكن النوفلي من طبقة مالك في علم ولا عمل، بل ضعفه الامام أحمد وغيره في الحديث، وقد كان

(١) الدقاق الثياب الدقيقة النسج وهي ضد الغلاظ ويجوز أن يكون الرقاق بكسر الراء وقوله وتأكل الرقاق هو بضم الراء الخبز المنبسط المرقق يتخذ من لب الحنطة وكان أجود الخبز

قشف بعض السلف عن قلة ، وتقشف بعضهم لاجل القدوة ، وإنما الزهد في القلب ، فلاينافيه الاعتدال في الزينة وطيبات الاكل والشرب، ولا كثرة المال، اذا أنفق في مصالح الامة وتربية العيال ، وقد جهل ذلك اكثر الصوفية وبينه أحد أركان التحقيق في العلم منهم كالسيد عبد القادر الجيلي، فقد روي أن بعض مريديه شكوا اليه اقبال الدنيا عليهم فقال : أخرجوها من قلوبكم الى أيديكم فانها لا تضركم

فقد علمنا من هذا كله أن الزينة والطيبات من الرزق هي حق المؤمنين في الدنيا وانها لهم بالذات والاستحقاق — وهو مبني على أنه يجب أن يكونوا بمقتضى الايمان والاسلام أعلم من الكافرين بالعلوم والفنون والصناعات الموصلة اليها، وأن يكونوا من الشاكرين عليها ذلك الشكر الذي يحفظها لهم ويكون سببا للمزيد فيها، بحسب وعد الله تعالى وسننه في خلقه . ومنه تفهم حكمة تذييل الآية بقوله تعالى ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ وقد سبق مثل هذا التعبير والمعنى ان هذا التفصيل لحكم الزينة والطيبات الذي ضل فيه أفراد وأمم كثيرة من البشر افراطا وتفريطا لا يعقله الا القوم الذين يعلمون سنن الاجتماع وطبائع البشر ومصالحهم وطرق الحضارة الشريفة فيهم ، وقد فصله تعالى بهذه الآيات الموافق هديها لفطرة الله التي فطر الناس عليها ، على لسان نبيه الامي الذي لم يكن يعرف شيئا من تاريخ البشر في بداوتهم وحضارتهم وافراطهم وتفريطهم فيهما، قبل أن أنزل الله تعالى عليه كتابه الحكيم تبيانا لكل شيء يحتاجون اليه في سعادتهم ، فكان هذا التفصيل من الآيات العلمية على نبوته (ص) لانه خلاصة علوم كثيرة فاصلة بين النافع والضار ، ما كان لمثله ان يعلمها بذكائه، وانما هي وحي الله له ، وقد قصر المفسرون في بيان هذه الحقائق ، على أن بعض المحققين قد ذكروا ما يؤيد ماقلناه وان لم يحتج الى تأييدهم لوضوحه في نفسه، فقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أن المسلمين أعلم من جميع الكافرين بكل العلوم البشرية وأن أهل السنة منهم أعلم من المبتدعة بذلك

نعم هكذا كان فلولا القرآن لما خرجت العرب من ظلمات جاهليتها وبداوتها ووثنيتها الى ذلك النور الذي صلحت به وأصلحت أمما كثيرة بالدين والعلوم والفنون والآداب بما أحيت من علوم الاوائل وفنونها وأصلحت من فاسدها فصدق عليهم تعريف الدين المشهور بأنه وضع الهي سائق لذوي العقول السليمة

باختيارهم الى ما فيه نجاحهم في الحال ، وفلاحهم في المآل ، أو الى سعادة الدارين . ولقد كان من العجب أن يغفل الكثيرون عن سبب هذه الحضارة أو يجهلوا أنه القرآن، حتى كان الجهل لسببها ، سببا لاضاعته و إضاعتها، وأمسى المسلمون من أجهل الشعوب وأفقرهم وأضعفهم، وأقلهم خدمة لدينهم — فغاية دينهم أن تكون لهم زينة الدنيا وطيباتها، وسيادتها وملكها ، وأن يكونوا فيها شاكرين لله عليها، قائمين بما يرضيه من الحق والعدل، والخير والبر، وكل ما تقتضيه خلافته في الارض، وبذلك يكونون أهلا لسعادة الدنيا والآخرة. والدنيا مزرعة الآخرة كما قال أحد حكماء دينهم، ثم انتهى هذا الجهل بالكثيرين من أهل هذا العصر منهم ومن غيرهم ان صاروا يظنون أن دين الاسلام هو سبب ضعف المسلمين وجهلهم وذهاب ملكهم ؟ وقد بينا من قبل بطلان هذا الجهل الذي قلب الحقيقة قلبا . وحجتنا كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) وتاريخ هذه الامة. ولكن القارئين قليلون، والذين يفهمون منهم اقل ، والذين يعتبرون بما يفهمون اندر . ولله الامر من قبل ومن بعد ؟

---

(٣٣) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

بعد ان أنكر التنزيل في الآية السابقة على المشركين وغيرهم من أهل الملل تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق — قفى عليه ببيان أصول المحرمات العامة، التي حرمها لضرر ثابت لازم لها لا لعلة عارضة، وكلها من أعمالهم الكسبية ، لا من مواهبه ونعمه الخلقية ، ليعلم أن له الحمد والشكر لم يحرم على الناس الا ما هو ضار بهم ، دون ما هو نافع لهم ، فقال

﴿ قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ هذا كلام مستأنف لبيان ماحرمه الله تعالى بعد إنكار أن يكون حرم الزينة والطيبات لان الحال تقتضي أن يسئل عنه . والمعنى قل أيها الرسول لهؤلاء

المشركين وغيرهم من أهل الملل الذين ظلموا أنفسهم وكذبوا على الله بزعمهم انه حرم على عباده ما أخرج لهم من نعم الزينة والطيبات من الرزق وكذا لمن اتبعك من المؤمنين : إنما حرم ربي في كتبه، على ألسنة رسله، هذه الانواع الخمس أو الست من أعمالهم الضارة التي يجنون بها على أنفسهم ، فجعل تحريمها هو الدائم الذي لايباح بحال من الاحوال كما يدل عليه الحصر بإنما وهي

١و٢ — الفواحش الظاهرة والباطنة — فالفواحش جمع فاحشة وهي الفعلة أو الخصلة التي فحش قبحها في الفطر السليمة والعقول الراجحة التي تميز بين الحسن والقبيح والضار والنافع وكانوا يطلقونها على الزنا واللواط والبخل الشديد وعلى القذف بالفحشاء والبذاء المتناهي في القبح ، وتقدم تفصيل القول في الفواحش ماظهر منها وما بطن في تفسير (٦ : ١٥١) وهي من آيات الوصايا العشر في أواخر سورة الانعام [1] وفيه احالة في تفسير ماظهر منها ومابطن على تفسير (١١٩ وذروا ظاهر الاثم وباطنه) من تلك السورة [2]

٣و٤ — الاثم والبغي ، تقدم ان الاثم في اللغة هو القبيح الضارّ فهو يشمل جميع المعاصي الكبائر منها كالفواحش والخمر والصغائر كالنظر واللمس بشهوة لغير الحليلة وهو اللمم ، ومنه قوله تعالى (٥٣ : ٣١ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم) فعطف الفواحش على كبائر الاثم لا على الاثم وهو من عطف الخاص على العام . وكذلك عطف البغي على الاثم هنا من عطف الخاص على العام . ومعناه في أصل اللغة طلب لما ليس بحق أو بسهل أو ماتجاوز الحد، وقالوا بغى الجرح — اذا ترامى الى الفساد، أو تجاوز الحد في فساده . ومنه البغي في الارض الوارد في عدة آيات كقوله (١٠ : ٢٣ فلما أنجاهم اذاهم يبغون في الارض بغير الحق) وقد صرح في بعضها بالفساد (٢٨ : ٧٧ ولا تبغ الفساد في الارض) واذا عدي البغي بعلى كان بمعنى التجاوز والتعدي على الناس في انفسهم او اموالهم او اعراضهم ومنه (٢٨ : ٧٦ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم — ٣٨ : ٢١ خصمان بغى بعضنا على بعض — ٤٩ : ٩ فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي) بل ذهب الراغب الى ان حقيقة البغي طلب تجاوز الاقتصاد في القدر أو الوصف سواء تجاوزه بالفعل أو لم يتجاوزه . وذكر انه قد يكون محموداً وهو تجاوز العدل الى الاحسان والفرض الى التطوع . واستعمال القرآن له في المعنيين

« ١ » ص ١٨٧ ج ٨ تفسير « ٢ » ص ٢١ ج ٨ تفسير

الذين ذكرناهما آنفاً وفي غيرهما يؤيد تعريفنا وهو أعم من هذا التعريف كقوله في البحرين (بينهما برزخ لا يبغيان) وقوله في أهل الجنة (لا يبغون عنها حولا) وقوله (أفغير دين الله يبغون * أفحكم الجاهلية يبغون * قل أغير الله أبغي ربا * يبغونكم الفتنة * ويبغونها عوجا) ومنه البغاء وهو طلب النساء الفاحشة. وقد يتعدى الى مفعولين ومنه (أغير الله أبغيكم إلهاً — قل أغير الله أبغي ربا) وقال في الاساس : وابغني ضالتي — اطلبها لي ، وأبغني ضالتي — أعني على طلبها . قال رؤبة : * فاذكر بخير وابغني مايبتغى * أي اصنع بي ما يحب أن يصنع ، وخرجوا بغياناً لضوالهم اه وكله يدخل في تعريفنا فان طلب الضالة التي خرجت من حيازة المالك طلب لما يعتبر بل ناشدها يطلب ماليس له بالفعل، ورؤبة يطلب إحساناً وكرامة ليست حقاً له

فعلم من هذا أن البغي المحرم هو الاثم الذي فيه تجاوز لحدود الحق أو اعتداء على حقوق أفراد الناس أو جماعاتهم وشعوبهم ولذلك اقترن الاثم بالعدوان كقوله (تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان — ولا تعاونوا على الاثم والعدوان — ترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان) ومنه (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) أي فمن اضطر الى شيء من محرمات الطعام غير طالب لها لذاتها فانه تجاوز للحق — ولا عاد حد الضرورة فيما يتناوله منها (فلا اثم عليه)

وقد قيد البغي بكونه بغير الحق لاستعماله بالمعنى اللغوي الذي يشمل تجاوز الحدود المعروفة أو المألوفة فيما لا ظلم فيه ولا فساد ، ولا هضم لحقوق الجماعات ولا الافراد ، كالأمور التي ليس لهم فيها حقوق ، أو التي تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبذلونها عن رضى وارتياح لمنفعة أو مصلحة لهم يرجونها ببذلها ، وقيل ان القيد للتأكيد

وقال ابن القيم : ان الاثم ما كان محرم الجنس، والعدوان ما كان محرم القدر والزيادة، فهو تعدي ما أبيح الى القدر المحرم كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه بأخذ زيادة عماله ، وباتلاف اضعاف ما أتلف عليه أو قول اضعاف ماقيل فيه ، فهذا كله تعد للعدل . قال : وكذلك ما أبيح له قدر معين منه فتعداه الى أكثر منه كمن أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر فتناول الكأس كلها ، أو أبيح له نظرة الخطبة والسوم والمعاملة والمداواة ، فأطلق عنان طرفه في ميادين محاسن المنظور ، وأسام طرف ناظره في تلك الرياض والزهور ، فتعدى

المباح الى القدر المحظور ، الخ ما أطال به في وصف نظر الشهوة ومفاسده

ثم قال إن الغالب في استعمال البغي ان يكون في حقوق العباد والاستطالة عليهم ، وانه اذا قرن بالعدوان كان البغي ظلمهم بمحرم الجنس كالسرقة والكذب والبهت والابتداء بالاذى — والعدوان تعدي الحق في استيفائه الى اكبر منه ، فيكون البغي والعدوان في حقهم كالاثم والعدوان في حدود الله (قال) فههنا أربعة أمور : حق لله وله حد ، وحق لعباده وله حد ، فالبغي والعدوان والظلم تجاوز الحدين الى ماوراءهما ، أو التقصير عنهما فلا يصل اليهما اه

٥ — الشرك بالله وهو معروف وقد بينا أنواعه في مواضع من هذا التفسير ، ومن المعلوم بالضرورة انه أبطل الباطل فلا يمكن أن يقوم عليه حجة من العقل ، ولا سلطان من الوحي ، والسلطان الحجة البينة لان لها سلطة على العقل والقلب ، فقوله تعالى (وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) بيان للواقع من شركهم ، وتكذيب لهم في مضمون قولهم (٦:١٤٨ لوشاء الله ماأشركنا) الآية[1] ونص على أن أصول الايمان ، يجب أن تكون بوحي من الله مؤيد بالبرهان ، فهو كقوله تعالى (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به) الآية ، ولا يكون الا كذلك . ولكنه تعالى عظم شأن الدليل والبرهان في دينه ، وناط به تصديق دعوى المدعي وردها ، بصرف النظر عن موضوعها ، حتى كأن من جاء بالبرهان على الشرك يصدق به ، وهو من فرض المحال ، المبالغة في فضل الاستدلال ، وقد قال في سياق إقامة البراهين على توحيده (٢٧ : ٦٥ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) على انه صرح بأنه ليس لديهم برهان ، فيما أقام على كذبهم فيه البرهان ، وكيف يكون لديهم ماهو في نفسه محال ، كقوله (١٠ : ٦٨ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له مافي السموات وما في الارض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لاتعلمون ؟) وان هنا نافية اي ما عندكم ادنى دليل بهذا القول العظيم الذي تقولونه مع انه لتكذب البراهين والآيات البينة مثله يحتاج مدعيه الى اقوى البراهين والحجج واعظمها سلطانا على العقول ، ولما كان منهم من قد يعترف بأنه قول لا تقوم عليه حجة من العقل بل لا يتصور العقل وجوده ولكنه يدعي أنه ورد به النقل عن الانبياء وان المسيح ادعاه لنفسه قال (أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟) وهذه الآية تناسب الآية التي تفسرها

[1] ص ١٧٦ ج ٨ تفسير

٦ — القول على الله بغير علم ، وهو أعظم هذه الانواع من أصول المحرمات الذاتية التي حرمها الله تعالى في دينه على ألسنة جميع رسله ؛ فانها أصل الأديان الباطلة ، ومنشأ تحريف الأديان المحرفة ، وشبهة الابتداع في الدين الحق المصحح كتابه المعصوم للاديان المبدلة ، والمهيمن على الكتب المحرفة ، المحررة سنة رسوله بالاسانيد المتصلة ، المحصاة تراجم رواتها في الكتب المدونة ، فمن العجائب بعد هذا أن ينتشر في أهله الابتداع ، وتتعارض فيه المذاهب وتتعادى الاشياع ، مع نهي الكتاب عن التفرق والاختلاف ، ووعيد المتفرقين بعذاب الدنيا وعذاب النار ، ومع بيانه للمخرج من فتنة التنازع ، ومعالجته لادواء التدابر والتقاطع ، ولكنهم حكموا الاهواء ، حتى في العلاج والدواء ، فاتبعوا كما انبأ الرسول (ص) سنن من قبلهم ، حتى في قوله تعالى (وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم)

ومن غمة الجهل أن اكثر المسلمين لا يشعرون بهذا حتى علماؤهم الذين يروون حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » قلنا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال « فمن؟ » رواه الشيخان وغيرهما ، وفي رواية شبرا شبرا وذراعا ذراعا . فهم يقولون : صدق رسول الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولا يبحثون في أسباب هذا الابتداع ، ولا يتأملون في أقوال من بحث فيها قبلهم من العلماء ، فقد نقل الحافظ ابن عبد البر في كتاب العلم وغيره من الحفاظ عن بعض علماء الصحابة والتابعين أن رأس البلية في هذا الابتداع القول في الدين بالرأي ، وهذا هو الحق ، فما من أحد يبتدع أو يتبع مبتدعا في أصول الدين او فروعه الا وهو يستدل على بدعته بالرأي ، وقد ظهرت مباديء هذه البدع والآراء والاهواء في القرون الاولى قرون العلم والسنة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم يكن هذا كله بمانع لها اذ كان من من الافراد ، لا من مصدر القوة والنظام ، الذي هو مقام الخلافة الاسلامية ، فكيف يكون الامر بعد ذلك وقد زال العلم او كاد ، اذ لا علم الا علم الاستقلال والاجتهاد ، وقد صار محصورا في أفراد لا يعرف قدرهم العوام ، ولا يتبعهم الحكام ، ثم فشا النفاق والدهان ، وصار طلب العلم الديني حرفة للكسالى والرذال ، روى ابن أبي خيثمة من حديث أنس : قيل يارسول متى يترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال : « اذا ظهر فيكم ما ظهر في بني اسرائيل —

اذا ظهر الامراء ان في خياركم ، والفحش في شراركم ، والملك في صغاركم ، والفقه في رذالكم » أورده الحافظ وأقره ، ثم قال وفي مصنف قاسم بن أصبغ بسند صحيح عن عمر : فساد الدين اذا جاء العلم من قبل الصغير ، استعصى عليه الكبير ، وصلاح الناس اذا جاء العلم من قبل الكبير ، تابعه عليه الصغير . (قال) وذكر أبو عبيد أن المراد بالصغر في هذا صغر القدر لا السن اهـ وصغير القدر هو المهين الذي ليس له من العقل والفضيلة وعزة النفس ما يحترم به ويتخذ قدوة ، كما هو شأن اكثر المسترزقة بطلب العلوم الشرعية ، ومنه يعلم أن الكبير هو الكبير بعقله وفضله ، لا بنسبه وماله ، (١)

حرم الله تعالى على عباده ان يقولوا عليه شيئا بغير علم ، والرأي والظن ليس من العلم ، قال تعالى في غير المؤمنين (٥٣ : ٢٨ وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا) وما شرع من اجتهاد الرأي في حديث معاذ وغيره فهو خاص بالقضاء لانه نص فيه ويتوقف عليه ومثله سائر الاحكام الدنيوية ، من سياسية وادارية ، لا في اصول دين الله وعبادته وما حرم على عباده تحريما دينيا فان الله اكمل دينه فلم يترك فيه نقصا يكمله غيره بظنه ورأيه ، بعد وفاة رسوله ، وليس لحاكم ولا مفت ان يسند رأيه الاجتهادي الى الله تعالى فيقول هذا حكم الله وهذا دينه ، بل يقول هذا مبلغ اجتهادي فان كان صوابا فمن توفيق الله تعالى و إلهامه وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان كما روي عن بعض أئمة سلفنا الصالحين . ومن تأمل هذه الآية حق التأمل فانه يجتنب ان يحرم على عباد الله شيئا أو يوجب عليهم شيئا في دينهم بغير نص صريح عن الله ورسوله بل يجتنب ايضا ان يقول هذا مندوب أو مكروه في الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما اكثر الغافلين عن هذا المتجرئين على التشريع ، وقد بينا مرارا في هذا التفسير ان هذا حق الله وحده ، ومن تهجم عليه فقد جعل نفسه شريكا له ، ومن تبعه فيه فقد اتخذه ربا له ، وقد كان علماء الصحابة والتابعين يتحامون القول في الدين بالرأي ويتدافعون الفتوى حتى في موضع الاجتهاد ، وإنما كان ائمة الامصار يقصدون بالتوسع في الاستنباط فتح ابواب الفهم لا التشريع الذي ألصق بهم ، حتى اذا قال احدهم اكره كذا من باب

(١) كالاستاذ الامام رحمه الله تعالى فقد كان امير البلاد يهابه حتى قال مرة انه يدخل علي كأنه فرعون ! فذكر ذلك للاستاذ فقال انما فرعون صاحب ملك مصر وهو وانما انا من رعيته .

الورع والاحتياط جعل اتباعه من بعده قوله من الكراهة الشرعية التي فسروها بأنها خطاب الله المقتضي للترك اقتضاءاً غير جازم وعلى ذلك فقس . وللمحقق ابن القيم تفصيل حسن لهذه المسألة وتفسير للآية في كتابه مدارج السالكين هذا نصه

« وأما القول على الله بلا علم فهو اشد هذه المحرمات تحريما واعظمها إثما: ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي عليها الشرائع والاديان ، ولا تباح بحال . بل لا تكون الا محرمة ، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حال دون حال ، فان المحرمات نوعان : محرم لذاته لا يباح بحال ، ومحرم تحريمه عارض في وقت دون وقت . قال الله تعالى في المحرم لذاته (قل : إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ثم انتقل منه الى ما هو أعظم منه فقال (والاثم والبغي بغير الحق) ثم انتقل منه الى ما هو أعظم منه فقال (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) ثم انتقل منه الى ماهو اعظم منه فقال(وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً ، فانه يتضمن الكذب على الله ونسبته الى ما لا يليق به ، وتغيير دينه وتبديله ، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما أحقه ، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله ، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثماً ، وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه اسست البدع والضلالات . فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم

« ولهذا اشتد نكير السلف والائمة لها ، وصاحوا بأهلها من أقطار الارض وحذروا فتنتهم أشد التحذير ، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان ، اذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد .

وقد أنكر تعالى على من نسب الى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) الآية . فكيف بمن نسب الى أوصافه ما لم يصف به نفسه ؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه ؟ قال بعض السلف : ليحذر أحدكم أن يقول أحل الله كذا وحرم الله كذا ، فيقول الله : كذبت لم أحل هذا ولم أحرم هذا . يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد بلا برهان من الله ورسوله

« وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم ، فان المشرك يزعم أن

من اتخذه معبوداً من دون الله ، يقربه الى الله ويشفع له عنده ، ويقضي حاجته بواسطته ، كما تكون الوسائط عند الملوك . فكل مشرك قائل على الله بلا علم، دون العكس ، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله ، فهو أعم من الشرك ، والشرك فرد من أفراده . ولهذا كان الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم موجبا لدخول النار ، واتخاذ منزلة منها مبوّءه ، وهو المنزل اللازم الذي لا يفارقه صاحبه ، لانه متضمن للقول على الله بلا علم كصريح الكذب عليه ، لان ما اضاف الى الرسول فهو مضاف الى المرسل ، والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟) فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه الا بالتوبة من البدع ، وأنّى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة ، أو يظنها سنة ، فهو يدعو اليها ، ويحض عليها ؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها ، الا بتضلعه من السنة وكثرة اطلاعه عليها ، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها ، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً . فان السنة بالذات تمحق البدعة ولا تقوم لها ، واذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة ، وازالت ظلمة كل ضلالة ، اذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس ، ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ، ويعينه على الخروج من ظلمتها الى نور السنة ؛ الا تجريد المتابعة ، والهجرة بقلبه كل وقت الى الله ، بالاستعانة والاخلاص وصدق اللجأ الى الله ، والهجرة الى رسوله ، بالحرص على الوصول الى أقواله واعماله وهديه وسنته « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله » ومن هاجر الى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة والله المستعان . » اه

---

(٣٤) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ

هذه الآية الثالثة مما قفي به على النداء الثالث لبني آدم ووجه وصلها بما قبلها أنه تعالى قد بين في الثانية مجامع المحرمات على بني آدم وهي أصول المفاسد والمضار الشخصية والاجتماعية في إثر إباحة أصول المنافع من الزينة والطيبات

النافعة لهم أو ايجابها بشرط عدم الاسراف فيها — وسبق هذه وتلك ما قفي به على النداء الثاني من بيان أصل الاصول لما أمر الله تعالى به عباده على ألسنة رسله وهو القسط والعدل في الآداب والاعمال، وعبادة الله وحده بالاخلاص له في الدين، وعقيدة البعث — ولما وصل ما هنالك بقسم الناس الى فريقين مهتدين وضالين — وصل ماهنا ببيان عاقبة الامم في قبول هذه الاصول أوردها، والاستقامة على طريقتها بعد القبول أو الزيغ عنها. فقال عز وجل

﴿ ولكل أمة أجل ﴾ هذا معطوف على مقول القول في الآية السابقة أي قل أيها الرسول (إنما حرم ربي الفواحش) الخ دون ما حرمتم من النعم والمنافع بأهوائكم وجهالاتكم — وقل « لكل أمة أجل » أي أمد مضروب لحياتها، مقدر فيما وضع الخالق سبحانه من السنن لوجودها، وهو على نوعين أحدهما أجل من يبعث الله فيهم رسلا لهداية تهم فيردون دعوتهم كبرا وعنادا في الجحود، ويقترحون عليهم الآيات فيعطونها مع إنذارهم بالهلاك اذا لم يؤمنوا بها، فيكذبون فيهلكون، وبهذا هلك أقوام نوح وعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط وغيرهم. وهذا النوع من الهلاك كان خاصا بأقوام الرسل أولي الدعوة الخاصة لاقوامهم. وقد انتهى ببعثة صاحب الدعوة العامة خاتم النبيين، المخاطب بقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لكن انتهاءه عند الله لا يمنع جعله انذارا لقومه خاصة بهلاكهم، ان أعطوا ما اقترحوه من الآيات ارضاء لعنادهم، ليعلم أهل البصيرة بعد ذلك ان منعهم اياه انما كان رحمة بهم وبغيرهم

وقد مضت سنة الله في الامم ان الجاحدين الذين يقترحون الآيات لا يؤمنون بها، ولاجل هذا لم يعط الله تعالى رسوله شيئا مما كانوا يقترحونه عليه منها، كما تقدم بيانه في سورة الانعام وتفسيرها، وهذا الاجل لم يكن يعلمه أحد، الا بعد ان يبينه تعالى على ألسنة الرسل

والنوع الثاني الاجل المقدر لحياة الامم سعيدة عزيزة بالاستقلال، التي تنتهي بالشقاء والمهانة أو الاستعباد والاستذلال، ان لم تنته بالفناء والزوال، وهذا النوع منوط بسنن الله تعالى في الاجتماع البشري والعمران، وأسبابه محصورة في مخالفة هدي الآيات التي قبل هذه الآية، بالاسراف في الزينة والتمتع بالطيبات، وباقتراف الفواحش والآثام والبغي على الناس، وبخرافات

الشرك والوثنية التي ماأنزل بها من سلطان، وبالكذب على الله بارهاق الامة بمالم يشرعه لها من الاحكام ،تحكما من رؤساء الدين عن تقليد أواجتهاد. وذلك قوله تعالى (ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

فما من أمة من الامم العزيزة السعيدة ، ارتكبت هذه الضلالات والمفاسد المبيدة ، الا وسلبها الله سعادتها وعزها ، وسلط عليها من استذلها وسلب ملكها ، (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد) وأمامنا تاريخ اليهود والرومان والفرس والعرب والترك وغيرهم، منهم من سلب ملكه كله ، ومنهم من سلب بعضه أو أكثره ، ومن لم يرجع الى رشده ، فانه يسلب ما بقي له منه ،

وهـذا النوع من آجال الامم — وان عرفت أسبابه وسننه — لا يمكن لاحد ان يحدده بالسنين والايام ، وهو محدد في علم الله تعالى بالساعات ،

ولذلك قال ﴿ فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ الساعة في اللغة عبارة عن أقل مدة من الزمن ، والساعة الفلكية اصطلاح، وهي جزء من ١٢ جزءاً من مجموع الليل والنهار . أي فاذا جاء أجل كل أمة كان عقابهم فيه لا يتأخرون عنه اقل تأخر كما أنهم لا يتقدمون عنه اذا لم يجيء، أو لا يملكون طلب تأخيره كما انهم لا يملكون طلب تقديمه ، وقد قالوا ان استقدم ورد بمعنى قدم وأقدم وتقدم كما ورد استجاب بمعنى أجاب ، ومثله استأخر . ولا يمنع هذا كون الاصل في السين والتاء للطلب أو مظنة الطلب ، والطلب قد يكون بالقول وقد يكون بالفعل ، فمن أتى سبب الشيء كان طالبا له بالفعل ، وان كان غافلا عن استتباعه له ، فالامة التي ترتكب أسباب الهلاك تكون طالبة له ولا بد ان يأتيها ، لان هذا الطلب هو الذي لا يرد ، ومفهوم الشرط هنا ان الامة قد تملك طلب تأخير الهلاك قبل مجيء أجله أي قبل أن تغلبها على نفسها وعلى ارادتها أسباب الهلاك، ذلك بأن تترك الفواحش والآثام، والظلم والبغي، والفساد في الارض، والاسراف في الترف المفسد للاخلاق ، وخرافات الشرك المفسدة للعقول والاعمال، وكذا التكاليف التقليدية بتكثير ما ابتدع من العبادات والمحرمات ، التي لم يخاطب الرب بها العباد . والمراد ان يكون الغالب على الامة الصلاح لا صلاح جميع الافراد

فان قيل انه قد جاء معنى هذه الآية بالجزم، وغير مشروط بهذا الشرط، في قوله تعالى من سورة الحجر ، (٤:١٥) وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم (٥) ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) قلنا إن امتناع السبق والتأخر أو طلبه والسعي له هنا انما هو بالنسبة الى ماعلمه الله تعالى وأثبته في كتاب مقادير العالم ، فان علمه تعالى لا يتغير ، وسننه لا تتبدل ولا تتحول، ولذلك يمتنع التأخير أو طلبه من طريق أسبابه اذا جاء الاجل بالفعل ، ولهذا أمثلة كثيرة في الحس ، منها ما يمكن ضبطه بالتحديد ، ومنها ما يعلم بالتقريب؛ كقوة الحرارة وتأثيرها في الاجسام، وقوة المواد الضاغطة وما يترتب عليها من الانفجار ، كل منهما يضبط بحساب معلوم ، ومنها مقدار الماء الذي يمسك وراء السدود كخزان اسوان، فقوة السدّ ومقادير الماء وقوة ضغطه مقدرة بحساب . وكذا الماء والوقود الذي تسير به مراكب البر والبحر، والغاز المحرك للطيارات والمناطيد في الجوّ، يمكن العلم بما تحتاج اليه كل مسافة منه، والجزم بوقوف هذه المراكب بعد نفادها في الوقت المقدر لها، وكل عمل منظم بعلم صحيح ، يأتي فيه مثل هذا التقدير، ويكون ضبطه وتحديده بقدر احاطة العلم به، مثل درجات الحرارة والرطوبة وسنن الضغط والجذب ، كأن يكون جاذبية الثقل على نسبة مربع البعد، ومما يكون التقدير فيه بالتقريب، فيخطيء فيه المقدر ويصيب، تقدير سير الامراض المعروفة كالسلّ الرئوي فان له درجات يسرع قطع المسلول لها ويبطيء بقدر قوة المناعة والمقاومة في جسمه وطرق المعالجة والتغذية والرياضة وما يتعلق بها من جودة الهواء واشعة الشمس، وكم من مرض اتفق الاطباء على إمكان الشفاء منه قبل وصوله الى الدرجة التي لا تنفع معها المعالجة وهم مصيبون في ذلك ، كالسرطان الذي يمكن استئصاله بعملية جراحية في وقت قريب ويتعذر في آخر

وكذلك شأن الامم قد يبلغ فيها الفساد درجة تستعصي فيها معالجته على أطباء الاجتماع ، ولكنها اذا تنبهت قبل انتشار الفساد فيها ، وتبريحه بزعمائها ودهمائها ، فقد يمكن أن يظهر فيها من أفراد المصلحين أو جماعاتهم من ينقذها ، فيرشدها الى تغيير ما بأنفسها من الفساد فيغير الله مابها . وهو من استئخار الهلاك أو منعه عنها قبل مجيء أجلها .

وقد سبق حكيمنا العربي ابن خلدون الى الكلام في آجال الامم، وأعمار

الدول ، وبيان ما يعرض لها من الهرم ، وكونه اذا وقع لا يرتفع ، فأصاب في بعض قوله وأخطأ في بعض، ومما أخطأ فيه جعله عمر الدولة ثلاثة أجيال أي ١٢٠ سنة كالاجل الطبيعي للافراد على تقدير بعض متقدمي الاطباء. ولو قال : عمر الدولة ثلاثة أيام من أيام الله : طفولية ، وبلوغ أشد ورشد ، وشيخوخة وهرم . ولم يقدرها بالسنين لسدّد وقارب

فان قيل ان ما ذكرت من أسباب هلاك الامم بالظلم والفساد والانغماس في حمأة الرذائل والفسق قد بلغ من أمم أوربة مبلغاً عظيما فما بالها تزداد قوة وعزة وعظمة ، حتى صارت الامم المغلوبة على أمرها ، ولا سيما المستذلة لها ، تعتقد أن تقليدها في مدنيتها المادية وحرية الفسق المطلقة من كل قيد الا تعدي الفرد على حرية غيره هو الذي يجعلها عزيزة سعيدة مثلها

قلنا : إن تأثير الفسق والفساد في الامم يشبه تأثيره في الافراد ، ومثله ما ذكرنا آنفاً من اختلاف الابدان والامزجة في احتمال الامراض ، واختلاف وسائل المعيشة والعلاج ، فأطباء الابدان مجمعون على مضارّ السكر الكثيرة وكونها سبباً للامراض البدنية والعقلية المفضية الى الموت، وإننا نعلم أن تأثيرها في البدن القوي دون تأثيرها في البدن الضعيف ، وان القليل منها يبطيء تأثير ضرره عن تأثير الكثير، وان بعضها أضر من بعض، وأطباء الاجتماع مجمعون على أن الاسراف في الفسق والترف مفسد للامم ، وان الظلم والبغي بغير الحق ، والغلو في المطامع والعلو في الارض ، والتنازع على الاستعمار ، كل ذلك من أسباب الهلاك والدمار ، ولكن لدى هذه الدول كثيراً من القوى المعنوية والمادية، التي تقاوم بها سرعة تأثير هذه الادواء الاجتماعية ، كالادوية وطرق الوقاية التي تقاوم بها سرعة تأثير الامراض الجسدية ، والرياضة الشاقة التي يتقى بها اضعاف الترف للابدان . وأعظم هذه القوى الواقية النظام ومراعاة سنن الاجتماع في نفس الظلم ، وفي اخفائه عمن يضر الظالمين علمهم به ولو من أقوامهم، واتقان الوسائل والاسباب في إلباس ظلمهم لباس العدل ، وجعل باطلهم عين الحق ، وابراز إفسادهم في صورة الاصلاح ، وايجاد أنصار لهم عليه من المظلومين ، بل اقناع الكثيرين منهم، بأن سيادتهم عليهم خير لهم من سيادتهم لانفسهم ، وغير ذلك مما لا محل لشرحه هنا ، وما أحسن قول الشاعر المصري [1] في تفريقه بين ما كان من

(١) هو محمد حافظ بك ابراهيم

الظلم الوطني وما هو كائن من الظلم الاجنبي :

لقد كان هذا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى صار ظلما منظما

وقد قلت للاستاذ الامام مرة ما بال باطل هؤلاء الافرنج في شؤونهم السياسية والدينية ثابتا ناميا لا يدمغه الحق ؟ — أو ما هذا معناه — فقال انه ثابت بالتبع للنظام الذي هو أقوى الحق، أي فهو يزول اذا قذف عليه بحق مؤيد بنظام مثله أو خير منه

بيد ان هذا كله لا يمنع انتقام الله منهم ، وانما يجري على مقتضى سننه في تأخيره عنهم، فهو مثل من مثل استئخار العذاب بأسباب تأخير الاجل. وليس من أسباب منعه فانما منعه بالرجوع الى الحق والعدل والاعتدال، والصلاح والاصلاح. وان حكماءهم وعلماءهم يعلمون ذلك. وقد نقلنا بعض أقوالهم في المنار . ومنها قول بعضهم لنا في مدينة (جنيف — سويسرة) ان كثيرا من العقلاء يتوقعون قرب هلاك أوربة في حرب عاجلة شر من الحرب الاخيرة التي فقدت بها ألوف الالوف من قتلى المعارك ومثلهم ما بين قتيل مرض أو مخمصة، ومشوه أضحى عالة على الوطن. وانهم يرجحون أن لا يعدو هلاكها هذا الجيل. ومنها ما قاله أحد ضباط الانكليز في أثناء الحرب من حديث دار في عمر الامبراطورية البريطانية . وهو أنه قد دب اليها الفساد الذي ذهب بأمبراطورية الرومان . وانهم يقدرون أنها قد تعيش ثمانين عاما . وقد كنت منذ أيام أتحدث مع بعض أذكياء اليهود في مفاسد الفرنسيس وقلة نسلهم . فقلت له: انني أظن ان أجلهم لا يتجاوز هذا الجيل . فقال انهم يقدرون لانفسهم جيلين اثنين . وكل هذه التقديرات من الرجم بالغيب . وانما الامر الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل العلم أو الالمام بعلم الاجتماع وسنن العمران في الغرب ولا في الشرق. أن اسراف شعوب أوربة في الفسق، واصرار حكوماتها على سياسة الافراط في الطمع والمكر والتلبيس والتنازع على الاستعمار والعلو في الارض وتأييد الافراد من أصحاب المال، على الجماهير من العمال — كل ذلك من دود الفساد المفضي الى الهلاك . وليراجع من شاء ما دار بيني وبين ذلك السياسي السويسي [1] في هذا الموضوع من رحلتي الاوربية في المنار (ج ٨ م ٢٣)

---

(١) السويسي نسبة الى سويس وهي سويسره كما ينطقون بها

على ان الحرب الاخيرة قد ثلت عرش قياصرة الروس والنمسة ، ومزقت ممالكهما كل ممزق، كما مزقت سلطنة آل عثمان ، فجعلتها في خبر كان . وأسقطت عرش عاهل الالمان وعروش ملوك آخرين، وما بقي من الدول والامم في اوربة لم يتعظوا ولم يزدجروا ، ولكل امة اجل

فان قيل : اذا كان علماء الاجتماع والاخلاق وفلاسفة التاريخ من هؤلاء الاقوام يعلمون أنهم قد دب اليهم داء الامم الذي هلك به من قبلهم وينذرونهم ذلك فكيف لا يتعظون ولا يتوبون من ذنبهم ، ولا يثوبون الى رشدهم ؟

قلنا : إن أمرنا في ذلك أعجب من أمرهم ، فقد أنذرنا ربنا في كتابه مثل هذا في أمر دنيانا وآخرتنا جميعا ، ولكلام الله تعالى من السلطان على قلوب المؤمنين ، ماليس لكلام العلماء عند الماديين ، فمنا ومنهم من لا يسمع النذر، ومن لا يعقلها اذا سمعها (ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم) ومن يتمارون بها أو يتأولونها ، ومن تغرهم أنفسهم بأنهم يتقونها ، فتعدوهم أو يعدونها ، ومن يجهلون علاج العلة أو يعجزون عنه . ومتى أزمن الداء ، بطل فعل الدواء ، واذا تمكنت الاهواء في الانفس وصارت ملكات لها ، ملكت عليها أمرها، وغلبتها على اختيارها ، وهذا مشاهد في الافراد. والامم أولى به منها، فانك ترى بعض الاطباء يسكرون وهم على يقين من ضرر السكر ، ولكن داعيته أرجح في النفس من وازع العقل والفكر، : عذلت طبيبا على الشرب مذكرا له بما يعلم من ضره — فقال لآن أعيش عشرا بلذة آثر عندي من أن أعيش عشرين محروما منها . فقلت لو كان هذا مضمونا لك ، جاز أن يقبل منك ، ولكن ما يدريك لعل الخمر تحدث لك من الاسقام ، ما تعيش به العشرين في أشد الآلام؟ فسكت ، ولكنه لم يتب

وهانحن أولاء قد كنا بهداية ديننا أمة عزيزة قوية متحدة فمزقتنا الاهواء فضعفنا، ثم ساعد الزمان بعض شعوبنا فاعتزت وعلت ، ثم انخفضت وضعفت، وقد قام منا من ينذرنا ، ويذكرنا بآيات ربنا ، ويدعونا بها الى ما يحيينا ، فاعرض أمراؤنا وعلماؤنا، ومن ورائهم دهماؤنا. (ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر * وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون؟)

هذا — وقد بحث المفسرون هنا في آجال الافراد وما يتعلق بها ولا

شك في أن لكل فرد أجلا في علم الله وفى تقديره (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) فاما الذي في علمه تعالى فلا يتغير، ولا يقتضي هذا نفي الاسباب والمسببات ولا كون الناس مجبورين لاختيار لهم في أمور الحياة والممات ؛ فان كلا من هذين حق ثابت بالحس والضرورة وبالوحي جميعا، والحق الواقع مثال ومصداق لما في العلم، وليس العلم فاعلا فيه وانما هو كاشف له . واما الاجل المقدر بمقتضى نظام الخلق فهو الذي يعبر عنه علماء الدنيا بالعمر الطبيعي وهو مئة سنة في متوسط تقدير أطباء عصرنا. وهم يقدرون لكل فرد عمرا بعد الفحص عن قوة جسمه واعضائه الرئيسية ووظائفها، ويشترط في صحة التقدير ان يعيش بنظام واعتدال وتقوى ، فاذا اخل بذلك اختل التقدير وبعد عن الحقيقة الثابتة في علم الله تعالى والا كان قريبا منها بحسب ما علم من سننه تعالى . ومن قتل او غرق مثلا قبل انتهاء العمر المقدر له يقال انه مات قبل انتهاء عمره الطبيعي او التقدري، ولكن بأجله الحقيقي عند الله تعالى، وكل ماورد في نقص العمر واطالته والانساء فيه بالاسباب العملية والنفسية كصلة الرحم والدعاء فانما هو بالنسبة الى الاجل التقديري أو الطبيعي الذي هو عبارة عن مظهر سنن الله في الاسباب والمسببات ، فان صلة الرحم من أهم أسباب هناء المعيشة وهناء المعيشة من أهم أسباب طول العمر ، وكذلك الدعاء الذي منشؤه قوة الايمان بالله والرجاء في معونته وتوفيقه للمؤمن فيما يضعف عنه أو يعجز عن أسبابه . ومن الامور الثابتة بالتجارب المضطردة أن الهموم والا كدار، ولا سيما الداخلي منها كقطيعة الارحام ، واليأس من روح الله القادر على كل شيء عند تقطع الاسباب ، يضعفان قوى النفس الحيوية ويهرمان الجسم قبل ابان الهرم كما قال الشاعر

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

وللهموم اسباب كثيرة تدخل في هذا الباب ، ومثلها في تقصير العمر الطبيعي قلة الغذاء الذي يحتاج اليه البدن والاسراف فيه وفي كل لذة و في الراحة والتعب، وكثرة التعرض للنجاسة والسكنى في الامكنة القذرة التي لا تصيبها الشمس ولا يتخللها الهواء بالقدر الذي يكفي لامتصاص الرطوبات وقتل جراثيم الفساد فيها . والامم العليمة بالسنن الالهية في الصحة والسقم والقوة والضعف تحصي دائما عدد المرضى والموتى فيها وتضع لها نسبا حسابية تعرف بها متوسط الآجال

في كل منها. وقد ثبت بها ثبوتا قطعيا أن من اسباب قلة الوفيات تحسين وسائل المعيشة والاعتدال فيها، والتوقي من الامراض باجتناب اسبابها المعروفة قبل وقوعها بقدر الامكان ومعالجتها بعد طروئها كذلك. وكل ما ثبت ووقع فهو دليل على أن العلم الالهي قد سبق به، ولا شيء مما ثبت في الواقع بناقض لشيء مما ورد في نص كتاب ربنا تعالى وما صح من سنة نبينا (ص) بل هو موافق له، وهذا من حجج كون هذا الدين من علم الله تعالى اذ لا يمكن لبشر أن يقرر هذه المسائل الكثيرة في العلوم المختلفة على وجه الصواب الذي لا يزيده ترقي علوم البشر وتجاربها الا تأكيدا، وناهيك بها جاء على لسان نبي امي نشأ بين الاميين. وسنعود الى مثل هذا البحث في مناسبة اخرى ان شاء الله تعالى

ومن مباحث اللفظ في الآية ان العطف في قوله تعالى (ولا يستقدمون) مستأنف لبيان ما تم به الفائدة والاوجب أن يكون معطوفا على الجملة الشرطية لا الجزائية فيكون حاصل المعنى: ولكل أمة أجل لا يتأخرون عنه اذا جاء، وهم لا يتقدمون عليه ايضا بأن يهلكوا قبل مجيئه. ولا يظهر معنى لعطفه على « لا يستأخرون » الذي هو جزاء قوله « فاذا جاء أجلهم » الا بتكلف، والمعنى على هذا موافق لقوله تعالى « ما تسبق من أمة أجلها ولا يستأخرون » وأما حكمة العدول عن الترتيب الطبيعي هنا فهي افادة ان تأخير الاجل أو تأخير الهلاك قبل حلول أجله ممكن للامة التي تعرف أسبابه وتملك العمل بها، كترك الظلم والبغي والفجور الى أضدادها، وهو يتضح بما ضربنا لها من الامثال آنفا.

---

(٣٥) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ

هذا النداء هو الرابع لبني آدم كافة منذ بعث الله اليهم الرسل (ع. م) فهو

يؤذن بانه هو وماقبله حكاية لماخاطب الله به كل أمة على لسان رسولها وبينه لهم من أصول دينه الذي شرعه لهدايتهم به الى ما لا غنى لهم عنه في تكميل فطرتهم ، وقد تخلل النداء الثاني والثالث بعض ماينا سب أمة خاتم الرسل (ص) إذ لم يكن في آياتهما مايدل على مشاركة غيرهالها في الخطاب ـ واما هذا النداء فقد صرح فيه بذكر جملة الرسل ، وذكره بعد بيان آجال الامم ، ولهذا فرع عليه بيان جزاء من اتبع الرسل ومن كذبهم من جميع الاقوام ـ فهذا وجه مناسبته لما قبله فيما ظهر لنا والله أعلم . قال عز وجل :

﴿ يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ اما مركبة من «ان» الشرطية وما التي تفيد تأكيد الشرط . وكذا العموم في قول . والمعنى إن يأتكم رسل من ابناء جنسكم البشر يتلون عليكم آياتي التي أنزلها عليهم في بيان ما أفرضه عليكم من الايمان والاعمال الصالحة المصلحة ، وما أحرمه عليكم من الشرك والرذائل والاعمال المفسدة ، — فمن اتقى ما نهيت عنه ، وأصلح نفسه بما أوجبت عليه ، فلاخوف عليهم مما يترتب على التكذيب والعصيان من عذاب الدنيا والآخرة ولا هم يحزنون عند الجزاء يوم القيامة ولا في الدنيا كحزن غيرهم . وقد تقدم تفسير مثل هذه الجملة في مواضع أشبهها بهذه الآية وما بعدها (٢ : ٧٢ و ٧٣ و ٦ : ٤٨ و ٤٩ فيراجع

﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ الاستكبار عن الآيات هو رفض قبولها كبرا وعنادا لمن جاء بها أن يكون اماما متبوعا للمستكبرين لانهم يرون أنفسهم فوقه أو أقوامهم فوق قومه أو يحبون أن يروا الناس ذلك ، فرؤساء قريش المستكبرون منهم من كان يرى من الضعة والمهانة ان يكون مرؤسا للنبي (ص) نفسه لانهم أكثر منه مالا وأعز نفرا أو أكبر سنا ـ فيرون انهم احق بالرياسة — وكان من هؤلاء بعض عشيرته بني هاشم ـ ومنهم من كان يستكبر ان يتبع رجلا من بني هاشم كابي جهل وأبي سفيان وآخرين مات بعضهم على الكفر ودان بعضهم بالاسلام بعد ظهوره . ولم يكن في غير قريش من العرب من يستكبر ان يتبع رجلا منهم الا بالتبع لعدم اتباعهم هم له ، ولكن أحبار اليهود استكبروا عن اتباعه لانه عربي وهم يرون ان النبوة يجب حصرها فيهم ، كما تقدم في سورة البقرة . وكذلك امراء المجوس

ورؤساء دينهم اذ كانوا يحتقرون العرب كافة الا من هدى الله من الفريقين . ولا يزال بعض الشعوب يأبى الاهتداء بالاسلام استكبارا عن اتباع أهله. بل نرى بعض غلاة العصبية الجنسية المرتدين عن الاسلام كذلك حتى نقلت صحف الاخبار عن بعضهم انه قال: ان قومه يستنكفون أن يتسفلوا لاتباع الخلفاء الراشدين (!!)

والمعنى ان الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسدا له على الرياسة وتفضيلا لانفسهم عليه أو لقومهم على قومه فأولئك أصحاب النار الذين يخلدون فيها، لا كالذين يعذبون فيها زمنا معينا على ذنوب اقترفوها

وجملة القول في هاتين الآيتين أن جميع الرسل قد بلغوا امهم ان اتباعهم في انقاء ما يفسد فطرتهم من الشرك وخرافاته والرذائل والمعاصي وفي اصلاح اعمالهم بالطاعات — يترتب عليه الامن من الخوف من كل ما يتوقع والحزن على كل ما يقع إما مطلقا واما بالنسبة الى غير المؤمنين المتقين وان تكذيب ما جاؤا به من آيات الله والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه الخلود في النار فوق ما بين في آيات أخرى من سوء الحال في الدنيا، وقد سكت عن الجزاء الدنيوي هنا له لان الآية الاولى تدل عليه ولانه لا يظهر للناس في كل وقت

---

(٣٧) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا. وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٨) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ. قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (١٣٩) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

هذا بدء سياق طويل في وصف جزاء الكافرين بالله وبما جاءت به رسله والمؤمنين بذلك مفصلا تفصيلا مبنيا على السياق الذي قبله ولا سيما خاتمته وهي خطاب بني آدم بالجزاء على اتباع الرسل وعدمه مجملا. قال تعالى

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ﴾ أي اذا كان الامر كما ذكر في الآيات السابقة — وهو كذلك — فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا ما بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه أو حرم عليهم في الدين ما لم يحرمه أو عزا الى دينه أيّ حكم لم ينزله على رسله، أو كذب بآياته المنزلة عليهم بالقول أو بما هو أدل منه وهو الاستكبار عن اتباعها، أو الاستهزاء بها، أو تفضيل غيرها عليها بالعمل —

﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ في الكتاب وجهان (أحدهما) أنه كتاب الوحي الذي أنزل على الرسل (واللام للجنس) وهو ظاهر قول مجاهد في تفسير نصيبهم منه: « ماوعدوا فيه من خير وشر » فان الكتاب الالهي هو الذي يتضمن الوعد على الاعمال أي والوعيد بدليل بيانه بالخير والشر. وهو عام يشمل جزاء الدنيا والآخرة (وثانيهما) أنه كتاب المقادير الذي كتب الله فيه نظام العالم كله ومنها أعمال الاحياء الاختيارية وما يبعث عليها من الاسباب وما يترتب عليها من المسببات كالسعادة والشقاء والصحة والمرض الخ وقد تقدم الكلام المفصل فيه في تفسير (٦ : ٥٩ وعنده مفاتح الغيب) من تفسير سورة الانعام [1] وعليه ابن عباس اذ قال في تفسير النصيب من الآية: ما قدر لهم من خير وشر. وفي رواية أخرى عنه: ما كتب عليهم من الشقاء والسعادة. وفسر محمد بن كعب القرظي النصيب بالرزق والاجل والعمل وروي أيضاً عن الربيع بن أنس وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وفسره أبو صالح والحسن بالعذاب ولا خلاف بين الوجهين فما وعدوا به في كتاب الدين هو الذي أثبت في كتاب المقادير، وانما الخلاف في نفس النصيب الذي ينالهم هل هو خاص بالدنيا أم بالآخرة أم عام فيهما؟ ورجح الاول بموافقته لمثل قوله (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) وقوله (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) وبموافقته لما تدل عليه حتى من الغاية في قوله عز وجل:

(١) ص ٤٦٩ ج ٧ تفسير

﴿ حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ أي ينالهم نصيبهم الذي كتب لهم مدة حياتهم. حتى اذا ما انتهى بانتهاء آجالهم وجاءتهم رسلنا يتوفونهم — وهم الملائكة الموكلون بالتوفي أي قبض الارواح من الاجساد ﴿ قالوا اين ما كنتم تدعون من دون الله ﴾ أي يسألهم رسل الموت حال كونهم يتوفونهم أين الذين كنتم تدعونهم غير الله في حال الحياة لقضاء الحاجات ودفع المضرات ؟ ادعوهم لينجوكم مما أنتم فيه الآن ﴿ قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ أي قالوا غابوا عنا فلا نرجو منهم منفعة واعترفوا بأنهم كانوا كافرين بدعائهم اياهم ، وزعمهم انهم عنده تعالى كاعوان الامراء والسلاطين ووزرائهم وحجابهم، جاهلين أن الله غني عن ذلك باحاطة علمه وكمال قدرته ، وان الملوك والامراء لا يستغنون عن الاعوان والمساعدين لجهلهم بأمور الناس وعجزهم عن معرفتها وقضائها بأنفسهم . وقد تقدم مثل هذا في سورة الانعام (٦:٢١ — ٢٤ و ٩٤ و ٩٥) وكل منهما مبتدأ بقوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فيراجعان ففي كل منهما ما ليس في الآخر ولا هنا من الفوائد [١] وتقدم مثل هذ الاستفهام الانكاري في آخر آية (١٤٤) من الانعام أيضاً وفسرنا الافتراء على الله فيها بمثل ما فسرناه هنا لمناسبة السياق [٢] وتقدم أيضا مثل هذه الشهادة من الكفار على أنفسهم في آخر آية (١٢٩) منها [٣]

﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار ﴾ أي يقول الله تعالى أو أحد ملائكته يوم القيامة : لهؤلاء الكافرين ادخلوا مع أمم قد خلت ومضت من قبلكم من الجن والانس في النار، أو ادخلوا في ضمن أمم مثلكم قد سبقتكم كائنة في دار العذاب وقدم الجن لان شياطينهم مبتدئو الاضلال والاغواء لابناء جنسهم وللانس كما تقدم

﴿ كلما دخلت امة لعنت اختها ﴾ هذا بيان لشيء من حالتهم في دخول النار الذي لا يمكن تخلفه بعد أمر الله تعالى به ، أي كلما دخلت جماعة منهم في النار واستقبلت ما فيها من الحر والنكال لعنت أختها في الدين والملة التي ضلت هي باتباعها والاقتداء بها في كفرها كما قال تعالى حكاية عن خليله (٢٩ : ٢٤

(١) الاول ص ٣٤٢ والثاني ص ٦٢٢ ج ٧ تفسير (٢) ص ١٤٤ ج ٨ تفسير
(٣) ص ١٠٨ ج ٨ أيضا

ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) الخ

﴿ حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار ﴾ أي حتى اذا تتابعوا وأدرك بعضهم بعضاً فاجتمعوا كلهم فيها قالت اخرى كل منهم لاولاها ومقدميها في الرتبة والرياسة او في الزمن أي لاجلها وفي شأنها — وانما الخطاب لله عز وجل — : ربنا هؤلاء أضلونا عن الحق باتباعنا لهم وتقليدنا إياهم فيما كانوا عليه من امر الدين وسائر الاعمال فاعطهم ضعفا من عذاب النار لاضلالهم إيانا فوق العذاب على ضلالهم في أنفسهم حتى يكون عذابهم ضعفين ضعفا للضلال وضعفا للاضلال

﴿ قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون ﴾ أي يقول الرب تعالى لهم : لكل منهم ضعف من العذاب باضلاله ، فوق عذابه على ضلاله ، كما قال في آية أخرى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) ولكن لاتعلمون كنه عذابهم . وذلك ان العذاب ظاهر وباطن أو جسدي ونفسي ، وقد وصف الله النار في سورة الهمزة بانها تطلع على الافئدة أي القلوب فاذا رأى الأتباع المتبوعين معهم في دار العقاب ظنوا أن عذابهم كعذابهم فيما يأكلون من الزقوم والضريع ، ويشربون من الماء الحميم ، وفيما تلفحهم النار بريحها السموم ، وفيما يلجؤن اليه من ظلها اليحموم ، فشلهم معهم كمثل المسجونين في الدنيا منهم المجرم العريق في إجرامه من تحوت الناس وأشقيائهم ، والرئيس الزعيم في قومه ، العزيز الكريم في وطنه ، لايشعر الاول بما يقاسيه الآخر من عذاب النفس وقهر الذل بل يظن أن عقوبتهما واحدة في ألمها كما هي في صورتها

وحمل الاولى على الرؤساء المتبوعين والائمة المضلين والاخرى على أتباعهم المقلدين لهم أظهر في المعنى من حملها على المتقدمين والمتأخرين في الزمن او في دخول النار ، على أن شأن مبتدع الضلالة ان يكون متقدما في الزمن على من اتبعه فيها ولو في عصره ، وهذا هو الموافق لما في الآيات الاخرى كقوله تعالى (٣٤ : ٣١ ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول) الى آخر الحوار ، ومثله ما تقدم في سورة البقرة في سياق متخذي الانداد من دون الله وجعلهم وسطاء عند الله أو طاعتهم في أمر الدين بغير وحي من الله وتبرؤ التابعين من المتبوعين (٢ : ١٦٥ — ١٦٧) وقد استشهدنا في

تفسيره بهذه الآيات فيراجع (١) ويعلم منه بالتفصيل ان كل دعاة التقليد الاعمى من هؤلاء المضلين الذين يضاعف لهم العذاب ، وان أئمة الهدي من علماء السلف ليسوا منهم لانهم كانوا يستنبطون الاحكام من الكتاب والسنة ليفتحوا للناس أبواب الفهم والفقه فيهما مع نهيهم عن تقليدهم وأمرهم بعرض كلامهم على الكتاب والسنة وأخذ ما وافقهما ورد ماعداه . ومنهم الائمة الاربعة الذين تنتمي اليهم طوائف السنة وأئمة العترة الذين تنتمي اليهم الشيعة كالامامين جعفر الصادق وزيد بن علي رضي الله عنهم اجمعين . ولم يبح أحد من هؤلاء الائمة التقليد ـ وقد حرمه الله في كتابه ـ فهم برآء من جميع المقلدين لهم ولغيرهم في دين الله كما فصلناه في تفسير تلك الآيات وفي مواضع أخرى . وورد في معنى ذلك آيات أخرى في سورة ابراهيم والقصص والاحزاب والصافات وص وغيرهن

وأما حمل الاولى والاخرى على المتقدمة في الزمان والمتأخرة فيه فهو مروي عن السدي وتبعه ابن جرير . وقيل عليه : لكل منكم ومنهم ضعف ـ وهذا وان كان ظاهر أمن اللفظ لا يظهر فيه المعنى الموافق لسائر الآيات في هذا الموضوع وللقاعدة القطعية في جزاء السيئات وهو كونه على العمل بقدره مثلا بمثل . نعم ان المتأخرين في جملتهم يقلدون من قبلهم حذو القذة للقذة ، وإنما المضل من المتبوعين من ابتدع الضلال أو دعا اليه أو كان قدوة فيه فهو الذي يحمل مثل وزر من أضله سواء كان عالما بذلك أم لا ، وقد صح في الحديث «ان من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الاسلام[1] سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» كما بيناه في مواضع . والذي جري عليه اكثر أصحاب التفاسير المعروفة أن الضعف الآخر على الاتباع عقاب على التقليد وعزاه بعضهم الى الكرخي . قال الآلوسي بعد ذكره والتعبير عنه بالاولى : ولا شك أن التقليد في الهدى ضلال ويستحق فاعله العذاب . أي فكيف بالتقليد في الكفر والضلال الذي قيل في أهله :

عمي القلوب عموا عن كل فائدة لانهم كفروا بالله تقليدا

(١) ص ٦٨ — ٩٤ ج ٢ تفسير «٢» اي في عهد الاسلام وزمنه

ولكنه غير ظاهر هنا فلا دليل على أن التقليد يقتضي مضاعفة العذاب على العمل المقلد فيه وانما هو ذنب في نفسه لانه تفريط بنعمة العقل، وما أوجبه الله بالكتاب والفطرة من العلم بالنظر والبحث، والاجتهاد في استبانة الحق، وما قيل من أن جزاء الضعف على الاتباع بأن اتخاذهم الرؤساء متبوعين مما يزيد في طغيانهم أو بأنه طلب لاعراض الدنيا باتباع الهوى والعصبيات — يقال فيه ماقيل فيما قبله من أن هذه ذنوب مستقلة لا يعبر عن عقابها بانه ضعف الا بضرب من التجوز

ذلك بأن الضعف هنا هو الزائد على عقاب الذنب نفسه بسبب لابسه فهو كقوله في محاورة الاتباع المقلدين للمتبوعين من سورة ص (٣٨ : ٦٠ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار) فقد صرح هنا بالزيادة ، وقوله من سورة الاحزاب حكاية عن التابعين المرءوسين في النار (٣٣ : ٦٧ وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا (٦٨) ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا)

وقد كان من سبق رحمة الله لغضبه وانتقامه وغلبة فضله على عدله ان وعد بمضاعفة جزاء الحسنات لذاتها دون السيئات كما قال (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) وكما قال (٤ : ٣٩ ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وكل ماورد في كتابه في مضاعفة العذاب فهو على الاغواء والاضلال وسوء القدوة الا آية الفرقان فقد قال بعد ذكر الشرك واكبر الكبائر من المعاصي (٢٥ : ٦٨ ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٦٩ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا) ولو انفردت دون سائر آيات المضاعفة بحكم جديد لا يتعارض معها لم تكن مشكلة ولكنها معارضة بها وبقاعدة الجزاء على السيئة بمثلها الا من أغوى غيره وأضله بقوله أو عمله فكان قدوة سيئة له فوجب الجمع بينها وبين الآيات والاخبار الصحيحة المقررة لهذه القاعدة كأن يقال ان العقاب فيها على مجموع الشرك وكبائر الفواحش وهو مقسم عليهما لكل منهما جزء أو نوع منه فكان مضاعفا بالنسبة الى عقاب المشرك الذى لم يقترف تلك الكبائر أو عقاب مقترفها كلها أو بعضها من غير المشركين ، وانما الممنوع بمقتضى القاعدة أن يضاعف العذاب على كل منهما مع انتفاء الاضلال وسوء القدوة . ويحتمل ان يقال ان فاعل تلك المعاصي

من الكفار لايكون الا مجاهرا بضلاله فيلزمه الاضلال بسوء القدوة ، وقد قيل بمثله في كل مجاهرة ، وهو ظاهر

ومن مباحث اللفظ أنه لافرق في المعنى بين هذه الآية وآية (آتهم ضعفين من العذاب) فان لفظ الضعف من الالفاظ المتضايفة التي يقتضي وجود أحدها وجود الآخر كالزوج وهو تركب قدرين متساويين ويختص بالعدد فضعف الشيء هو الذي يثنيه واذا اضيف الى عدد اقتضى ذلك العدد ومثله فضعف الواحد اثنان وضعف العشرة عشرون فاذا قيل اعطه ضعفين من كذا كان معناه اعطه اثنين أو سهمين منه وأما اذا قيل اعطه ضعفي واحد بالاضافة كان معناه اعطه واحدا وضعفيه أي ثلاثة وعلى ذلك فقس أهـ ملخصا من مفردات الراغب

﴿ وقالت أولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ هذا الجواب مبني على ماقبله من قول أخراهم أو من جواب الرب تعالى لهم ـ والمعنى على الاول : اذا كان الامر كما ذكرتم من أننا نحن أضللنا كم فما كان لكم علينا بهذا أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا والذنب واحد وقد اعترفتم بتلبسكم بالضلال المقتضي له فذوقوا العذاب بكسبكم له مهما يكن سببه ، وفي سورة الصافات (٢٧:٣٧ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ٢٨ قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين ٢٩ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين . وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ٣٠ فحق علينا قول ربنا انا لذائقون ٣١ فاغوينا كم انا كنا غاوين ٣٢ فانهم يومئذ في العذاب مشتركون)

وأما المعنى على الوجه الثاني فان يقال اذا كان الرب قد جعل لكل منا أو منا ومنكم ضعفا من العذاب فليس لكم علينا فضل يخفف به عنكم ما أوجبه عليكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون من الكفر والمعاصي مثلنا فنحن لم نكن بمكرهين لكم على ذلك بل فعلتموه باختياركم ، وانما كان يكون لكم الفضل علينا لو اهتديتم باتباع الرسل وتركتمونا في ضلالنا وغوايتنا . ولا ينفعكم مضاعفة العذاب لنا اذ لم يخفف عنكم عذابكم فان كلا منا لا يشعر الا بعذاب نفسه . كما قال تعالى في مثل هذا المقام في سورة الزخرف (٣٩:٤٣ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون)

(٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

هذا نوع آخر من جزاء المكذبين المستكبرين بضرب آخر من البيان، قال ﴿ ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ﴾ لمفسري السلف في تفتح أبواب السماء قولان لايتنافيان (أحدهما) أن معناه لاتقبل أعمالهم ولا ترفع الى الله عز وجل كما ترفع أعمال الصالحين كما قال (والعمل الصالح يرفعه) قال ابن عباس: أي لايصعد الى الله من عملهم شيء - وفي رواية عنه : لاتفتح لهم لعمل ولا دعاء . ومثله عن مجاهد وسعيد بن جبير . (والثاني) أن أرواحهم لاتصعد الى السماء بعد الموت . وروي عن ابن عباس والسدي وغيرهما . قال ابن عباس : عير بها الكفار أن السماء لاتفتح لارواحهم وتفتح لارواح المؤمنين . ومثل هذا التعبير في السماء معروف عند أهل الكتاب وروي في هذا القول أخبار مرفوعة في قبول روح المؤمن ورد روح الكافر. وروى ابن جرير عن ابن جريج الجمع بين القولين قال: لا لارواحهم ولا لاعمالهم

﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ قرأ جمهور القراء الجمل بالتحريك وهو البعير البازل اي الذي طلع نابه والمعنى لايدخلون الجنة حتى يدخل ماهو مثل في عظم الجرم وهو الجمل الكبير فيما هو مثل في الضيق وهو ثقب الابرة — وتسمى الخياط بالكسر والمخيط بوزن المنبر — وذلك لايكون فالمراد تأكيد النفي أو تأبيده. وكان بعض الناس في الصدر الاول لم يفطنوا لنكتة هذا التعليق لعدم التناسب بين الجمل وسم الخياط فكانوا يسألون عنه فيجابون بما يؤكد المراد . سئل عنه ابن مسعود (رض) فقال هو زوج الناقة - والحسن البصري فقال ابن الناقة الذي يقوم في المربد على أربع قوائم .

وكان هؤلاء السائلين كانوا يرون أن المناسب تفسير الجمل هنا بالحبل الغليظ وهو القلس الذي يكون في السفن لشبهه بالخيط وفيه لغات أخرى قرىء بها وقد ضبطها صاحب القاموس بأوزان سكر وصرد وقفل وعنق وجبل وذكر انه قرىء بهن . قال شارحه الزبيدي : فالاولى قرأ بها علي وابن عباس (رض) ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وابو رجاء ويزيد عن عبد الله بن الشخير وأبان عن عاصم . وفي رواية عن ابن عباس بتخفيف الميم وهي الرواية الثانية وبه قرأ أبو عمرو والحسن وهي قراءة ابن مسعود . وحكي ذلك عن أبي بن كعب أيضاً . وروي عن ابن عباس بسكون الميم أيضاً وهي الثالثة، وهذه جمع جملة، مثال بسر وبسرة ، والجملة قوة [1] من قوى الحبل الغليظ وقال ابن جني وأما جمل فجمع جمل كاسد وأسد وذكر الكواشي انها كلها لغات في البعير ماعدا جملا كسكر وقفل وليس بشيء فتأمل قاله شيخنا أه

﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ أي مثل هذا الجزاء نجزي جنس المجرمين أي الذين صار الاجرام وصفا لازما لهم . وأصل معناه قطع الثمرة قبل بدو صلاحها ثم توسع فيه فاطلق على كل إفساد ولا سيما إفساد الفطرة بالكفر وما يترتب عليه من الخرافات والمعاصي وهو المراد هنا وليس كل من اجرم كذلك فان المؤمن اذا أجرم جرما بثورة غضب أو نزوة شهوة لايلبث أن يندم ويتوب كما قال تعالى في وصف المؤمنين (ثم يتوبون من قريب) وقال (ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) وقد تقدم تفسيرهما في سورتي النساء وآل عمران فهؤلاء لايسمون مجرمين

﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ جهنم اسم لدار العذاب والشقاء قيل أعجمي وقيل مأخوذ من قولهم : ركية [2] جهنام (بتثليث الجيم وتشديد النون) أي بعيدة القعر، فهو بمعنى الهاوية، ومن قال انها عربية جعل منع صرفها للعلمية والتأنيث . والمهاد الفراش والغواشي جمع غاشية وهي مايغشى الشيء أي يغطيه ويستره ويناسب المهاد منها اللحاف، وبه قال ابن عباس

---

(١) القوة الطاقة من طاقات الحبل (٢) الركية بالتشديد كقضية البئر التي لم تطو أي لم تبن من داخلها

هنا، فالغشاء الغطاء ومنه استغشوا ثيابهم، والفرش الاغشى ماتسترغرته جبهته. والمراد أن جهنم مطبقة عليهم ومحيطة بهم كما قال (إنها عليهم مؤصدة) وكما قال (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ﴿ وكذلك نجزي الظالمين ﴾ أي ومثل هذا الجزاء نجزي جنس الظالمين لانفسهم وللناس بشرطه الذي ذكر في المجرمين آنفا. وأفادت الآيتان ان المجرمين والظالمين الراسخين في صفتي الاجرام والظلم هم الكافرون ، وان المؤمنين لايكونون كذلك ،كما قال (والكافرون هم الظالمون) وهذا تحقيق القرآن والناس في غفلة عنه ولذلك خالفوه في عرفه

---

(٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

من سنة القرآن الجمع بين الوعد والوعيد والثواب والعقاب يبدأ بأحدهما لمناسبة السياق قبله ويقفي عليه بالآخر ، ولهذا عطف بيان جزاء السعداء على بيان جزاء الاشقياء فقال :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي والذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الاعمال الصالحات على الوجه الذي دعتهم اليه الرسل، التي لاعسر فيها ولاحرج عليهم اذ ﴿ لانكلف نفسا الا وسعها ﴾ أي لا نفرض على المكلف الا ما يكون في وسعه، وهو مالا يضيق به ذرعه، ولا يشق عليه أداؤه. وهذه جملة معترضة هنا — وقد تقدم مثلها في آخر سورة البقرة وما في معناه من ارادة اليسر دون العسر في آيات الصيام منها ومن عدم ارادة الحرج في آية الوضوء من سورة المائدة ، فهذه الآيات نصوص قطعية في يسر الدين

وسهولته وهي حجة قطعية على ما أحدثه المتوسعون في الاستنباط والاجتهاد في أحكام العبادات التي جعلوها حملا ثقيلا يعسر تعلمه ولا يدخل في وسع أحد الا المتقطعين من العباد حتى ان أحكام الطهارة وحدها لا يمكن تلقي ما كتبوه فيها الا في عدة أشهر

﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أي أولئك الجامعون بين الايمان والاعمال التي تصلح بها نفس الانسان ، وتزكو فتكون أهلا للنعيم والرضوان ، هم أصحاب الجنة الذين يخلدون فيها أبدا ، وقد تكرر نظيره

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الانهار ﴾ أي ونزعنا ما كان في قلوبهم من حقد وضغن مما يكون من عداوة أو حسد في الدنيا فلا يدخلون الجنة وفي قلوبهم أدنى لوثة مما لا يليق بتلك الدار وأهلها ، ويكون من أسباب تنغيص النعيم فيها ، تجري من تحتهم الانهار فيرونها وهم في غرفات قصورهم تتدفق في جناتها وبساتينها فيزدادون حبورا لا تشوبه شائبة كدر. روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال بلغني أن النبي (ص) قال « يحبس اهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل » وروى هو وابن جرير وأبو الشيخ عن السدي قال : ان أهل الجنة اذا سيقوا الى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فيشربون من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور ، واغتسلوا من الاخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يشحبوا بعدها أبدا . وروي عن قتادة أن عليا (كرم الله وجهه) قال : اني لارجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم (ونزعنا ما في صدورهم من غل) . وعنه أنها نزلت في أهل بدر . أي وإن كان معناها عاما مطلقا

﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله ﴾ وقرأ ابن عامر « ما كنا » بغير واو على أنه بيان لما قبله وهذا من المخالف لرسم المصحف . أي ويقولون شاكرين لله بألسنتهم المعبرة عن غبطتهم وبهجتهم : الحمد لله الذي هدانا في الدنيا للايمان الصحيح والعمل الصالح الذي كان هذا

النعيم جزاءه — فأدخل اللام على المسبب للعلم بالسبب — وما كنا لنهتدي أي وما كان من شأننا ولا مقتضى بديهتنا او فكرتنا أن نهتدي اليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله اليه بتوفيقه ومعونته ورحمته الخاصة علاوة على هداية فطرته التي فطرنا عليها وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل، تالله ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ فهذا مصداق ماوعدونا من الجزاء على التوحيد والعمل الصالح ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أي ونودوا من قبل الرب تبارك وتعالى بأن قيل لهم: تلكم هي الجنة البعيدة المنال — لولا فضل ذي الجلال والاكرام — التي وعد بوراثتها الاتقياء: أورثتموها بسبب ماكنتم تعملون في الدنيا من الصالحات، فعلامة البعد في اسم الاشارة للبعد المعنوي الذى بيناه ، اذ السياق دال على أن هذا النداء يكون بعد دخولها ، والتبوء من غرف قصورها ، وجعله بعض المفسرين حسيا على القول بأن النداء يكون عندما يرونها منصرفين اليها من الموقف . وبعضهم زمنيا مرادا به الجنة الموصوفة على ألسنة الرسل في الدنيا وقد بعد عهد ذكرها والوعد بها وهو وجيه

تكرر في القرآن التعبير عن نيل اهل الجنة للجنة بالارث . والاصل في الارث أن يكون انتقالا للشيء من حائز الى آخر كانتقال مال الميت الى وارثه وانتقال الممالك من أمة الى أخرى ، وكذا إرث العلم والكتاب قال تعالى (وورث سليمان داود) وقال (ورثوا الكتاب) وقال (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) ولا يظهر شيء من هذا في الجنة، وانما يخرّج ايراثها هنا ومافي معناه وارثها في قوله (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس) على وجهين (أحدهما) انهم يعبرون بالارث عن الملك الذي لا منازع فيه (وثانيهما) ما ورد من أن الله تعالى جعل لكل أحد من المكلفين مكانا في الجنة هو حقه اذا طلبه بسببه وسعى اليه في صراطه المستقيم وهو الايمان والاسلام لله رب العالمين ، وهو ما وعد به جميع أفراد أمة الدعوة على ألسنة الرسل (ع . م) وورثتهم الناشرين لدعوتهم بالعلم والعمل ، فمن كفر خسر مكانه من الجنة وأعطيه أهل الايمان والتقوى فما من أحد منهم الا وله حظ من الارث . والاستعمالان مجازيان ، وهما متفقان لا متباينان

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في تفسير الآية قال : ليس من

مؤمن ولا كافر الا وله في الجنة منزل مبين فاذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لاهل النار فنظروا الى منازلهم فيها فقيل هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله، ثم يقال يا أهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون . فيقتسم أهل الجنة منازلهم . وروى نحوه عن ابن شوذب في تفسير (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) وروي مثله موقوفا ومرفوعا في تفسير (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس) أخرج سعيد بن منصور وابن ماجه ورواة التفسير المأثور الاربعة — أبناء جرير والمنذر وأبي حاتم ومردويه — والبيهقي فى البعث عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فاذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله (أولئك هم الوارثون)

والآية صريحة في كون الجنة تنال بالعمل وفي معناها آيات كثيرة بباء السببية بعضها بلفظ الارث وبعضها بلفظ الدخول . وأما حديث أبي هريرة في الصحيحين « لن يدخل أحدا عمله الجنة — قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال — ولا أنا الا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة» وله تتمة وروي بلفظ آخر — فمعناه ان عمل الانسان مهما يكن عظيما لايستحق به الجنة لذاته لولا رحمة الله وفضله اذ جعل هذا الجزاء العظيم على هذا العمل القليل فدخول الجنة بالعمل دخول بفضل الله ورحمته ولذلك قال بعده « فسددوا وقاربوا » أي لا تبالغوا ولا تغلوا في دينكم ولا تكلفوا من العمل مالا تطيقون . وقيل في الجمع غير هذا

---

(٤٣) وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّٰلِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ

تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

بعد أن ذكر سبحانه النار وأهلها، والجنة وأهلها، بين لنا في هذه الآيات وما بعدها بعض ما يكون بين الفريقين — فريق الجنة وفريق السعير — من الحوار بعد استقرار كل منهما في داره، وتمكنه في قراره، وهي تدل على ان الدارين في عالم واحد، أو أرض واحدة، يفصل بينهما حجاب هو سور واحد لا يمنع من اشراف أهل الجنة وهم في عليين، على أهل النار وهم في سجين من هاوية الجحيم، فيخاطب بعضهم بعضاً بما يزيد أهل الجنة عرفاناً بقيمة نعمة الله عليهم، ويزيد أهل النار حسرة على تفريطهم وشقاء على شقائهم، ولا يقتضي هذا النوع من الاتصال القرب المعهود عندنا في الدنيا بين المتخاطبين وهو كون المسافة بينهما تقاس بالذراع أو الباع، بل يجوز أن تكون بحيث تقاس بالفراسخ أو الايام، لان شأن الآخرة أن تغلب فيه الروحانية على المادة الجسدية، فيمكن للانسان أن يسمع من هو على بعد أيام منه ويراه، وقد كان هذا المعنى غريباً بعيداً عن المألوف عند أجدادنا الاولين، ولا يكاد يوجد الآن في العالم المدني من يستبعده بعد اختراع البشر للآلات التي يتخاطبون بها من أبعاد ألوف الاميال، إما بالاشارات الكاتبة، كالتلغراف السلكي واللاسلكي أو بالكلام اللساني كالتلفون السلكي واللاسلكي، وقد نبأتنا أخبار الاختراعات في الشمال بصنع آلة تجمع بين الرؤية والخطاب. قال عز وجل

﴿ ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ ﴾ التعبير بالماضي عن المستقبل معهود في الاساليب العربية البليغة، وأشهر نكته جعل المستقبل في تحقق وقوعه كالذي وقع بالفعل، والمعنى أن أصحاب الجنة سوف ينادون أصحاب النار حتى اذا ما وجهوا أبصارهم اليهم سألوهم سؤال تبجح وافتخار بحسن حالهم؛ وتهكم وتذكير بما كان من جناية أهل النار على أنفسهم بتكذيب الرسل، وتقريرهم بصدق ما بلغوهم من وعد ربهم لمن آمن وأصلح بنعيم الجنة قائلين: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وها نحن أولاء فيه فهل وجدتم ما وعد ربكم من آمن به وبما جاءت به رسله حقاً؟

قالوا (وعدنا ربنا) ولم يقولوا لاهل النار (وعدكم ربكم) بل حذفوا المفعول — لانه قد عرف حينئذ ان أهل الجنة محل لذلك الوعد بالجنة وان

أهل النار ليسوا محلا له، فسألوهم عن الوعد المطلق كما وجه الى الناس كافة في الدنيا على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام معلقاً على الايمان والتقوى والعمل الصالح في مثل قوله (١٣ : ٣٦ مثل الجنة التى وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار) الخ وقوله (٤٧ : ١٥ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن) الخ وقوله تعالى في حكاية دعاء الملائكة للذين تابوا واتبعوا سبيله (٤٠ : ٨ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) وقوله (١٩ : ٦١ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب) وهذا ظاهر على القول بأن الوعد خاص بما كان في الخير وكذا على القول بأنه يشمل الخير والشر. والمعنى حينئذ: فهل وجدتم ما وعد ربكم من آمن به واتقاه، وماوعد به من كفر به وعصاه حقاً بدخولنا الجنة ودخولكم النار؟ وهذا يوافق قاعدة حذف المعمول لافادة العموم. ولا يكاد يطلق الوعد في الشر غير متعلق بالموعود به صراحة ولا ضمنا لانه اذا أطلق ينصرف الى الخير وأما اذا قيد بتعلقه بالشر فيجوز أن تكون تسميته وعدا للتهكم أو للمشاكلة اذا كان في مقابلة وعد الخير أو للتغلب، فالاول كقوله تعالى (٢٢ : ٧١ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟ النارُ وعدها اللهُ الذين كفروا وبئس المصير) والثاني كقوله تعالى (٢ : ٢٦٨ الشيطان يعدُكم الفقرَ ويأمرُكم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) على أن لوعد الشيطان هنا نكتة أخرى وهو انه شر في صورة الخير على سبيل الخداع فانه عبارة عن الوسوسة للمرء بترك الصدقة وعمل البر اتقاء للفقر بذهاب ماله، وتظهر مقابلة المشاكلة في وعد الله للمنافقين وللمؤمنين في سورة التوبة (٩ : ٦٩ و٧٣) والثالث (هذا ماوعد الرحمن) اشارة الى البعث. على ان المتكلمين قد صرحوا بجواز تخلف الوعيد وعدم جواز تخلف الوعد ولو كان الوعد بمعنى الوعيد لما كان لاحد من المسلمين أن يقول هذا مع قول الله تعالى (ولن يخلف الله وعده) ومافي معناه من الآيات. فهذا ما تبادر لي من نظم الآية الكريمة

وذهب بعض المفسرين الى ان الوعد هنا بمعنى الوعيد ولو للمشاكلة وان المفعول حذف تخفيفا للايجاز أو للعلم به مما قبله والمعنى فهل وجدتم ماأوعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقا ؟ وقيل بل المعنى فهل وجدتم ماوعدنا ربنا حقا ؛ وهذا ضعيف جدا وماقبله قد رواه ابن جرير وغيره عن ابن عباس

و «أن» في قوله (أن قد وجدنا) هي المفسرة

﴿ قالوا نعم ﴾ أي قال أهل النار : نعم قد وجدنا ما وعد ربنا حقا . قرأ الكسائي نعم بكسر العين وهي لغة فصيحة نسبت الى كنانة وهذيل ﴿ فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين ﴾ التأذين رفع الصوت بالاعلام بالشيء ، واللعنة عبارة عن الطرد والابعاد مع الخزي والاهانة ، أي فكان عقب هذا السؤال والجواب الذي قامت به الحجة على الكافرين ان أذّن مؤذن قائلا : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم الجانين عليها بما أوجب حرمانها من النعيم المقيم ، وارتكاسها في عذاب الجحيم ، والظالمين للناس بما يصنعهم به في الآية التالية ، ونكر المؤذن لان معرفته غير مقصودة بل المقصود الاعلام بما يقوله هنالك للتخويف منه هنا ، ولم يروعن النبي (ص) فيه شيء وهو من أمور الغيب التي لا تعلم علما صحيحا الا بالتوقيف المستند الى الوحي ، ولكن المعهود في أمور عالم الغيب ولا سيما الاخرة ان يتولى مثل ذلك فيها ملائكة الله عز وجل.

قال الآلوسي : هو على ما روي عن ابن عباس (رض) صاحب الصور عليه السلام . وقيل مالك خازن النار . وقيل ملك من الملائكة غيرهما يأمره الله بذلك ، ورواية الامامية عن الرضا وابن عباس انه علي كرم الله وجهه مما لم يثبت من طريق أهل السنة وبعيد عن هذا الامام ان يكون مؤذنا وهو اذ ذاك في حظائر القدس اه وأقول إن واضعي كتب الجرح والتعديل لرواة الآثار لم يضعوها على قواعد المذاهب وقد كان في أئمتهم من يعد من شيعة عليّ وآله كعبد الرزاق والحاكم ، وما منهم أحد الا وقد عدل كثيراً من الشيعة في روايتهم ، فاذا ثبتت هذه الرواية بسند صحيح قبلناها ، ولا نرى كونه في حظائر القدس مانعاً منها ، ولو كنا نعقل لاسناد هذا التأذين اليه كرم الله وجهه معنى يعد به فضيلة أو مثوبة عند الله تعالى لقبلنا الرواية بما دون السند الصحيح ما لم يكن موضوعا أو معارضاً برواية أقوى سنداً أو أصح متناً

قرا ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي (أن لعنة الله) بفتح الهمزة وتشديد النون ونصب لعنة ، وقرأ الاعمش بكسر الهمزة على تقدير القول والباقون بفتح الهمزة وتخفيف النون على انها المفسرة أو المخففة من الثقيلة ورفع لعنة

ثم وصف هؤلاء الظالمين بقوله ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها

عوجا ﴾ تقدم أن صدّ يصد يجيء لازما بمعنى يعرض ويمتنع عن الشيء ومتعديا بمعنى يصد غيره، وان الايجاز في مثل هذا التعبير يقتضي الجمع بينهما — أي الذين يعرضون عن سلوك سبيل الله الموصلة الى مرضاته وكرامته وثوابه ويضلون الناس عنها، ويمنعونهم من سلوكها، ويبغونها معوجة أو ذات عوج أي غير مستوية ولا مستقيمة حتى لا يسلكها أحد : قال في اللسان : والعوج بالتحريك مصدر قولك عوج الشيء بالكسر فهو أعوج والاسم العوج بكسر العين ، وعوج يعوج اذا عطف ، والعوج في الارض أن لا تستوي ، وفي التنزيل (لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً) قال ابن الاثير قد تكرر ذكر العوج في الحديث اسما وفعلا ومصدرا وفاعلا ومفعولا وهو بفتح العين مختص بكل شكل مرئي كالاجسام وبالكسر بما ليس بمرئي كالرأي والقول ؛ وقيل الكسر يقال فيهما معاً والاول اكثر (ثم قال) وعوج الطريق وعوجه زيفه ؛ وعوج الدين والخلق فساده وميله على المثل، اه وقال الراغب إن العوج (بالتحريك) يقال فيما يدرك بالبصر والعوج (بكسر ففتح) يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة كالدين والمعاش .

وأما بغي الظالمين — أي طلبهم — أن تكون سبيل الله عوجا أي غير مستوية ولا مستقيمة فيكون على صور شتى ، فأصحاب الظلم العظيم — وهو الشرك — يشوبون التوحيد بشوائب كثيرة من الوثنية أعمها الشرك في العبادة ومخها الدعاء فلا يتوجهون فيه الى الله وحده بل يشركون معه في التوجه والدعاء غيره على أنه شفيع عنده وواسطة لديه ، أو وسيلة اليه ، (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء * حنفاء لله غير مشركين به * ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفاً * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) بل منهم من يتوجهون الى غيره ويدعونه من دونه ، ولا سيما عند الضيق والشدة ، فلا يخطر ببالهم ربهم ولا يذكرونه، ولكنهم اذا أنكر عليهم منكر يتأولون فيقول العامي : المحسوب كالمنسوب ، الواسطة لا تنكر ، ويقول المعمم دعيّ العلم : هذا توسل واستشفاع ، لا عبادة ولا دعاء ، وكرامات الاولياء حق خلافا للمعتزلة ، والاولياء أحياء في قبورهم كالشهداء . وقد فندنا دعواهم مرارا

والظالمون بالابتداع يبغونها عوجا بما يزيدون في الدين من البدع والمحدثات التي لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا سنة الخلفاء الراشدين وجمهور الصحابة ومستندهم في هذه البدع النظريات الفكرية ، والتأويلات الجدلية ، ومحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة العقلية ، هذا اذا كان الابتداع في المسائل الاعتقادية ، وأما الابتداع بالزيادة في العبادات الواردة والشعائر المشروعة فمنه ما كان كاحتفالات الموالد ، وترتيلات الجنائز ، وأذكار المآذن — كالزيادة في الاذان — وماكان في تحريم ما لم يحرم الله من الزينة والطيبات من الرزق ، أو في إحلال ما حرمه كبناء المساجد على القبور واتخاذها أعيادا وتشريفها وإيقاد المصابيح والسرج من الشموع وغيرها عليها ، فان خواصهم يحتجون له بآراء سقيمة ، وأقيسة مؤلفة من مقدمات عقيمة ، واستحسانات ينكرون أصولها ، ويأخذون بفروعها ، وعوامهم يقولون قال فلان من المؤلفين ، وفعل فلان من الصوفية الصالحين ، ونحن لا نفهم كلام الله ولا كلام الرسول ، وانما نفهم كلام هؤلاء الفحول ، بل وجد ولا يزال يوجد من المعممين المدرسين من يصرحون في دروسهم بأنه لا يجوز لمسلم في زماننا أن يعمل بكتاب الله ولا بسنة رسوله (ص) ولا بما نقله المحدثون عن سلف الامة الصالح ، بل على كل مسلم أن يأخذ بما يلقنه إياه أي عالم ينتمي الى مذهب من المذاهب المعروفة ، وان لم يرو ما يلقنه عن امام المذهب ولم يستدل عليه بدليل مبني على أصول المذهب التي كان بها مذهبا كعمل أهل المدينة عند مالك بشرطه ، وكون الاجماع الذي يحتج به هو إجماع الصحابة دون من بعدهم وهو مذهب داود والمشهور عن احمد وروي عن أبي حنيفة وكالخلاف في الاحتجاج بالحديث المرسل

والظالمون بالزندقة والنفاق يبغونها عوجا بالتشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها ، ومذاهب الباطنية التي أدخلت في الاسلام من منافذ التشيع والتصوف معروفة ، وقد كان لواضعي تلك التأويلات من الفرس غرض سياسي من إفساد الاسلام على أهله وإحداث الشقاق بينهم فيه ، وهو اضعاف العرب وازالة ملكهم للتمكن من إعادة ملك فارس وسلطان الملة المجوسية ، ثم رسخ بالتقليد في طوائف جهلوا أصله ، ومن

الافراد من يحاول إفساد دين قومه عليهم ليكونوا مثله، فلا يكون محتقراً بينهم ، ومن زنادقة عصرنا من يحاولون هذا لظنهم أن قومهم لا يمكن أن يكونوا كالافرنج في حضارتهم المادية الشهوانية إلا اذا تركوا دينهم

والظالمون في الاحكام يبغونها عوجا بترك تحري ما أمر الله تعالى به من التزام الحق ، وإقامة ميزان العدل ، والمساواة فيهما بين الناس بالقسط ، بأن لا يحابي أحد لعقيدته أو مذهبه ، ولا لغناه أو قوته ، ولا يهضم حق أحد لضعفه أو فقره ، ولا لفسقه أو كفره ، (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) بل منهم من بغى هذه الشريعة العادلة المعتدلة عوجا في أساس نظامها ، وأصول أحكامها ، فجعل حكومتها من قبيل الحكومات الشخصية ، ذات السلطة الاستبدادية ،

والظالمون بالغلو فيها جعلوا يسرها عسراً ، وسعتها ضيقا وحرجاً ، وزادوا على ما شرعه الله من أحكام العبادات ، والمحظورات والمباحات، أضعاف ما أنزله الله في كتابه ، وما صح من سنة رسوله ، مما ضاقت به مطولات الاسفار ، التي تنقضي دون تحصيلها الاعمار ، ومنهم من جعل غاية الاهتداء بها الفقر والمهانة ، والذلة والاستكانة ، خلافا لما نطق به الكتاب من عزة المؤمنين ، وكونهم أولى بزينة الدنيا وطيباتها من الكافرين ،

فهذه أمثلة لمن يبغونها عوجاً من المنتمين اليها والمدعين لهدايتها ، وأما أعداؤها الصرحاء فهم يطعنون في كتاب الله وفي خاتم رسله جهرا بما يختلقون من الافك ، وما يحرفون من الكلم ، وما يخترعون من الشبهات ، وما ينمقون من المشككات ، وأمرهم معروف ، وأجرأهم على البهتان والزور وتعمد قلب الحقائق فريقان — دعاة النصرانية الطامعون في تنصير المسلمين الذين اتخذوا هذه الدعوة حرفة عليها مدار رزقهم ، ورجال السياسة الاستعماريون الطامعون في استعباد المسلمين واستعمار بلادهم ، وكل من الفريقين ظهير للآخر ، فالحكومة السودانية الانكليزية حرمت مجلة المنار على مسلمي السودان بسعي دعاة النصرانية وسعايتهم ، لان دعوتهم لا تروج في قوم يقرؤن المنار

وأما قوله تعالى ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ فهو خاص بمنكري البعث من أولئك الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم شر تلك الفرق كلها — أي وهم على ضلالتهم وإضلالهم كافرون بالآخرة كفراً راسخا

قد صار صفة من صفاتهم فلا يخافون عقاباً على إجرامهم فيتوبوا منه، وتقديم الجار والمجرور (بالآخرة) على متعلقه للاهتمام به فان أصل كفرهم قد علم مما قبله، وهذا النوع منه له تأثير خاص في اصرارهم على ما أسند اليهم ، وقد غفل عن هذا من قال إن التقديم لاجل رعاية الفاصلة

ومن المعلوم أن المؤذن بلعن هؤلاء في الآخرة يصفهم بالظلم ويسند اليهم الصد عن سبيل الله وبغيها عوجاً بصيغة المضارع ويصفهم بالكفر بالآخرة في الآخرة بعد أن زال الكفر بها، بعين اليقين فيها، وفات زمن الصد عنها، وبغيها عوجا . والنكتة في هذا تصوير حالهم التي كانوا عليها في الدنيا ، وترتب عليها ما صاروا اليه في الآخرة ، ليتذكروها هم وكل من سمع التأذين بها ، ويعلموا عدل الله بعقابهم عليها ، فكانت البلاغة أن يعدل هنا عن صيغة الماضي الى صيغة الحال حتى يخيل انه هو الواقع عند إطلاق الكلام، كما كانت البلاغة في العدول عن صيغة الاستقبال في تحاور أهل الجنة وأهل النار الى صيغة الماضي لاثبات القطع به وتحقق وقوعه

﴿وبينهما حجاب﴾ أي وبين الفريقين حجاب يفصل كلا منهما عن الآخر ويمنعه من الاستطراق اليه، والحجاب من الحجب بمعنى المنع كالكفاف من الكف والصوان من الصون — وهو حسي ومعنوي ، والحسي منه مايمنع الاستطراق دون الرؤية كالزجاج وما الرؤية وحدها كالستور ومايمنعهما جميعا كالاسوار والحيطان، ومن الحجب المعنوي منع الارث حرمانا أو نقصانا. وهذا الحجاب بين الجنة والنار هو السور في قوله تعالى من سورة الحديد (٥٧ : ١٣ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) الآية فان الجنة في باطنه والنار من قبل ظاهره ، أي بالنسبة الى مايكون الناس عليه في موقف الحساب، روى البيهقي في الاسماء والصفات عن مقاتل في قوله (فضرب بينهم بسور له باب) قال يعني بالسور حائطا بين أهل الجنة وأهل النار له باب باطنه — يعني باطن السور — فيه الرحمة مما يلي الجنة وظاهره من قبله العذاب يعني جهنم . وهو الحجاب الذي ضرب بين أهل الجنة وأهل النار . وروى هو ورواة التفسير المأثور قبله عن مجاهد في آية الحديد قال : ان المنافقين كانوا مع المؤمنين أحياء في الدنيا يناكحونهم

ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتا ويعطون النور جميعا يوم القيامة فيطفأ نور المنافقين اذا بلغوا السور ، يمازبينهم يومئذ . والسور كالحجاب في الاعراف فيقولون « انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا »

﴿ وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ الاعراف بصيغة الجمع ضرب من النخل وجمع لكلمتي الاعرف والعرف (بوزن مقفل) ويطلق على أعالي الاشياء وأوائلها ، وكل مرتفع من الارض وغيرها ، ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر على أعلى الرقبة وعرف السحاب ، روي عن حذيفة (رض) قال : الاعراف سور بين الجنة والنار و عن ابن عباس (رض) روايات (١) الاعراف هو الشيء المشرف (٢) سور له عرف كعرف الديك (٣) تل بين الجنة والنار جلس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار (٤) السور الذي ذكر الله في القرآن بين الجنة والنار . والتحقيق أن الاعراف هو ذلك السور والحجاب بين الدارين وأهلهما أو أعاليه التي يكون عليها أولئك الرجال الذين يرون أهل الجنة وأهل النار جميعاً قبل الدخول فيهما فيما يظهر فيعرفون كلا منهما بسيماهم التي وصفهم الله تعالى بها في مثل قوله (٨٠: ٣٨ وجوه يومئذ مسفرة ٣٩ ضاحكة مستبشرة ٤٠ ووجوه يومئذ عليها غبرة ٤١ ترهقها قترة ٤٢ أولئك هم الكفرة الفجرة) وأما بعد الدخول فيهما فالتمييز بين الفريقين من تحصيل الحاصل وذكره عبث ينزه عنه التنزيل ، الا اذا أريد معرفة أشخاص معينين وهو لا يظهر هنا وانما يظهر في قوله (ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم) فهذه سيما خاصة لانها لافراد مخصوصين ، وتلك سيما عامة لانها لفريقين أفرادهما غير محصورين ،

وقد اختلف المفسرون فيهم على أقوال عدها القرطبي وغيره اثني عشر قولا وهي على ثلاث مراتب (الاولى) انهم بعض أشراف الخلق الممتازين (والثانية) انهم الذين ليسوا من الاخيار الذين رجحت حسناتهم فاستحقوا الجنة ولا من الاشرار الذين رجحت سيئاتهم فاستحقوا النار ، بل تساوت حسناتهم وسيئاتهم وفي بعض الاحاديث الضعيفة أنهم قوم خرجوا للجهاد في سبيل الله بدون إذن آبائهم واستشهدوا فمنعهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله ومن دخول الجنة معصية آبائهم — وهذا خاص يدخل في العام الذي قبله (والثالثة) أنهم

أصحاب صفة خاصة ليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار بل منزلة بينهما هي الاعراف . وفي هؤلاء أقوال (١) أهل الفترة (٢) مؤمنو الجن ، وروى ابن عساكر فيه حديثا مرفوعا عن أنس بن مالك من طريق الوليد بن موسى الدمشقي وهو منكر الحديث في أعدل الاقوال ورماه بعضهم بالوضع (٣) أولاد المشركين أي الكفار الذين ماتوا قبل سن التكليف (٤) أولاد الزنا (٥) أهل العجب بأنفسهم وهذان القولان لا وجه لهما البتة (٦) آخر من يفصل الله بينهم وهم عتقاؤه من النار وفيه حديث مرسل حسن الاسناد. ويرى بعضهم أن هؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ولكن ورد في الصحاح أن آخر من يدخل الجنة «أقوام كانوا قد امتحشوا في النار لم يعملوا خيرا قط فيخرجهم الله منها ويدخلهم الجنة فيقول فيهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه» وذلك بعد اخراج من في قلبه مثقال ذرة من الايمان من النار ، كما في حديث أبي سعيد الخدري في الصحيحين

وأما القائلون بالمرتبة الاولى فلهم أقوال (١) أنهم ملائكة يعرفون اهل الجنة وأهل النار ، رواه ابن جرير عن أبي مجلز قال الحافظ ابن كثير بعد إيراد الرواية عنه : وهذا صحيح الى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق اه وانما عده غريباً عنه لمخالفته لقول الجمهور ولتسميته الملائكة رجالا وهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، واولوه بانهم في صورة الرجال . وقد اختار هذا القول أبو مسلم الاصفهاني

(٢) انهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجعلهم الله تعالى على أعالي ذلك السور تمييزاً لهم على الناس ولأنهم شهداؤه على الأمم. ورجح هذا القول الرازي (٣) انهم عدول الامم الشهداء على الناس من كل أمة حكاه الزهري ، فكما ثبت أن كل رسول يشهد على أمته وثبت أن أمة محمد (ص) شهداء على جملة من الامم بعده — ثبت أيضا أن في الامم شهداء غير الانبياء عليهم السلام قال الله تعالى (فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) وقال في خطاب هذه الامة (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وقال في صفة يوم القيامة (٣٩ : ٦٦ وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين

والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون) الخ وهؤلاء الشهداء هم حجة الله على الناس في كل زمان بفضائلهم واستقامتهم على الحق والتزامهم للخير وأعمال البر ، ولولاهم لفقدت القدوة الصالحة

(٤) انهم العباس وحمزة وعلي وجعفر ذو الجناحين (رض) يجلسون على موضع من الصراط يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسوادها وهذا القول ذكر الآلوسي أن الضحاك رواه عن ابن عباس ولم نره في شيء من كتب التفسير المأثور، والظاهر أنه نقله عن تفاسير الشيعة وفيه أن أصحاب الاعراف يعرفون كلا من اهل الجنة وأهل النار بسيماهم أي فيميزون بينهم أو يشهدون عليهم وأي فائدة في تمييز هؤلاء السادة على الصراط لمن كان يبغضهم من الامويين ومن يبغضون عليا خاصة من المنافقين والنواصب ؟ وأين الاعراف من الصراط ؟ هذا بعيد عن نظم الكلام وسياقه جدا

(٥) قول مجاهد انهم قوم صالحون فقهاء علماء . وهذا القول انما تعقل حكمته اذا رد الى القول الثالث ولذلك قال ابن كثير: ان فيه غرابة

ورجح الجمهور - بكثرة الروايات - انهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم وفيه ان هؤلاء ليسوا من الرجال وحدهم والتعبير برجال يمنع أن يكون فيهم نساء والتغليب لا يظهر هنا، كما يمنع أن يكونوا من الملائكة خلافا لابي مجلز اذ لو أريد هذا أو ذاك لعبر عنه بلفظ يقبله كان يقول « عباداً يعرفون كلا بسيماهم » وينافي كونهم من الملائكة أيضاً آخر هذه الآية على القول بأن الضمير فيه لاصحاب الاعراف كما ينافي كونهم الانبياء أو الشهداء وكذا الآية التي بعدها، فقد قال تعالى :

﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ أي نادوهم بقولهم سلام عليكم. قيل إن هذا السلام يراد به الاخبار بالسلامة من العذاب والبشارة بالنجاة ان كان قبل دخول الجنة كما هو المتبادر من تمييزهم بين اهل الجنة واهل النار بسيماهم فان هذا التمييز بالسيما انما يكون قبل دخول كل في داره ، وهو المروي عن أبي مجلز وحينئذ يترجح أن يكون اهل الاعراف الانبياء أو الشهداء على الناس منهم ومن غيرهم . وأما ان كان بعد دخولهم الجنة فهو تحية محضة داخلة في عموم قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما)

ولا يمنع هـذا الوجه ولا ذاك ان يكونوا من الملائكة بل ورد التنزيل والحديث الصحيح بتسليم الملائكة على اهل الجنة (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)

وقوله ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ فيه وجهان احدهما انه في اصحاب الاعراف وسيأتي ما روي فيه ، والثاني انه في اهل الجنة والجملة حالية على الوجهين اي نادوهم مسلمين عليهم حال كونهم لم يدخلوها معهم وهم طامعون في ذلك أو حال كون أهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها، لما بدا لهم من يسر الحساب ، ولا سيما اذا كان ذلك بعد المرور على الصراط ، وقد ورد في الآثار أن الناس يكونون في الموقف بين الخوف والرجاء لا تطمئن قلوب اهل الجنة حتى يدخلوها ومن ذلك ما رواه أبو نعيم في حلية الاولياء عن عمر بن الخطاب (ر ض) أنه قال : لو نادى مناد : يا أهل الموقف ادخلوا النار الا رجلا واحدا لرجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نادى : ادخلوا الجنة الا رجلا واحدا لخشيت أن أكون ذلك الرجل اه بالمعنى لا أذكر أي المكانين قدم . وهذا الوجه هو المتبادر من نظم الكلام

﴿ واذا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ افاد هذا التعبير بالفعل المبني المجهول أنهم يوجهون ابصارهم الى اصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون اليهم السلام ، وانهم يكرهون رؤية اصحاب النار فاذا صرفت ابصارهم تلقاءهم أي حولت الى الجهة التي تلقاهم وتبصرهم فيها — وانما يكون ذلك عن غير توخ ولا رغبة ، بل بمقتضى سرعة تحولها من جهة الى جهة — قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين حيث هم ولا حيث يكونون . وهذا الدعاء لا يظهر صدوره من الملائكة الا بتأويل ان لا يكونوا من الموكلين بعذابهم، أو على القول بأن المراد به استعظام حال الظالمين واستفظاع مآلهم ، لا حقيقة الدعاء. ويجاب بهذا الاخير من أنكر أن يكون الانبياء هم اصحاب الاعراف.

والانصاف ان هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم ، روى ابن جرير عن شعبة أن حذيفة رضي الله عنه ذكر أصحاب الاعراف فقال هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم

سيئاتهم عن الجنة فاذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . فبينما هم كذلك اذ طلع عليهم ربك فقال لهم فاذهبوا فادخلوا الجنة فاني قد غفرت لكم . وعن سعيد بن جبير أن ابن مسعود (رض) قال يحاسب الله الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول الله (فمن ثقلت موازينه) الآيتين ثم قال : الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ، قال ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الاعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فاذا نظروا الى أهل الجنة قالوا : سلام عليكم ، واذا صرفت أبصارهم الى يسارهم نظروا الى أهل النار فقالوا (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) تعوذوا بالله من منازلهم (قال) فأما أصحاب الحسنات فانهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً ، فاذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون (قالوا ربنا أتمم لنا نورنا) وأما أصحاب الاعراف فان النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول الله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) فكان الطمع دخولا (قال سعيد) فقال ابن مسعود على أن العبد اذا عمل حسنة كتبها له بها عشراً واذا عمل سيئة لم تكتب الا واحدة ، ثم يقول : هلك من غلب واحدته أعشاره اه

فهذا أوضح بيان مفصل للقول الذي اعتمده الجمهور ، وظاهره ان هذا كله يقع بعد الموقف وقبل أن يجعل هؤلاء الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم على الاعراف فان السور الذي فسرت الاعراف به أو بأعاليه يضرب بعد ذهابهم من الموقف يسيرون بنورهم الى الجنة كما هو ظاهر آية سورة الحديد وقد ذكرناها عند تفسير كلمة الاعراف . وفيه أنه تعالى ذكر معرفتهم لاصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم ونداءهم بالسلام على أهل الجنة ، بعنوان انهم اصحاب الاعراف ولا يصح هذا العنوان قبل وجودهم عليها الا اذا ثبت انهم يسمون اصحابها قبل ذلك او على التأويل بجعله من مجاز الاول كقوله (اعصر خمرا)

---

(٤٧) ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا

مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ

﴿ ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾ كرر ذكرهم مع قرب العهد به قلم يقل (ونادوا) لزيادة التقرير وكون هذا النداء خاصاً في موضوع خاص فكان مستقلا دون ما قبله الموجه الى اهل الجنة في جملتهم . والظاهر ان هذا النداء يكون من بعضهم لمن كانوا يعرفونهم في الدنيا من المستكبرين بغناهم وقوتهم ، المحتقرين لضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم ، أو لحرمانهم من عصبة تمنعهم وتذود عنهم ، الذين كانوا يزعمون ان من أغناه الله تعالى وجعله قويا في الدنيا هو الذي يعطيه نعيم الآخرة ان كان هنالك آخرة (٣٤ : ٣٤ وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ٣٥ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) ومنهم طغاة قريش الذين قاوموا الاسلام في مكة واضطهدوا أهله كابي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل . وقد ذكروا انهم يعرفونهم بسيما أهل النار العامة كسواد الوجوه وزرقة العيون ، والذي يظهر انهم يعرفونهم بسيماهم الخاصة التي كانوا عليها في الدنيا أو بسيما المستكبرين اذ ورد ما يدل على ان لكل من تغلب عليهم رذيلة خاصة صفة وعلامة تدل عليهم ، وفي الصحيح « يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة » فيعرفه فيشفع له فلا تقبل شفاعته ثم يمسخه الله ذيخا منتنا ليزول عن ابراهيم خزيه . قال العلماء ان مسخه ضبعا مناسب لحماقته ونتن الشرك (راجع ص٥٣٨ ج٧ تفسير) والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ، أي ما أغنى عنكم جمعكم للمال ، وكذا للرجال عند القتال ، واستكباركم على المستضعفين والفقراء من أهل الايمان ، وهو لم يمنع عنكم العذاب ، ولا أفادكم شيئاً من الثواب ؟ .

﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ ﴾ أي يشيرون الى أولئك المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم ويعذبونهم في الدنيا كآل ياسر وصهيب الرومي وبلال الحبشي ، ويقولون لهم متهكمين بخزيهم وفوز من كانوا يحتقرونهم : أهؤلاء الذين أقسمتم في الدنيا على ان الله تعالى لا ينالهم برحمة لانهم لم يعطهم

من الدنيا ما أعطاكم ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ أي قيل لهم من قبل الرحمن عز وجل : أدخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون في مستقبل أمركم، ولا أنتم تحزنون من شيء ينغص عليكم حاضركم ، وحذف القول للعلم به من قرائن الكلام كثير في التنزيل ، وفي كلام العرب الخلص . ولكنه قل في كلام المولدين، حتى لا تراه الا في كلام بعض بلغاء المنشئين ، وقيل ان أهل الاعراف هم الذين يقولون لهؤلاء ادخلوا الجنة الخ وهو بعيد بل لا يصح مطلقاً على القول بأنهم الذين استوت حسناتهم وسيآتهم اذ لا يليق بحالهم أن يخاطبوا من هم فوقهم بهذا الامر لا قبل دخول الجنة ولا بعده : وهو وان كان يليق من الملائكة أو الانبياء عليهم الصلاة والسلام فالمتبادر الاول وهو الحكاية بتقدير القول وروي عن عكرمة. وقيل ان الامر بدخول الجنة لاصحاب الاعراف. روي عن الربيع بن أنس في تفسير الآية قال : كان رجال في النار قد أقسموا بالله لا ينال أصحاب الاعراف من الله رحمة فأكذبهم الله فكانوا آخر أهل الجنة دخولا فيما سمعناه عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ضعيف معارض بما في الصحاح في آخر اهل الجنة دخولا وتقدم آنفا.

وجملة القول في أصحاب الاعراف ان ماحكاه تعالى عنهم يحتمل أن يكون في أثناء الموقف او بعد المرور على الصراط وقبل دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وأن يكون بعد ذلك فالاول يرجح أنهم الانبياء وحدهم او مع غيرهم من الشهداء على الخلق لان وجودهم هنالك تمييز وتفضيل على جميع أهل الموقف ولا يصح هذا لغيرهم الا أن يكون للملائكة وهو ما يمنع منه ما تقدم في موضعه. والثاني والثالث يرجحان أنهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم بمعونة كثرة الروايات فيه، يوقفون على الاعراف طائفة من الزمن يظهر فيها عدل الله تعالى بعدم مساواتهم باصحاب الحسنات الراجحة بدخول الجنة معهم ولا باصحاب السيئات الراجحة بدخول النار معهم، ولو بقوا في هذه المنزلة بين المنزلتين لكان عدلا ولكن ورد أنه تعالى يعاملهم بعد هذا العدل بالفضل ويدخلهم الجنة ، ولا بد أن يكون ذلك قبل اخراج من يعذبون في النار من المؤمنين الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم ، والدليل على عدم بقاء احد في منزلة بين الجنة والنار ماورد من الآيات الكثيرة في القسمة الثنائية (فريق في الجنة وفريق في السعير)

وكل من تلك الاحتمالات التي يبنى عليها الترجيح بين هذين القولين له مرجحات من الآيات كما علم من تفسيرنا لها ، وقد يكون من مرجحات الثاني او الثالث وضع هذه الآيات بين نداء اهل الجنة أهل النار : أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا — الآية ، ونداء أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء والطعام الذي يتمتعون به — في قوله عز وجل :

---

(٤٩) ونَادى أَصْحٰبُ النَّارِ أَصْحٰبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَـاء أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالوا إِن اللهَ حَرَّمَهُمَا على الْكافِرِينَ (٥٠) الذينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا ولعبًا وغَرَّتْهُمُ الحَيٰوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسٰهُمْ كما نَسُوا لِقَـاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وما كانُوا بآيَتِنَا يجحَدُونَ

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ هذا الطلب يدل على ان حالة الآخرة تقتضي إمكان إفاضة أهل الجنة الماء وغيره على اهل النار على ما بين المكانين من الارتفاع والانخفاض وقد بينا وجهه المعقول في مقدمة تفسير هذا السياق . وإفاضة الماء صبه ومادّة الفيض فيها معنى الكثرة ؛ وما رزقهم الله يشمل الطعام وغير الماء من الأشربة و« أو » في قوله « أو مما رزقكم الله » للتخيير فهي لا تمنع الجمع بين المـاء والطعام ، ويقدر بعضهم فعلا مناسباً للرزق على حد * علفتها تبناً وماء باردا * والصواب ان الفيض والافاضة يستعملان في غير الماء والدمع فيقال فاض الرزق والخير وأفاض عليه النعم ، ومن الامثال أعطاه غيضاً من فيض — أي قليلا من كثير . وعدّ الزمخشري الافاضة في الحديث من الحقيقة خلافا للراغب الذي جعلها استعارة . والمعنى أن أهل النار يستجدون أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام ، وقدموا طلب الماء لان من كان في « سموم وحميم » يكون شعوره بالحاجة الى الماء البارد أشد من شعوره بالحاجة الى الطعام الطيب .

روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذا الاستجداء : ينادي الرجل أخاه

فيقول ياأخي أغثني فاني قد احترقت فأفض علي من الماء ، فيقال أجبه ،فيقول ان الله حرمهما على الكافرين . وعن ابن زيد في الطلب قال : يستسقونهم ويستطعمونهم – وفي قوله « حرمهما » قال طعام الجنة وشرابها . وروى عبد الله بن احمد في زوائد الزهد والبيهقي في شعب الايمان ان عبد الله بن عمر (رض) شرب ماء باردا فبكى فسئل مايبكيك ؟ قال ذكرت آية في كتاب الله (وحيل بينهم وبين مايشتهون) فعرفت أن أهل النار لايشتهون الا الماء البارد وقد قال الله عز وجل (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) اه وفيه أن الآية لاحصر فيها. وفي الشعب والتفسير المأثور عنه أيضاً انه سئل أي الصدقة أفضل ؟ فقال قال رسول الله (ص) «أفضل الصدقة سقي الماء. ألم تسمع الى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) وروى احمد عن سعد بن عبادة ان امه ماتت فقال يارسول أتصدق عليها؟ قال « نعم» قال فاي الصدقة أفضل ؟ قال «سقي الماء »

﴿ قالوا ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ الحرام في اللغة الممنوع ، والتحريم وهو المنع قسمان : تحريم بالحكم والتكليف كتحريم الله الفواحش والمنكرات وأرض الحرم أن يؤخذ صيدها أو يقطع شجرها أو يختلى خلاها (أي يقلع حشيشها الرطب) وتحريم بالفعل أو القهر كتحريم الجنة وما فيها على الكافرين في هذه الآية وفي قوله (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) أي قال اهل الجنة جوابا عن هذا الاستجداء : ان الله قد حرم ماء الجنة ورزقها على الكافرين كما حرم عليهم دخولها ، فلا يمكن إفاضة شيء منها عليهم وهم في النار ، فان لهم ماءها الحميم، وطعامها من الضريع والزقوم

ذكروا من وصف الكافرين أنهم هم الذين كانوا سبب هذا الحرمان وهو أنهم اتخذوا دينهم أعمالا لا تزكي الانفس فتكون أهلا لدار الكرامة بل هي إما لهو وهو مايشغل الانسان عن الجد والاعمال المفيدة بالتلذذ بما تهوى النفس، واما لعب وهو ما لا تقصد منه فائدة صحيحة كاعمال الاطفال ، وغرتهم الحياة الدنيا فكان كل همهم التمتع بشهواتها ولذاتها ـ حراما كانت أو حلالا ـ لانها مطلوبة عندهم لذاتها .

واما اهل الجنة فهم الذين سعوا لها سعيها باعمال الايمان التي تزكي الانفس وترقيها فلم يغتروا بالحياة الدنيا. بل كانت الدنيا عندهم مزرعة الآخرة لا مقصودة لذاتها. لذلك كانوا يقصدون بالتمتع بنعم الله فيها الاستعانة بها على ما يرضيه من إقامة الحق وعمل الخير والاستعداد للحياة الابدية

ومن اراد التفصيل في هذا الموضوع فليرجع الى تفسير « ٦ : ٢٩ وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ـ الى قوله ـ ٣٢ وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون »[1] وفيه بحث طويل في اللعب واللهو ونكتة تقديم اللعب على اللهو فيها وفي بعض الآيات وتقديم اللهو على اللعب في آية الاعراف التي نحن بصدد تفسيرها . وليراجع أيضا تفسير قوله تعالى ٦ : ٧ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا)[2] وفيه خمسة أوجه في تفسير اتخاذ الدين لعبا ولهوا .

﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ هذا من قول الله عز وجل مرتب على ما قبله ترتب المسبب على السبب ، والمراد باليوم يوم الجزاء وهو محدود بالعمل الذي هو الجزاء وان لم يعرف له مقدار، والمراد نعاملهم معاملة المنسي الذي لا يفتقد كما جعلوا هذا اليوم منسيا أو كالمنسي بعدم الاستعداد والتزود له ، والظاهر أن الكاف هنا للتعليل كقوله (واذكروه كما هداكم) أي لهدايته لكم لا للتشبيه — على أنه يصح هنا معنى على حد المثل : الجزاء من جنس العمل ، ولكن لا يصح فيما عطف عليه من قوله

﴿ وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ بل يتعين فيه التعليل : فنسيان الله لهم المراد به حرمانهم من نعيم الجنة ـ معلول بنسيانهم لقاء يوم الجزاء اذ المراد به ترك العمل له وبجحودهم بآيات الله الذي هو عبارة عن الكفر بدينه ورفض ماجاءت به رسله ظلما وعلوا ، فينطبق على سائر الآيات الناطقة بأن الجزاء في الدارين على الاعتقاد والعمل جميعا

﴿ تنبيه وتصحيح ﴾ بعد طبع الكراسة التي قبل هذه ظهر لنا ان الاحتمالات فيما حكي عن اصحاب الاعراف ثلاثة : ان يكون في اثناء الموقف او بعد المرور على الصراط او بعد دخول كل من اصحاب الجنة والنار فيهما، والثاني كالثالث في ترجيح قول الجمهور فيهم

(١) ص ٣٥٧ ـ ٣٧٠ ج ٧ تفسير (٢) ص ٥١٨ ج ٧ تفسير أيضاً

(٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ: قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

ما تقدم من بيان الجزاء وحال أهل الجنة وأهل النار انذار عام وموضوعه عام الا أنه ألقي بادىء بدء على اهل مكة ومن وراءهم من العرب فلهذا جوز المفسرون في ضمائر هاتين الآيتين أن تكون عامة تشمل الامم السالفة ويكون الكتاب في الاولى منهما للجنس ، وأن تكون خاصة بهذه الامة . وموقعها مما قبلها على الوجهين واحد وهو بيان حجة الله على البشر كافة ، وازاحة علل الكفار وابطال معاذيرهم ان لم يستعدوا لذلك الجزاء بعد انزال الكتب وارسال الرسل، والمختار عندنا الثاني

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أي ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن ، كامل التبيان ، وهو القرآن ، فصلنا آياته تفصيلا على علم منا بما يحتاج اليه المكلفون من العلم والعمل لتزكية أنفسهم ، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ؛ حال كونه أو لاجل أن يكون بذلك منار هداية عامة، وسبب رحمة خاصة، لقوم يؤمنون به ايمان اذعان يبعث على العمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به اذا لم يهتدوا به، ولم يرضوا لانفسهم ان تكون اهلا لرحمته

التفصيل عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولا بعضها من بعض بما يزيل الاشتباه ، واختلاط بعضها ببعض في الافهام ، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدته ، ولا التطويل ببيان جميع فروعه ، ففي القرآن تفصيل كل شيء نحتاج اليه في أمر ديننا : أسهب حيث ينبغي الاسهاب ، وأوجز حيث يكفي الايجاز

مثال ذلك في العقائد أن البشر قد فتنوا بالشرك ، ولبس على أكثرهم الامر ، ففرقوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الالهية ، اذ ظنوا أن الايمان بوحدة الرب خالق الخلق ومدبر أموره هو الواجب له المتحتم أن يكون له شريك فيه ، دون توحيد الالهية وهو عبادته وحده ، وانه لا يضر التوجه الى غيره كما يتوجه اليه بالدعاء ، وطلب ما يعجز المرء عن نيله من طريق الاسباب ، وهذا مخ العبادة ومحضها ، وكل من يدعي مثل هذا الدعاء فقد اتخذ معبودا وإلها ، وشبهتهم في القديم والحديث ان اتخاذ ولي مع الله بقصد التقرب والتوسل به اليه وشفاعته عنده مما يرضيه ، وان المحظور هو الاستغناء به عنه ، ومأخذ هذا ما يعهدون من الملوك الظالمين الذين يتقرب اليهم الرعايا الضعفاء المستذلون بوزرائهم ، ويتوسلون اليهم بحواشيهم وحجابهم ، فلاجل هذه الشبهات كرر القرآن إبطال هذا الشرك ، وأطنب في تفصيله كل الاطناب

ومثاله في العبادات العملية أن صفة الصلاة وعدد ركعاتها مما يكفي فيه القدوة والتأسي بالرسول الموكول اليه بيان التنزيل فلهذا لم يبينها القرآن على الوجه الذي تؤدى به ، ولكنه كرر الامر باقامتها أي الاتيان بها على أقوم وجه وأكمله وبين حكمتها وفائدتها في عدة آيات ، لان الاقامة والحكمة مما يغفل عنه أكثر الناس

ومثاله في العلم الذي هو أساس الايمان الصحيح والارتقاء في الدين والدنيا ان أكثر البشر كانوا قد ألفوا فيه التقليد والاخذ بأقوال من يثقون بهم من آبائهم ورؤساء دينهم ودنياهم ، فلهذا كرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين ، وجهل الظانين والمرتابين ، وكرر الحث على النظر والاستدلال ، والاعتماد على البرهان ، والتنبيه على المعرضين عن آيات السموات والارض وما فيها من جماد ونبات وحيوان ، وعن حكمه الخاصة في خلق الانسان ، فبمثل هذا التفصيل كان الاسلام دين العلم والعقل ، وكان القرآن ينبوع الهدى والحكمة والرحمة ، فيا حسرة على المحرومين من رحمته ، ويا شقاء الطاعنين في هدايته

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أي ليس أمامهم شيء ينتظرونه في أمره إلا وقوع تأويله ، وهو ما يئولون اليه ما أخبرهم من أمر الغيب الذي يقع في المستقبل في الدنيا ثم في الآخرة ، فالنظار هنا بمعنى الانتظار ، وتأويل الكلام كتأويل

الرؤيا هو حادثتهما ، والمآل الذي يتحقق به المراد منهما ، وتقدم في أول تفسير آل عمران تفصيل الكلام فيه . وروي عن قتادة في تفسير « هل ينظرون إلا تأويله » قال عاقبته ، وعن السدي قال عواقبه مثل وقعة بدر والقيامة وما وعد فيه من موعد ، وعن الربيع بن أنس قال : لا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة حين يدخل أهل الجنة الجنة واهل النار النار فيتم تأويله يومئذ الخ فهو من كلامه الى ما له مآل ينتظر من اخبار القرآن الصادقة التي وعد وأوعد بها كلا من المؤمنين من نصر وثواب ، والكافرين من خذلان وعقاب ، وغير ذلك من أنباء الغيب

﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي يوم يأتي كل تأويله ونهايته في يوم القيامة وتزول كل شبهة يقول الذين نسوه في الدنيا أي تركوه كالمنسي فلم يهتدوا به ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أي بالامر الثابت المتحقق فماريناهم به وأعرضنا عنه حتى جاء وقت الجزاء عليه ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ أي يتمنون أحد هذين الامرين ، فالاستفهام هنا للتمني ، ويحتمل أن يكون على أصله فيقع قبل دخول النار ، وبعد اليأس ثانيا من الشفعاء ، حيث يقولون فيها كما في سورة الشعراء (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم * فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) وقد تقدم في سورة الانعام أنه يقال لهم (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) وانما يتمنون الشفعاء أو يتساءلون عنهم أولا لان قاعدة الشرك الاساسية ان النجاة عند الله وكل ما يطلب منه انما يكون بواسطة الشفعاء عنده ، وعند ما يتبين لهم الحق الذي جاءت به الرسل وهو ان النجاة والسعادة انما تكون بالايمان الصحيح والعمل الصالح ، ويعلمون هنالك ان الشفاعة لله وحده ، فلا يشفع أحد عنده الا باذنه ، (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) يتمنون لو يردون الى الدنيا ، فيعملوا فيها غير ما كانوا يعملون في حياتهم الأولى ، لاجل أن يكونوا أهلا لمرضاته بأن يعملوا بما أمرتهم به الرسل عليهم السلام ، وقد تقدم في (آيتي ٢٧ و٢٨) من سورة الانعام تمنيهم لو يردون الى الدنيا ، فيكونوا من المؤمنين ، وانهم

لوردوا لعادوا لما نهوا وانهم لكاذبون (١)

﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ هذا بيان من الله تعالى لجاهلهم وغاية تمنيهم يقول : قد خسروا أنفسهم في الدنيا بتدسيسها وتدنيسها بالشرك والمعاصي ، وعدم تزكيتها بالتوحيد والفضائل والاعمال الصالحات ، فلم يكن لها حظ في الآخرة ، ويومئذ يضل ويغيب عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء كقولهم في معبوداتهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فلم يكن لهم من عوض عن أنفسهم . وقد تقدم تفسير خسران النفس في (س ٦ : ١٢ و٢٠) (٢) وتفسير (وضل عنهم ما كانوا يفترون) في (٦ : ٢٤) ونحوها (٦ : ٩٤ وما نرى معكم شفعاءكم - الى قوله - وضل عنكم ما كنتم تزعمون) (٣)

(٥٣) إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

بين الله تعالى في الآيتين اللتين قبل هذه الآية وبعد آيات الجزاء والمعاد سبب هلاك الكافرين وخسران أنفسهم بالشرك في ألوهيته ، وعبادة من اتخذوهم شفعاء عنده بغير اذنه ، وعدم اتباع الرسل الذين دعوهم الى عبادته وحده بما شرعه لهم ، دون ما ابتدعوه أو ابتدعه لهم من قبلهم ، ثم قفى على ذلك بخمس آيات جامعة لجملة ما جاءت به الرسل من الدين بايجاز بليغ ، ابتدأها بآية الخلق والتكوين ، الهادية الى حقيقة الربوبية والالوهية برهانا على أصل الدين ، فقال عز وجل :

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ﴾ الرب هو السيد والمالك والمدبر المربي ، والاله هو المعبود أي الذي يتوجه اليه الانسان عند الشعور بالحاجة الى ما يعجز عنه بكسبه ومساعدة الاسباب له ، فيدعو لكشف الضر أو جلب النفع ، ويتقرب اليه بالاقوال والاعمال

(١) راجع ص ٣٥٠ ج ٧ تفسير (٢) ص ٣٢٧ (٣) ص ٣٤٦ و٦٢٨ ج ٧

التى يرجى ان ترضيه، وبالنذر له والذبح باسمه أو لاجله ، سواء كان الرجاء فيه خاصا به أومشتركا بينه وبين معبود آخر هو فوقه أو دونه . وأما اسم الجلالة الاعظم (الله) فهو اسم لرب العالمين خالق الخلق أجمعين، الذي ينفي الموحدون الحنفاء ربوبية غيره وألوهية سواه، ويقول بعض المشركين انه أكبر الارباب أو رئيسهم وأعظم الآلهة أو مرجعهم الذى يشفعون عنده ، وكان مشركو العرب وامثالهم ينفون وجود رب سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم اليه

والسموات والارض يطلقان في مثل هذا المقام على كل موجود مخلوق أو ما يعبر عنه بعض الناس بالعالم العلوي والعالم السفلي — وان كان العلو والسفل فيهما من الامور الاضافية — وقد اجمعت الامم على ان خالق جملة العالم واحد هو رب العالمين. والذين اتخذوا من دون الله أربابا كانوا يقيدون ربوبيتهم بأمور معينة وكل اليهم تدبيرها، ويسمونهم بأسماء تدل على ذلك كما تقدم بيانه في تفسير قصة ابراهيم عليه السلام من سورة الانعام . ويخصون خالق كل شيء باسم كاسم الجلالة (الله) في العربية . الا الثنوية الذين قالوا بربين مستقلين احدهما خالق النور وفاعل الخير، والثانى خالق الظلمة ومصدر الشر

فالله تعالى يقول في هذه الآية للناس كافة ان ربكم واحد وهو الله الذى خلق السموات والارض في ستة ايام وهو المدبر لامورهما وحده، فيجب ان تعبدوه وحده، فلا يكون لكم اله غيره. وقد تطلق السموات مادون العرش من العالم العلوي ولا سيما اذا وصفت بالسبع

واما هذه الايام الستة فهي من أيام الله التي يتحدد اليوم منها بعمل من اعماله يكون فيه، فان اليوم في اللغة هو الزمن الذى يمتاز فيه من غيره كامتياز ايامنا عما يحدها من النور والظلام، وايام العرب بما كان فيها من الحرب والخصام، وأيام الله التي أمر موسى أن يذكر قومه بها ، أي أزمنة نعمه عليهم . وقد قال تعالى (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ووصف يوم القيامة بقوله (في يوم كان مقداره خمسين الف سنة) ولا يعقل ان تكون هذه الايام من ايام ارضنا ، التي يحد ليل اليوم ونهاره منها بأربع وعشرين ساعة من الساعات المعروفة عندنا ، فان هذه الايام انما وجدت بعد خلق هذه الارض فكيف يكون أصل خلقها في ايام منها . وقد وصف تعالى خلقها وخلق السماء

في سورة (حم السجدة) بما يدل على هذه الايام فقال (٤١: ٨ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين (١٠) ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا اتينا طائعين (١١) فقضاهن سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء امرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) ووصف اصل تكوينهما وحال مادتهما في سورة الأنبياء بقوله (٢١: اولم ير[1] الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون) فيؤخذ من هذه الآيات مسائل:

(١) ان المادة التي خلقت منها السموات والارض كانت دخاناً أي مثل الدخان كما قال الراغب في مفردات القرآن، وفسره الجلال الدخان بالبخار المرتفع، وذهب البيضاوي الى انه جوهر ظلماني، قال: ولعله اراد به مادتها او الاجزاء المتصغرة التي ركبت منها.

(٢) ان هذه المادة الدخانية كانت واحدة ففتقها الله رتقها أي فصل بعضها من بعض فخلق منها هذه الارض والسموات العلى

(٣) ان خلق الارض كان في يومين وتكون اليابسة والجبال الرواسي فيهما ومصادر القوت وهي أنواع النبات والحيوان في يومين آخرين تتمة أربعة أيام،

(٤) ان جميع الاحياء النباتية والحيوانية خلقت من الماء

فيؤخذ من هذا ان اليوم الاول من أيام خلق الارض هو الزمن الذي كانت فيه كالدخان حين فتقت من رتق المادة العامة التي خلق منها كل شيء مباشرة أو غير مباشرة، وان اليوم الثاني هو الزمن الذي كانت فيه مائية، بعد أن كانت بخارية أو دخانية، وان اليوم الثالث هو الزمن الذي تكونت فيها اليابسة ونتأت منها الرواسي فتماسكت بها، وان اليوم الرابع الزمن الذي ظهرت فيه اجناس الاحياء من الماء وهي النبات والحيوان، فهذه أربعة لأطوار من الخلق قد تكون متداخلة. وأما السماء العامة وهي العالم العلوي بالنسبة الى أهل

(١) الرؤية هنا علمية لا بصرية والمعنى انه ينبغي لهم أن يعلموا ان السموات والارض كانتا رتقا الخ

obeikandi.com

الارض فقد سوى أجرامها من مادتها الدخانية في يومين اي زمنين كالزمنين اللذين خلق فيهما جرم الارض، وسيأتي الكلام في هذه السموات في موضعه

هذا التفصيل الذي يؤخذ من مجموع الآيات يتفق مع المختار عند علماء الكون في هذا العصر من أن المادة التي خلقت منها هذه الاجرام السماوية وهذه الارض كانت كالدخان ويسمونها السديم وكانت مادة واحدة رتقا ثم انفصل بعضها من بعض ، ويصورون ذلك تصويرا مستنبطاً مما عرفوا من سنن الخلق اذا صح كان بيانا لما أجمل في الآيات، واذا لم يصح كله أو بعضه لم يكن ناقضاً لشيء منها . فهم يقولون ان تلك المادة السديمية كانت مؤلفة من أجزاء دقيقة متحركة، وانها قد تجمع بعضها وانجذب الى بعض بمقتضى سنة الجاذبية العامة ، فكان منها كرة عظيمة تدور على محور نفسها، وان شدة الحركة أحدثت فيها اشتعالا فكانت ضياء — أي نورا ذا حرارة، وهذه الكرة الاولى من عالمنا هي التي نسميها الشمس

ويقولون أيضاً ان الكواكب الدراري التابعة لهذه الشمس فيما نشاهد من نظام عالمنا هذا قد انفتقت من رتقها ، وانفصلت من جرمها ، وصارت تدور على محاورها مثلها . ومنها أرضنا هذه فقد كانت مشتعلة مثلها . ثم انتقلت من طور الغازات المشتعلة الى طور المائية في زمن طويل بنظام مقدر بكثرة مافيها من العنصرين الذين يتكون منهما بخار الماء، فكانا يرتفعان منها في الجو فيبردان فيكونان بخاراً فماء ينجذب اليها ثم يتبخر منها حتى غلب عليها طور المائية . ثم تكونت اليابسة في هذا الماء بتجمع موادها طبقة بعد طبقة، وتولدت فيها المعادن والاحياء الحيوانية والنباتية بسبب حركة أجزاء المادة وتجمع بعضها على بعض بنسب ومقادير مخصوصة . وقد ظهر بالبحث والحفر أن بعض طبقات الارض خالية من آثار الحيوان والنبات جميعاً فعلم أن تكونها كان قبل وجودهما فيها

فهذه الاقوال وما فصلوها به مما رأوه أقرب النظريات الى سنن الكون وصفة عناصره البسيطة وحركتها، وتكون المعادن منها، والمادة الزلالية ذات القوى التي بها كانت أصل العوالم الحية كالتغذي والانقسام والتولد وهي التي يسمونها (برتوبلاسما) وصفة تكون الخلايا التي تركبت منها الاجسام العضوية — كل ذلك تفصيل لخلق العوالم أطوارا بسنن ثابتة وتقدير منظم لم يكن منه

شيء جزافا ، وقد أرشد الكتاب الحكيم الى هذه الحقائق العامة — الثابتة في نفسها ، وان لم يثبت كل ما قالوه من فروعها ومسائلها — بمثل قوله (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقوله (٢٥ : ٢ وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وقوله حكاية عن رسوله نوح عليه السلام مخاطبا لقومه (٧١ : ١٣ ما لكم لا ترجون لله وقاراً (١٤) وقد خلقكم أطواراً (١٥) ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا (١٦) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٧) والله أنبتكم من الارض نباتاً) فمن دلائل إعجاز القرآن أنه يبين الحقائق التى لم يكن يعرفها أحد من المخاطبين بها في زمن تنزيله بعبارة لا يتحيرون في فهمها والاستفادة منها مجملة ، وان كان فهم ما وراءها من التفصيل الذي يعلمه ولا يعلمونه يتوقف على ترقي البشر في العلوم والفنون الخاصة بذلك

وقد سبق علماء الاسلام الى كثير مما يظن الآن ان علماء الافرنج قد انفردوا به من مسائل نظام الخلق . ومن ذلك قول الفخر الرازي : الاشبه ان هذه المعمورة كانت في سالف الزمان مغمورة في البحار فحصل فيها طين لزج كثير فتحجر بعد الانكشاف وحصل الشهوق بحفر السيول والرياح ولذلك كثرت فيها الجبال . ومما يؤكد هذا الظن أنا نجد في كثير من الاحجار اذا كسرناها أجزاء الحيوانات المائية كالاصداف والحيتان اه

يظن بعض قصيري النظر وضعيفي الفكر أن الخلق الانف الجزاف، الذي لا تقدير فيه ولا تدريج نظام، أدل على وجود الخالق وعلى عظمة قدرته. ويقوي هذا الظن عند بعض الناس ما علم من كفر بعض الباحثين في نظام الخلق والتكوين وسننه بالخالق عز وجل وان كان كفرهم ذهولا واشتغالا عن الصانع بدقة الصنعة، وتجويزاً لحصول النظام فيها بنفسه مصادفة واتفاقا. والصواب المعقول أن النظام أدل الدلائل على الارادة والاختيار والعلم والحكمة في آثار القدرة ، وعلى وحدانية الخالق، فان وحدته في العالم أظهر البراهين على وحدة الرب تعالى. وما لا نظام فيه هو الذي قد يخطر في بال رائيه أن وضعه أمر اتفاقي أو من قذفات الضرورة العمياء أو بفعل اكثر من واحد . وأي عاقل لا يفرق بين كومة من الحصى يراها في الصحراء وبين قصر مشيد فيه جميع ما يحتاج اليه مترفو الاغنياء من حجرات ومرافق ؟ أفيعقل أن يكون النظام العام في العالم الاكبر

ووحدة السنن التي قام بها بالمصادفة ؟ أو أثر ارادات متعددة ؟

(فان قيل) قد ورد في الاخبار والآثار أن هذه الايام الستة هي من أيام دنيانا واقتصر عليه بعض مفسرينا . وفي حديث أخرجه احمد في مسنده ومسلم في صحيحه عن ابي هريرة قال : أخذ رسول الله (ص) بيدي فقال « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الاحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل » وهذا ظاهر في أن الخلق كان جزافا ودفعة واحدة لكل نوع في يوم من أيامنا القصيرة

(فالجواب) أن كل ماروي في هذه المسألة من الاخبار والآثار مأخوذ من الاسرائيليات لم يصح فيها حديث مرفوع، وحديث أبي هريرة هذا وهو اقواها مردود بمخالفة متنه لنص كتاب الله وأما سنده فلا يغرنك رواية مسلم له به فهو قد رواه كغيره عن حجاج بن محمد الاعور المصيصي عن ابن جريج وهو قد تغير في آخر عمره ، وثبت أنه حدث بعد اختلاط عقله ، كما في تهذيب التهذيب وغيره . ولعل هذا الحديث مما حدث بعد اختلاطه . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد ايراده في تفسير الآية : وفيه استيعاب الايام السبعة والله تعالى قال (في ستة أيام) ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الاحبار ليس مرفوعا والله أعلم اه أي فيكون رفعه أبي هريرة له من خلط حجاج بن الاعور . وقد هدانا الله من قبل الى حمل بعض مشكلات أحاديث أبي هريرة الممتنعة على الرواية عن كعب الاحبار الذي ادخل على المسلمين شيئا كثيراً من الاسرائيليات ، وخفي على كثير من المحدثين كذبه ودجله لتعبده ، وقد قويت حجتنا على ذلك بطعن اكبر الحفاظ في حديث عزي اليه فيه التصريح بالسماع . على ان رواة التفسير المأثور اخرجوا عن كعب خلاف هذا : كرواية ابن ابي شيبة عنه انه قال : بدأ الله بخلق السموات والارض يوم الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وجعل كل يوم الف سنة . وثمة آثار أخرى عن مفسري السلف في تقدير اليوم منها بألف سنة منها رواية الضحاك عن ابن عباس . ومثله عن مجاهد واحمد بن حنبل ، وهذا دليل

على انهم وان سموا تلك الايام بأسماء أيامنا فانهم لا يعنون أنها منها، على أن الخمسة الاولى مأخوذة من أسماء الاعداد الاولى

و في حديث أبي هريرة عند احمد ومسلم وغيرهما أن آدم خلق يوم الجمعة فاذا لم يكن هذا مما رواه عن كعب من الاسرائيليات فلا خلاف في أن خلق آدم قد كان بعد أن تم خلق الارض وصارت أيامها كما نعلم ، فنقول ان الله أعلم رسوله ان ذلك اليوم هو الذي سمي بعد ذلك بالجمعة، والظاهر أنه لا يعد من الايام الاربعة التي خلقت فيها الارض كما في سورة حم السجدة

وسرد الآيات التي خلقت فيها السموات والارض في سفر التكوين يخالف بتفصيله ما قرره علماء الكون مخالفة صريحة تتعاصى على التأويل وقد اعترف بذلك العلماء الذين خدموا الدين من أهل الكتاب . ولم يعدوا هذه المخالفة على كثرة مسائلها مطعنا في كون سفر التكوين وحياً كسائر أسفار التوراة . وجزموا بتفسير اليوم بالزمن الطويل وان ورد في وصف كل منها : « وكان مساء وكان صباح » وهاك أمثل حل للاشكال عندهم :

قال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس بعد تلخيص الفصلين الاول والثاني من سفر التكوين : واذا قال احد ان قصة الخليقة في هذين الاصحاحين لا تطابق في كل شيء علم الهيئة والجيولوجيا (اي علم طبقات الارض) والنبات والحيوان أجبنا

(أولا) ان الكلام عن الخليقة في هذه الآية ليس كلاما علميا

(ثانيا) إنه يطابق قواعد العلم الرئيسية مطابقة غريبة لا يسعنا البحث عنها هنا مليا ، فقد أجمع العلماء على أن المادة قبل النور ولازمة لظهور النور وان النور المنتشر قد سبق جمع المادة على هيئة شموس وسيارات ، وان الاجرام السماوية لم تظهر للواقف على سطح الارض قبل فصل الابخرة عن سطحها وتكوين الجلد ، وان كل هذه الاشياء سبقت الحياة النباتية والحيوانية وان الانسان آخر الخليقة الحيوانية اهـ

ونقول إن في هذا الاجماع الذي ادعاه أبحاثا لا حاجة الى الخوض فيها هنا ولو أن القرآن هو الذي فصل ذلك التفصيل للخليقة لما رضي منا بوست بمثل هذا التأويل في الرد على من كانوا ينكرون عليه كما أنكروا على التوراة. ومن

الظاهر الجلي أن سنن التكوين موضوع لبيان صفة الخلق بالتفصيل فلا يصح أن يخالف الواقع اذا كان وحيا من الله، ولما القرآن فلم يذكر ذلك الا لاجل الاستدلال به على وحدانية الرب واستحقاقه للعبادة وحده كما بينا آنفاً .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي ثم إنه سبحانه وتعالى قد استوى بعد تكوين هذا الملك على عرشه كما يليق به يدبر أمره ويصرف نظامه حسب تقديره الذي اقتضته حكمته فيه كما قال في سورة يونس (١٠ : ٣ ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع إلا من بعد اذنه) وفي سورة الرعد (١٣ : ٢ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (٣) وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وهو بمعنى ما هنا .

العرش في الاصل الشيء المسقف كما قال الراغب وبينا اشتقاقه في تفسير الجنات المعروشات من سورة الانعام . ويطلق على هودج للمرأة يشبه عريش الكرم وعلى سرير الملك يركبه الرسمي في مجالس الحكم والتدبير .

وحقيقة الاستواء في اللغة التساوي واستقامة الشيء واعتداله ، ومن المجاز كما في الاساس : استوى على الدابة وعلى السرير والفراش ، وانتهى شبابه ، واستوى على البلد اه وقال في مادة عرش : واستوى على عرشه — اذا ملك ، وثل عرشه — اذا هلك اه . وفي المصباح : واستوى على سرير الملك — كناية عن التملك وان لم يجلس عليه ، كما قيل مبسوط اليد مقبوض اليد كناية عن الجود والبخل اه

لم يشتبه أحد من الصحابة في معنى استواء الرب تعالى على العرش على علمهم بتنزهه سبحانه عن صفات البشر وغيرهم من الخلق اذ كانوا يفهمون ان استواءه تعالى على عرشه عبارة عن استقامة أمر ملك السموات والارض له وانفراده هو بتدبيره . وان الاخبار بذلك لا يتوقف على معرفة كنه ذلك التدبير وصفته وكيف يكون ، بل لا يتوقف على وجود عرش ، ولكن ورد في الكتاب والسنة ان لله عرشاً خلق قبل خلق السموات والارض . وأن له حملة من الملائكة ، فهو كما تدل اللغة مركز تدبير العالم كله قال تعالى في سورة هود (١١ : ٧

وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) ولكن عقيدة التنزيه القطعية الثابتة بالنقل والعقل كانت مانعة لكل منهم أن يتوهم أن في التعبير بالاستواء على العرش شبهة تشبيه للخالق بالمخلوق. كيف وان بعض القرائن الضعيفة لفظية أو معنوية تمنع في لغتهم حمل اللفظ على معناه الحقيقي فكيف اذا كان لا يعقل؟ فكيف والاستواء على الشيء مستعمل في البشر استعمالا مجازيا وكنائياً كما تقدم؟

والقاعدة التي كانوا عليها في كل ما أسنده الرب تعالى الى نفسه من الصفات والافعال التي وردت اللغة في استعمالها في الخلق أن يؤمنوا بما تدل عليه من معنى الكمال والتصرف مع التنزيه عن تشبيه الرب بخلقه. فيقولون انه اتصف بالرحمة والمحبة، واستوى على عرشه بالمعنى الذي يليق به، لا بمعنى الانفعال الحادث الذي نجده للحب والرحمة في أنفسنا، ولا ما نعهده من الاستواء والتدبير من ملوكنا. وحسبنا أن نستفيد من وصفه بهاتين الصفتين أثرهما في خلقه، وأن نطلب رحمته، ونعمل ما يكسبنا محبته، وما يترتب عليهما من مثوبته وإحسانه، ومن الاستواء على عرشه كون الملك والتدبير له وحده، فلا نعبد غيره، ولذلك قرنه في آخر آية يونس بقوله (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وفي سورة الم السجدة (٣٢ : ٣ الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ؟) وهذا يؤيد ما صدرنا به تفسير الآية من أنها كامثالها تقرر وحدانية الربوبية، على انها حجة لوحدانية الالهية، وإبطال عبادة غيره تعالى معه بمعنى ما كانوا يدعونه من الشفاعة.

أخرج ابن مردويه واللالكائي في السنة ان أم سلمة أم المؤمنين (رض) قالت في الجملة: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والاقرار به إيمان، والجحود به كفر. فان صح كان سببه شبهة بلغتها من بعض التابعين اذ حدث من بعضهم الاشتباه في فهم أمثال هذه النصوص. كما كثر في المسلمين من لا يفهم اللغة حق الفهم، ولم يتلق الدين عن أئمة العلم. فكان المشتبه يسأل كبار العلماء فيجيبون بما تلقوا عن علماء الصحابة والتابعين من الجمع بين امرار النصوص وقبولها كما وردت وتنزيه الرب تعالى واستنكار السؤال في صفاته عن الكيف.

وأخرج اللالكائي في السنة والبيهقي في الاسماء والصفات ان ربيعة (شيخ

الامام مالك) سئل عن قوله (استوى على العرش) كيف استوى ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق . وأخرجا أن ما لكا سئل هذا السؤال أيضاً فوجد وجدا شديدا وأخذته الرحضاء ، ولما سرّي عنه قال للسائل : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج . وفي رواية انه قال « الرحمن على العرش استوى » كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة . اه كانه علم من حاله انه مشكك غير مستفت ليعلم

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ان للناس في هذا المقام مقالات كثيرة وقال : وانما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح — مالك والاوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد واسحق بن راهويه — وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو امرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتبادر الى أذهان المشبهين منفي عن الله فان الله لا يشبهه شيء من خلقه و « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » بل الامر كما قال الائمة — منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال : من شبه الله بخلقه كفر . ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر . وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه . فمن أثبت ماوردت به الآثار الصريحة والاخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى اه

﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ هذا بيان مستأنف للتدبير . قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم يغشي بتشديد الشين من التغشية والباقون بتخفيفها من الاغشاء يقال غشي (كرضى) فلان اصحابه اذا أتاهم وغشي الشيء الشيء لحقه وغطاه ، ومنه في التنزيل غشيان الموج واليم والدخان والعذاب للناس وغشيان الرجل المرأة . وأغشاه وغشاه اياه بالتشديد جعله يغشاه أي يلحقه ويغلب عليه أو يغطيه ويستره . وفي التشديد معنى المبالغة والكثرة . ومنه إغشاء الليل النهار وتغشيته وغشيانه إياه . قال تعالى (والليل اذا يغشى) أي يغشى النهار ، وقال (والليل اذا

يغشاها) والضمير للشمس أي يتبع ضوءها ويغلب على المكان الذي كان فيه. والمعنى هنا أن الله تعالى قد جعل الليل الذي هو الظلمة يغشى النهار وهو ضوء الشمس على الارض أي يتبعه ويغلب على المكان الذي كان فيه ويستره حالة كونه يطلبه حثيثاً من قولهم: فرس حثيث السير، ومضى حثيثاً — كما في الأساس وغيره — أي مسرعا والمعنى أنه يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء — كما قالوا — وهـذا الطلب السريع يظهر أكمل الظهور بما ثبت من كون الارض كروية الشكل تدور على محورها تحت الشمس فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائما والنصف الآخر مظلما دائما. ومسألة الليل والنهار معلومة بالقطع وهذا العصر فيمكن تحديد ساعات الليل والنهار في كل قطر ومخاطبة أهله بالتلغراف بأن تسأل في نصف الليل من تعلم أن وقتهم نصف النهار، مثلا فيجيبونك بل البرقيات تطوف كل يوم مدن العالم المدني في الشرق والغرب مبينة ذلك.

وقد اتفق علماء المعقول والفنون من المسلمين كالفزالي والرازي على كروية الارض وظواهر النصوص أدل على هذا من مقابله كهذه الآية. وحكوا القول بدورانها على مركزها وأوردوا عليه نظريات تشكك في كونه قطعيا ولا تنقضه — كما في المواقف والمقاصد وغيرهما — وقوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) أدل على استدارة الارض من هذه الآية وكذا على دورانها فان التكوير في اللغة هو اللف على المستدير كتكوير العمامة وهو اما أن يكون بدوران الشمس في فلكها الواسع حول الأرض، واما باستدارة الارض حول الشمس، وهو الذي قامت الدلائل الكثيرة في علم الهيئة على رجحانه

﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ الامر هنا عبارة عن التصرف والتدبير ومنه أولو الامر، وأصله الامر المقابل للنهي توسم فيه، أي وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونهن مذللات خاضعات لتصرفه منقادات لمشيئته، فقد قرأ الجمهور هذه الكلمات بالنصب، وقرأها ابن عامر بالرفع على أن الشمس مبتدأ باعتبار ما عطف عليها ومسخرات خبره، ولا فرق بين القراءتين في المعنى المراد من التسخير بأمره الا أن ظاهر قراءة الجمهور أن الشمس والقمر والنجوم غير السموات والارض لان العطف يقتضي المغايرة وسيأتي الكلام على ذلك في الكلام على السموات السبع في موضعه

﴿ ألا له الخلق والامر ﴾ «الا» أداة يفتتح بها القول الذي يهتم بشأنه، لاجل تنبيه المخاطب لمضمونه وحمله على تأمله ، والخلق في اصل اللغة التقدير وانما يكون في شيء يقع فيه واستعمل بمعنى الايجاد، اي الا ان لله الخلق فهو المالك لذوات المخلوقات ، وله الامر وهو التشريع والتصرف والتدبير فيها، فهو المالك والملك لاشريك له في ملكه ولا في مُلكه ، وقد ذكرنا آنفا بعض الآيات الناطقة بتدبيره تعالى للامر ، عقب ذكر الاستواء على العرش، قال ابن عباس: هذا في الدنيا. ومن هذا التدبير ماسخر الله له الملائكة المعنيين بقوله (فالمدبرات امرا) من نظام العالم وسننه ، ومنه الوحي ينزل به الملائكة على الرسل ، ويشملهما قوله (الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن) وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال: الخلق مادون العرش والامر مافوق ذلك. وليس عندنا عن غيره من السلف شيء غير هذا في الآية

وللصوفية أن عالم الخلق ماأوجده الله تعالى بالاسباب المعروفة في المواليد الثلاث مثلا والامر ما اوجده ابتداء بقوله « كن » كالروح وأصل المادة والعنصر الاول لها ومنهم من يسمي عالم الشهادة والحس بعالم الخلق وعالم الملك، ويسمي عالم الغيب بعالم الامر والملكوت (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون) أي عند نفخ الروح فيه . فجسمه مخلوق من سلالة من طين لازب ، وروحه من امر الله تعالى

﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ أي تعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين كلهم ومدبر امورهم ، والحقيق وحده بعبادتهم . فتبارك من مادة البركة وهي الخير الكثير الثابت ، فهي هنا تنبيه على ما في هذا العالم من الخيرات والنعم التي توجب له الشكر والعبادة على عباده دون ما عبدوه معه وليس لهم من الخلق ولا من الامر شيء . وتكلمنا على مادة البركة في تفسير (٦ : ٩٣ وهذا كتاب انزلناه مبارك) فيراجع [1]

﴿ تنبيه ﴾ عني بعض المتكلمين المتقدمين بتكلف التوفيق بين ماورد من ذكر السموات السبع والكرسي والعرش على الافلاك التسعة في الهيئة الفلكية اليونانية، فزعموا أن السموات السبع هي الافلاك المركوز فيها زحل والمشتري

« ١ » ص ٩٦١ : ج ٧ تفسير

والمريخ والشمس والزهرة وعطارد، وأن الكرسي الذي ذكر في سورة البقرة هو الفلك الثامن التي ركزت فيه جميع النجوم الثوابت، وأن العرش هو الفلك التاسع الذي وصفوه بالاطلس لانه ليس فيه شيء من النجوم. وهذه نظريات قد ثبت بطلانها عند علماء الفلك في هـذا العصر فسقط كل ما بني عليها من تكلف ولم يبق حاجة الى الخوض في ذلك لرده، كما أنه لا حاجة الى تكلف حمل شيء من الآيات على مسائل العلوم والفنون المعتمدة في زماننا، فان القرآن أرشد البشر الى العلم بتذكيرهم بآياته في الاكوان وترك ذلك لبحثهم واجتهادهم، وهداية الدين في ذلك أن يكون العلم بالكون وسننه وسيلة لتقوية الايمان، وتكميل فطرة الانسان، ولو اهتدى دول الافرنج بهدايته هذه لما جعلوا العلم وسيلة للقتل والتدمير، وقهر القوي به للضعيف

---

(٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

بعد أن بين تعالى لامة الدعوة توحيد الربوبية وذكرهم بالآيات والدلائل عليها أمرهم بما يجب أن يكون لازما لها من توحيد الالهية وهو افراده تعالى بالعبادة فقال:

﴿ أدعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ التضرع تفعل من الضراعة معناه تكلفها أو المبالغة فيها أو اظهارها واختاره الراغب، وهي مصدر ضرع كخشع اذا ضعف وذل، وتلوى وتمايل. ومأخذها من قولهم ضرع البهمُ اذا تناول ضرع أمه، وان حاجة الصغير من الحيوان والانسان الى الرضاع من أمه لمن أشد مظاهر الحاجة والافتقار بشعور الوجدان الى شيء واحد لا يتوجه الى غيره معه. ولذلك خص استعمال التضرع في التنزيل بمواطن الشدة كما تقدم في الآيات ٤٢ و ٤٣ و ٦٣ من سورة الانعام، ومثله في سورة المؤمنين (٧٧: ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وذلك أن دعاء الله عند الحاجة وفي حال الشدة هو مخ العبادة وروحها، وله مظهران التضرع والابتهال،

والخفية والاسرار. أي ادعوا ربكم ومدبر أموركم متضرعين مبتهلين اليه تارة ، ومسرّين مستخفين تارة أخرى ، أو دعاء تضرع وتذلل وابتهال ، ودعاء مناجاة وإسرار ووقار: ولكل من الدعائين وقت ، وداعية من النفس . فالتضرع بالجهر المعتدل يحسن في حال الخلوة والامن من رؤية الناس المداعي ومن سماعهم لصوته، فلا جهره يؤذيهم ولا التفكر فيهم يشغله عن التوجه الى الرب وحده، ويفسد عليه دعاءه بحب الرياء والسمعة . والاسرار يحسن في حال اجتماع الناس في المساجد والمشاعر وغيرها الاما ورد رفع الصوت فيه من الجميع، كالتلبية في الحج وتكبير العيد، وهو مشترك لارياء فيه . ولما كان الليل ستراً ولباسا شرع فيه الجهر في قراءة الصلاة ، وهو للمتهجد في خلوته يطرد الوسواس ، ويقاوم فتور النعاس، ويعين على تدبر القرآن ، وبكاء الخشوع للرحمن

هذا هو المتبادر من اللفظ عندنا. ومن مفسري السلف من جعل التضرع والخيفة متفقين غير متقابلين، بتفسير التضرع بالتخشع والتذلل ، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الاشعري (رض) قال كنا مع النبي (ص) في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله (ص) « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم » هذا لفظ مسلم . قال النووي ففيه خفض الصوت بالذكر اذا لم تدع حاجة الى رفعه فانه اذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه فاذا دعت حاجة الى الرفع رفع كما جاءت به أحاديث اهـ والمتبادر من العبارة ان الانكار انما كان على المبالغة في الجهر وناهيك بكونه من جماعة كثيرين ، وربما كان بعضهم يظن ان الجهر بتلك الصفة أرضى للرب، وارجى للقبول. وقال تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا)

وروي عن الحسن البصري أنه قال « إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وان كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وان كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور [1] وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواما ماكان على الارض من عمل يقدرون أن يعملوه في السرّ

(١) الزور بالفتح جماعة الزائرين كالشرب والركب

فيكون علانية أبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان الا همسا [١] بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول (أدعوا ربكم تضرعا وخفية) وذلك أن الله ذكر عبداً صالحا رضي فعله فقال (اذ نادى ربه نداءا خفيا) وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة

﴿ انه لا يحب المعتدين ﴾ في الدعاء ، كما لا يحب ذلك في سائر الاشياء . والاعتداء تجاوز الحدود فيها ، وقد نهى عنه مطلقا ومقيداً ، الا ما كان انتصافا من معتد ظالم بمثل ظلمه ، والعفو عنه أفضل . والاعتداء في كل شيء يكون بحسبه ، وذلك أن لكل شيء حدا من تجاوزه كان معتديا (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون)

وشر أنواع الاعتداء في الدعاء التوجه فيه الى غير الله ولو ليشفع له عنده ، لان الحنيف من يدعو الله تعالى وحده ، فلا يدعو معه غيره ، كما قال (فلا تدعوا مع الله أحدا) أي لا ملكا ولا نبيا ولا وليا . . ومن دعا غير الله فيما يعجز هو وأمثاله عنه من طريق الاسباب كالشفاء من المرض بغير التداوي وتسخير قلوب الاعداء والانقاذ من النار ودخول الجنة وما أشبه ذلك من المنافع ودفع المضار — فقد اتخذه الها ، لان الاله هو المعبود ، و « الدعاء هو العبادة » كما قال الرسول (ص) فيما رواه احمد وابن أبي شيبة وأصحاب السنن الاربعة وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن النعمان بن بشير وأبو يعلى عن البراء (رض) والمعنى أنه الركن الاعظم في العبادة على نحو « الحج عرفة » وفي معنى هذا التفسير حديث أنس عند الترمذي مرفوعا « الدعاء مخ العبادة » واسناده ضعيف يقويه تفسيره للصحيح . وقد يفسرونه بالعبادة في جملتها دون أفرادها

وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا) جاء في روايات

(١) ان نافية أي ما كان صوتهم في الدعاء الا همسا . والهمس الخفي كصوت اخفاف الابل عند مشيها

عن ابن عباس (رض) أن هذا نزل فيمن عبدوا الملائكة والمسيح وأمه وعزيراً والشمس والقمر، أي كلهم عاجز عن دفع الضر أو تحويله عنكم، ومعنى الآية الثانية ان أولئك الذين يدعونهم هم عبيد الله يبتغون اليه الوسيلة والزلفى — أيهم أقرب — أي أقربهم وأفضلهم كالملائكة والمسيح يعبدالله ويدعوه طلبا للوسيلة عنده، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فكيف يدعون معه أو من دونه؟ وروى الترمذي وابن مردويه واللفظ له عن ابي هريرة (رض) قال قال رسول الله (ص) «سلو الله لي الوسيلة» قالوا وما الوسيلة؟ قال «اقرب من الله عز وجل» ثم قرأ (يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وابتغاء ذلك يكون بدعائه وعبادته بما شرعه على لسان رسوله دون غيره، والآيات المنكرة على المشركين دعاء غير الله وكونه عبادة لهم وشركا في الله كثيرة، ولكن المضلين للعوام من المسلمين يقولون لهم لا بأس بدعائكم للاولياء والصالحين عند قبورهم، والتضرع والخشوع عندهم، فان هذا توسل بهم الى الله ليقربوكم منه بشفاعتهم لكم عنده لا عبادة لهم. وهذا تحكم في اللغة وجهل بها، فأهل اللغة كانوا يسمون ذلك عبادة، والوسيلة في الدين هي غاية للعبادة، فان معناها القرب منه تعالى بما يرتضيه، والتوسل طلب ذلك فهو التقرب منه، وانما يكون بما شرعه من عبادتك له دون عبادة غيرك (وأن ليس للانسان الا ما سعى) والذين عبدوا الملائكة والانبياء والاولياء كانوا يقصدون بدعائهم أن يقربوهم الى الله زلفى وأن يشفعوا لهم عنده، ويعتقدون أنهم لا يملكون نفعهم ولا كشف الضر عنهم بأنفسهم، بل ذلك هو الله الذي يجير ولا يجار عليه. وآيات القرآن صريحة في ذلك. نعم ان طلب الدعاء من المؤمنين مشروع من الاحياء دون الاموات، ويسمى في اللغة توسلا الى الله لانه قد شرعه، ومنه توسل عمر والصحابة بالعباس، بدلا من النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وانما كان ذلك بصلاة الاستسقاء وما يشرع بعدها من الدعاء. فاذا قيل لهم هذا قالوا: ان ماورد من ذم دعاء غير الله والتقرب به الى الله خاص بالمشركين، وما يعاب من المشركين لا يعاب من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فأنتم تحملون الآيات في المشركين على المؤمنين!! وهذا القول جهل فاضح منهم، فان الله تعالى ما ذم الشرك الا لذاته، وما ذم المشركين

الا لانهم تلبسوا به ، وان الذين أشركوا من أهل الكتاب ما كانوا الا مؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولكن ما طرأ عليهم من الشرك أحبط إيمانهم ، وكذلك يحبط إيمان من أشرك من المسلمين بدعاء غير الله ، أو بغير ذلك من عبادة سواه ، وان لم يشرك بربوبيته ، بأن كان يعتقد أنه هو الخالق المدبر لامر العباد وحده ، فهذا الايمان عام قل من أشرك فيه ، فتوحيد الالهية هو اخلاص العبادة لله والتوجه فيها له وحده دون غيره من الاولياء والشفعاء المسخرين بأمره (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء)

ومن الاعتداء في الدعاء ماهو خاص باللفظ كالتكلف والسجع والمبالغة في رفع الصوت فقد صح النهي عن ذلك ، ومنها ما هو خاص بالمعنى وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصي ومقاصدها كضرر العباد ، وأسباب الفساد ، وطلب المحال الشرعي أو العقلي كطلب ابطال سنن الله في الخلق وتبديلها أو تحويلها ، ومنه طلب النصر على الاعداء ، مع ترك وسائله كانواع السلاح والنظام ، والغنى بدون كسب ، والمغفرة مع الاصرار على الذنب . والله تعالى يقول (فلن تجد لسنة الله تبديلا * ولن تجد لسنة الله تحويلا)

روي عن ابن عباس في قوله تعالى (انه لايحب المعتدين) قال : في الدعاء ولا في غيره . وقال أبو مجلز : لا يسأل منازل الانبياء . وروى احمد وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص أنه سمع ابناً له وهو يقول : اللهم اني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها — ونحواً من هذا — وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شر كثير ، واني سمعت رسول الله (ص) يقول « سيكون قوم يعتدون في الدعاء — وفي لفظ — يعتدون في الطهور والدعاء » وقرأ هذه الآية . .

﴿ ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ﴾ اي ولا تفسدوا في الارض بعمل ضائر ، ولا بحكم جائر ، مما ينافي صلاح الناس في أنفسهم كعقولهم وعقائدهم وآدابهم الشخصية والاجتماعية ، أو في معايشهم ومرافقهم من زراعة وصناعة وتجارة وطرق مواصلة ووسائل تعاون — لا تفسدوا فيها بعد اصلاح الله تعالى لها بما خلق فيها من المنافع ، وما هدى الناس اليه من استغلالها والانتفاع بتسخيرها لهم ، وامتنانه بها عليهم ، بمثل قوله (هو الذي خلق لكم ما في الارض

جميعاً) وقوله (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ومن اقامة الحق والعدل والفضيلة فيها، فالاصلاح الاعظم انما هو اصلاحه تعالى لحال البشر، بهداية الدين وارسال الرسل ، وا كمال ذلك ببعثة خاتم النبيين والمرسلين ، الرحمة العامة للعالمين ، فاصلح به عقائد البشر ببنائها على البرهان ، وأصلح به أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها بين مصالح الروح والجسد ، وماشرع لهم من التعاون والتراحم ، وأصلح سياستهم ونوع الحكم بينهم بشرع حكومة الشورى المقيدة بأصول درء المفاسد، وحفظ المصالح والعدل والمساواة . والبشر سادة هذه الارض ، وهم منها كالقلب من الجسد والعقل من النفس، فاذا صلحوا صلح كل شيء، واذا فسدوا فسد كل شيء . وأشد الفساد الكبر والعتو ، الداعيان الى الظلم والعلو، ألم تر الى هؤلاء الافرنج كيف أصلحوا كل ما في الارض من معدن ونبات وحيوان، وعجزوا عن اصلاح نفس الانسان، بمعاداتهم أكمل الاديان، فحولت دولهم كل ما اهتدى اليه علماؤهم من وسائل العمران، الى افساد نوع الانسان، وتعادي شعوبه بالتنازع على الملك والسلطان ، واباحة الكفر والفسوق والعصيان، وبذل ثروة العاملين من شعوبهم ، في سبيل التنكيل بالمخالفين لهم ، والجناية على اعدائهم ، ولو بالجناية على أنفسهم

روى أبو الشيخ عن أبي بكر بن عياش أنه سئل عن قوله (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها) فقال ان الله بعث محمدا الى أهل الارض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد (ص) فمن دعا الى خلاف ما جاء به محمد (ص) فهو من المفسدين في الارض اه والافساد بعد الاصلاح أظهر قبحاً من الافساد على الافساد ، فان وجود الاصلاح أكبر حجة على المفسد اذا هو لم يحفظه ويجري على سننه . فكيف اذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه ؟ ولذلك خصه بالذكر، والا فالافساد مذموم ومنهي عنه في كل حال ، فحجة الله على الخلوف والخلائف من المسلمين المفسدين ، لما كان من اصلاح السلف الصالحين ، أظهر من حجته على الكافرين ، الذين هم أحسن حالا من سلفهم الغابرين ،

﴿ وادعوه خوفا وطمعاً ﴾ أعاد الامر بالدعاء بقيد آخر بعد أن وسط بينهما النهي عن الافساد، للايذان بأن من لا يعرف نفسه بالحاجة والافتقار الى

رحمة ربه الغني القدير وفضله واحسانه، ولا يدعوه تضرعا وخفية ولا خوفا من عقابه وطمعاً في غفرانه ، فانه يكون أقرب الى الافساد منه الى الاصلاح ، الا أن يعجز . والمعنى : وادعوه خائفين أو ذوي خوف من عقابه ايا كم على مخالفتكم لشرعه المصلح لانفسكم ولذات بينكم ، وتنكبكم لسننه المطردة في صحة أجسامكم، وشؤون معايشكم — وهذا العقاب يكون بعضه في الدنيا وباقيه في الآخرة — وطامعين في رحمته واحسانه في الدنيا والآخرة. والقول الجامع في حال النفس عند الدعاء أن تكون غارقة في الشعور بالعجز والافتقار الى الرب القدير الرحيم، الذي بيده ملكوت كل شيء، يصرف الاسباب، ويعطي بحساب وبغير حساب، فان دعاء الرب الكريم بهذا الشعور ، يقوي أمل النفس، ويحول بينها وبين اليأس ، عند تقطع الاسباب ، والجهل بوسائل النجاح، ولو لم يكن للدعاء فائدة الا هذا لكفى ، فكيف وهو مخ العبادة ولبابها ، واجابته مرجوة بعد استكمال شروطه وآدابه، وأولها عدم الاعتداء فيه، فان لم تكن باعطاء الداعي ماطلبه، كانت بما يعلم الله انه خير له منه . ولا أرى بأسا بأن أقول غير مبال بانكار المحرومين : اني قلما دعوت الله دعاء خفيا شرعيا رغبة ورهبة الا واستجاب لي ، أو ظهر لي ولو بعد حين أن عدم الاجابة كان خيرا منها .

﴿ ان رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أي ان رحمته تعالى الفعلية التي يعبر عنها بالاحسان قريبة من المحسنين في أعمالهم المتقنين لها، لان الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن في العبادة نال حسن الثواب، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح ، ومن أحسن في الدعاء أستجيب له ، أو أعطي خيرا مما طلبه ، والجملة تعليل للامر بالدعاء قبلها ، مبينة لفائدة الدعاء العامة كما قررنا ، فهي أعم من قوله تعالى (أدعوني أستجب لكم)

والاحسان مطلوب في كل شيء بهدي دين الفطرة، الداعي لحسنتي الدنيا والآخرة، وجزاؤه الاحسان في كل شيء بحسبه، قال عز وجل (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) ؟ كما أن الاساءة محرمة في كل شيء، وجزاؤها من جنسها، قال عز وجل (ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) وقال الرسول

(ص) «ان الله كتب الاحسان على كل شيء[١] فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة[٢] واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» رواه مسلم عن شداد ابن أوس (ر ض) فالاحسان واجب في دين الاسلام حتى في قتال الاعداء، لانه في حكمه من الضرورات التي تقدر بقدرها، ويُتقى ما يمكن الاستغناء عنه من شرها، ومنه قوله تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) أي فاذا لقيتم أعداءكم الكفار في المعركة فقاتلوهم بضرب الرقاب لانه أسرع الى القتل وأبعد عن التعذيب بمثل ضرب الرأس مثلا — وناهيك بتهشيم الرءوس وتقطيع الاعضاء في عهد التنزيل الذي لم يكن فيه أطباء جراحة يخففون آلامها.. — حتى اذا اظهر لكم الغلب عليهم بالاثخان فيهم فاتركوا القتل، واعمدوا الى الاسر، ثم اما ان تمنوا على الاسرى بالعتق منا، وإما أن تفدوا بهم من أسر منكم فداء

وكذلك الاحسان في الحيوان والرفق به ومنه ذبح البهائم للاكل يجب أن يحسن فيها بقدر الطاقة حتى لا يتعذب الحيوان، ولهذا حرم الله الموقوذة وهي التي تضرب بغير محدد حتى تنحل قواها وتموت

ومن العبرة في الآية أن الماديين من البشر يعدون الرحمة ضعفا في النفس تجب مقاومته بالتعليم والتربية أي بافساد الفطرة الالهية التي أودع فيها الرب الرحيم جزءا من مئة جزء من رحمته يتراحم بها خلقه ويتعاطفون[٣] وقاعدة التربية المادية أن أمور الحياة كلها تجارة يقصد بها الربح العاجل، فاذا رأيت امرءاً أو امرأة أو طفلا أو عشيرة أو أمة عرضة للآلام والهلاك ولم يكن لك ربح وفائدة خاصة من دفع الهلاك عنهم فلا تكلف نفسك ذلك، واذا كان لك أو لقومك ربح من ظلم فرد من الافراد أو شعب من الشعوب وإشقائه بالاستعباد، وافساد الاخلاق وارهاق الاجساد؛ فافعل ذلك وتوسل اليه بكل الوسائل التي يدلك عليها العلم وتمكنك منها القوة، بل هم يربون

(١) قيل ان على هنا للظرفية أي في كل شيء. وقيل معناه على كل أحد في كل شيء فان بعض الروايات عند غير مسلم: أو على كل خلق (٢) بكسر القاف ومثلها الذبحة بكسر الذال اي هيأة ذلك وصفته (٣) معنى حديث الصحيحين

أولادهم على أن لا ينالوا منهم شيئا الا بعمل يعملونه لهم، ليطبعوا في أنفسهم ملكة طلب الربح من كل عمل، وينزعوا منها عواطف الرحمة وحب الاحسان بمراغمة الفطرة وافسادها

على هذه القاعدة قام بناء الاستعمار الافرنجي في العالم. فكل دولة أوربية تستولي على شعب من الشعوب تعنى أشد العناية بافساد أخلاقه واذلال نفسه واستنزاف ثروته، وكل ما تعمله في بلاده من عمل عمراني كتعبيد الطرق واصلاح ري الارض فلاجل توفير ربحها منها، وتمكينها من سوق جيوشها التي تستعبدها أهلها . وقد قرأنا في هذا العام مقالات لسائحة اميركانية طافت كثيراً من المستعمرات الاوربية في الشرق الاقصى، وصفت فيها إذلال المستعمرين للاهالي بنحو جرهم لعربانهم، والدوس على رقابهم وظهورهم، وافساد أنفسهم واجسادهم باباحة شرب سموم الافيون والكحول، وسلب أموالهم بوسائل نظامية — فذكرت ما تقشعر منه جلود المؤمنين، وتشمئز نفوس الرحماء المهذبين، ومن يستغرب منهم هذا بعد ان علم ما اقدموا عليه في حرب بعضهم لبعض في بلادهم (اوربة) من القسوة والتخريب والتدمير فهم يروون ان قتلى هذه الحرب بلغت عشرة ملايين شاب والمشوهين المعطلين من الجرح زهاء ثلاثين مليونا وان نفقات التدمير قدرت بخمسمائة ألف مليون جنيه انكليزي وهي لو انفقت على اصلاح كل ممالك المعمور لكفت . ولا تزال الدول الظافرة المسلحة ترهق الذين لا سلاح بأيديهم وتحاول الاجهاز عليهم . فأين هذا من قتال الاسلام وفتوحه المبني على قاعدة كونه ضرورة تقدر بقدرها، ويفترض الاحسان والرحمة بقدر الامكان فيها ؟ وقد قال النبي (ص) لمن مر بامرأتين من اليهود على قتلاهما « أنزعت الرحمة من قلبك حتى مررت بالمرأتين على قتلاهما » وقد شهد لنا المؤرخون المنصفون من الافرنج بذلك حتى قال بعضهم: ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا ارحم من العرب — يعني المسلمين منهم. اللهم ارحمنا واجعلنا من الراحمين، وأجرنا من شر المفسدين القساة الظالمين

ومن مباحث اللفظ في الآية أن كلمة قريب وقعت خبرا للرحمة ومن قواعد النحو أن الخبر يكون مطابقا للمبتدأ في التذكير والتأنيث بأن يقال هنا قريبة

وقد ذكروا في تعليل هذا التذكير هنا وتوجيهه بضعة عشر وجها مابين لفظي ومعنوي بعضها قريب من ذوق اللغة وبعضها تكلف ظاهر، (منها) أن التذكير والتأنيث هنا لفظي لاحقيقي فلا تجب فيه المطابقة، وفيه أن الاصل فيه المطابقة فلا تترك في الكلام الفصيح إلا لنكتة (ومنها) ولك أن تجعله نكتة جامعة بين التوجيه اللفظي والمعنوي — أن معنى الرحمة هنا مذكر قيل هو المطر وهو ضعيف والصواب أن معناها الاحسان العام لانها في هذا المقام صفة فعل لاصفة ذات، اذ لامعنى لقرب الصفات الالهية الذاتية من المخلوقين فيكون المعنى أن احسان الله قريب من المحسنين، ويؤكده ما فيه من التناسب بين الجزاء والعمل كما قلنا في تفسير الجملة، ويؤيده حديث «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء» رواه احمد وابو داود والترمذي والحاكم من حديث عبد الله بن عمر، ووقع لنا مسلسلا عن شيخنا القاوقجي. على أنه قد ورد في التنزيل (لعل الساعة قريب) و (لعل الساعة تكون قريبا) وقد يعلله فيهما برعاية الفاصلة من يقول بها وهم الجمهور (ومنها) ان قريب في هذه الآيات بمعنى اسم المفعول فيستوي فيه المذكر والمؤنث. ومهما يقل فالاستعمال قد ورد في أفصح الكلام العربي وأعلاه، فمن أعجبه شيء مما علاوه به لطرد قواعدهم قال به، ومن لم يعجبه منها شيء فليقل إن هذا من السماعي، وما هو ببدع في هذه اللغة ولا في غيرها

---

(٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا. كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ

بعد أن بين الله تعالى جده أن رحمته العامة قريب من المحسنين في عبادتهم وفي سائر أعمالهم ذكرنا بما نغفل عنه كثيرا من التفكر والتأمل في أظهر أنواع

هذه الرحمة وهو ارسال الرياح وما فيها من منافع الخلق ، وانزال المطر الذي هو مصدر الرزق ، وسبب حياة كل حي في هذه الارض ، وما فيه من الدلالة على قدرته تعالى على البعث، وما يستحقه عليه من الحمد والشكر ، فقال :

﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ الجملة معطوفة على ما بين به تعالى تدبيره لامر العالم في إثر اثباته لخلق السموات والارض ، واستوائه على العرش ، في قوله (يغشي الليل النهار) الخ وما بينهما من قبيل الاعتراض المقصود بالذات من التذكير بهذه الآيات ، وهو إخلاص العبادة له وحده بالفعل والترك ، المعبر عنه بالنهي عن الافساد في الارض ، وهو شامل لجميع ما حرمه الاسلام

الريح الهواء المتحرك ، وهي مؤنثة في الاكثر وقد تذكر بمعنى الهواء . وأصلها روح بالواو وقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها (كالميزان أصلها موزان لانها من الوزن) وجمعها رياح وأرواح وكذا أرياح وهو شاذ ، والهواء من أعظم نعم الله تعالى على الاحياء ، اذ وجوده شرط لحياة كل نبات وحيوان ، فلو رفعه الله تعالى من الارض لمات كل حيوان وانسان في طرفة عين ، ولا تتم منافعه الا بحركته التي يكون بها ريحا ، وسنذيل تفسير الآيتين بنبذة علمية في بيان حقيقته وأهم منافعه الكلية . ومن اهمها فعله في توليد المطر الذي هو موضوع الآية

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (الريح) مفردة والباقون (الرياح) بالجمع ، ورسمت في المصحف الامام بغير ألف لتحتمل القراءتين ولذلك أمثال ، والرياح عند العرب أربع بحسب مهابها من الجهات الاربع : الشمال والجنوب ، وسميتا باسم جهة مهبهما . والثالثة الصبا والقبول وهي الشرقية والرابعة الدبور وهي الغربية ، وأهل الحجاز ينسبون ريح الصبا الى نجد والجنوب الى اليمن ، والشمال الى الشام ، والريح التي تنحرف عن هذه المهاب الاصلية فتكون بين ثنتين منها تسمى النكباء مؤنث الانكب وهي من قولهم نكب عن الشيء أو عن الطريق نكبا ونكوبا اذا انحرف وتحول عنه ، ومنه (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) واذا هبت الرياح من مهاب ونواح مختلفة سموها المتناوحة . ومن المأثور عن العرب أن الرياح تشترك في اثارة السحاب

المطر فيقولون : ان الصبا تثيره، والشمال تجمعه ، والجنوب تدره ، والدبور تفرقه. قال ابن دريد في وصف سحاب ممطر دعا لبلاده به

جونٌ أعارته الجنوب جانبا منها وواصت صوبه يدُ الصبا

ثم قال

اذا خبت بروقه عنت له ريح الصبا تثير منه ما خبا
وان ونت رعوده حدا بها حادي الجنوب فحدت كاحدا

ويختلف تأثير الرياح في الاقطار باختلاف مواقعها منها ، فالصبا والجنوب لا يأتيان بالمطر في القطر المصري لان مهبهما الصحاري التي لا ماء فيها ولا نبات ، وانما تأتي به الشمال والدبور لان مهبهما من جهة البحر المتوسط فيحملان بخار الماء منه ومن الاراضي الزراعية وأكثرها في الوجه البحري . ويقرب منه في ذلك ديار الشام فان أكثر ما يثير سحاب المطر فيها الدبور (الغربية) فاذا هبت الصبا (الشرقية) وغلبت انقشع السحاب وخفت رطوبة الجو . ولعل حكمة القراءتين ان الريح الواحدة تبشر بالمطر احيانا او في بعض الاقطار، كما تبشر به ريحان في قطر آخر ، او ان الرياح بأنواعها تبشر بالمطر في الاقطار المختلفة. على ان الريح يراد بها عند اطلاقها الجنس ،

وقال الراغب كغيره ان عامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها ارسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب وكل موضع ذكر بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة ، وذكر بعض الشواهد ، ومن استقرأ الآيات في ذلك رأى أن الجمع لم يذكر الا في بيان آيات الله أو رحمته ولا سيما رحمة المطر . وأما الريح المفردة فذكرت في عذاب قوم عاد في عدة سور ، وفي ضرب المثل للعذاب كقوله تعالى (٣ : ١١٧ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) وقوله (١٤ : ٢١ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء) وقوله (٢٢ : ٢٩ أو تهوي به الريح في مكان سحيق) ونحوه التهديد في قوله (١٧ . ٦٩ او يرسل عليكم قاصفا من الريح) الآية . ولكنها وردت في الامرين بالتقابل في قوله تعالى (١٠ : ٢٢ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف) الآية ، ووردت في مقام

الرحمة والمنة بتسخيرها لسليمان في سور الانبياء وسبأ وص

(وقوله) تعالى (بشراً) قرأه عاصم بضم الموحدة وسكون الشين مخفف بشر بضمتين وهو جمع بشير كنذر جمع نذير. وفي رواية عنه بضمتين على الاصل وقرأ ابن عامر بشراً بالتخفيف حيث وقع من القرآن وحمزة والكسائي نشراً بفتح النون حيث وقع على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فان الارسال والنشر متقاربان

﴿حتى اذا اقلت سحابا ثقالا﴾ قال في الاساس : وأقله واستقل به رفعه. وفي المصباح : وكل شيء حملته فقد أقللته ، وأقللته عن الارض رفعته أيضا. قيل انه مأخوذ من القلة بالكسر لقولهم اقله واستقله اي وجده قليلا ، والاظهر أنه من : أقلّ القلة ، — وهي بالضم الجرة — فانما سميت قلة لان الرجل يقلها أي يحملها أو يرفعها بيديه عن الارض . والسحاب الغيم وهو اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء فيقال سحابة . وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ويجمع ، والثقال منه المتشبعة ببخار الماء والمعنى أن الرب المدبر لامور الخلق هو الذي يرسل الرياح بين يدي رحمته لعباده بالمطر أي قدامها مبشرات بها وناشرات لاسبابها ، حتى اذا حملت سحابا ثقالا ورفعتها في الهواء ﴿سقناه لبلد ميت﴾ أي سيرناه وسقناه بها الى بلد ميت أي أرض لا نبات فيها فانما حياة الارض بالنبات الحي فيها « فاللام بمعنى الى » كما في آية فاطر (٣٥ : ٩ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) قال في المصباح كغيره : ويطلق البلد والبلدة على كل موضع من الارض عامرا كان أو خلاء . وفي التنزيل (الى بلد ميت) أي الى أرض ليس فيها نبات ولا مرعى فنخرج بذلك بالمطر فترعاه أنعامهم فأطلقوا الموت على عدم النبات والمرعى وأطلق الحياة على وجودهما اه أقول وغلب عرف الناس بعد ذلك في تخصيص البلد بالمكان الآهل بالسكان في المباني

﴿فأنزلنا به الماء﴾ أي فأنزلنا بالسحاب الماء فالباء للآلة أو السببية — أو بالبلد فتكون الباء للظرفية أي فيه ، أو بالرياح وذكر الضمير بمعنى ما ذكر. والمختار هنا كون الباء للسببية فان الريح هي التي تثير السحاب من سطح البحر وغيره من المياه أو الارض الرطبة وترفعها في الجوّ وهي سبب تحول البخار

الى ماء بتبريدها له — فبذلك يصير البخار ماء أثقل من الهواء فيسقط من خلاله الى الارض بحسب سنة الله في جاذبيـة الثقل . كما قال تعالى في سورة الروم (٣٠ : ٤٦ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء و يجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله) وفي سورة النور (٢٤ : ٤٢ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله) الودق المطر أي يخرج من خلال السحاب وأثنائه . وكل ما ورد في القرآن من انزال الماء من السماء فمراد بالسماء فيه السحاب ، لان هذا التفصيل صريح في ذلك ، والسماء اسم لكل ما علا الانسان ويفسر بالقرائن ، ومن الخطأ أن يظن أن الماء ينزل من السماء المعنوية التي هي مسكن الملائكة على السحاب الذي هو كالغربال لها وان قال به بعض المؤلفين ، فان القرآن يصرح بخلافه ، وما صرح به القرآن ، هو الذي أثبته العلم والاختبار ؛ فان سكان الجبال الشامخة يبلغون في توقها السحاب الممطر ثم يتجاوزونه الى ما فوقه فيكون دونهم ، والعرب تسمي السحاب سماء تسمية حقيقية ثم أطلقت لفظ السماء على المطر نفسه ، فكانت تقول جاء مكان كذا في إثر سماء ، وقال الشاعر

اذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

وأما قوله تعالى في تتمة آية سورة النور التي ذكرنا أولها آنفا (وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار) فلا مانع من جعل السماء فيها عين السحاب ولعل الاظهر أن يراد بها جهة العلو التي يكون فيها السحاب كقوله (فيبسطه في السماء كيف يشاء) وقوله « من جبال » بدل مما قبله . والمراد بالجبال قطع السحاب التي تشبه الجبال شبها تاما في عظمها وارتفاعها وشناخيبها وقللها ، وقلما يوجد في الخلق تشابه كالتشابه بين السحاب والجبال . والمعنى وينزل من السماء من سحب فيها كالجبال برداً عظيم الشأن في شكله وقوته وتأثيره فيمن يصيبه ، و « من » فيه صلة أو للتبعيض أو للتنويع . وما روي مخالفا لهذا فمن اسرائيليات كعب الاحبار وامثاله كما نبينه في محله ان شاء الله تعالى

﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ عطف كلا من انزال الماء على سوق السحاب ومن اخراج النبات على انزال الماء بالفاء الدالة على التعقيب ، وهو يتفاوت بتفاوت الاشياء فانزال الماء يعقب سوق السحاب وجعله كسفا أو ركاماً بدقائق

معدودة قلما يتجاوزها الى الساعات ، وسبب السرعة فيه شدة الريح ، ويقابله سبب البطء ، وأما اخراج النبات بسبب هذا الماء فأمد التعقيب فيه أوسع فانه يكون بعد أيام تختلف قلة وكثرة باختلاف الاقطار في الحرارة والبرودة. ومن التعقيب ما يكون في أشهر أو سنين ، فمن الاول قولهم : تزوج فولد له — فهو يصدق بمن يولد له بعد مضي مدة الحمل الغالبة وهي تسعة أشهر بالتقريب ، ولذلك لا ينافي التعقيب فيه زيادة شهر أو شهرين او ثلاثة — والثمرات جمع ثمرة وهي واحدة الثمر (بتحريك كل منهما) والثمر يجمع على ثمار — كجبل وجبال — وجمع الثمار ثمر — ككتاب وكتب — وهو يجمع على اثمار — كعنق واعناق — قال في المصباح : والثمر هو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل او لا ، فيقال ثمر الاراك وثمر العوسج وثمر الدوم وهو المقل ، كما يقال ثمر النخل وثمر العنب اه وهذا اصح واوضح من قول الراغب : الثمر اسم لكل ما يتطعم من اعمال الشجر . والمراد بكل الثمرات جميع انواعها على اختلاف طعومها والوانها وروائحها ، وليس المراد ان كل بلد ميت ينزل الله به الماء يخرج جميع الثمرات التي خلقها الله في الارض فقد علم من الآية التالية ومن سنن الله تعالى في الارض ومن المشاهدة ان البلاد تختلف ارضها فيما تخرجه وفي الاخراج ، فالاستغراق لا يصح الا بالنسبة الى ارض الله كلها ، ويكفي في كل ارض ان تخرج انواعا مختلفة ، تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ورحمته وفضله واحسانه ، قال تعالى (١٣ : ٤ وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الاكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وقفى على التذكير بهذه الآيات بالتعجب من انكارهم للبعث كما قال هنا :

﴿ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ اي مثل هذا الاخراج لانواع النبات من الارض الميتة باحيائها بالماء نخرج الموتى من البشر وغيرهم ، فالقادر على هذا قادر على ذاك ، لعلكم تذكرون هذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث الذي عبرتم عنه بقولكم : من يحيي العظام وهي رميم ؟ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون؟ أئنا لمدينون ؟ ذلك رجع بعيد — وامثال هذه الاقوال الدالة على أن إنكاركم لا منشأ له إلا ما تحكمون به بادي الراي من امتناع خروج الحي من الميت ، ذاهلين عن خروج النبات الحي من الارض الميتة ، وعن

عدم الفرق بين حياة النبات وحياة الحيوان ، في خضوعهما لقدرة الرب الخالق لكل شيء ، فوجه الشبه في الآية هو اخراج الحي من الميت ، والحي في عرفهم يعرف بالنماء والتغذي كالنبات ، وبالحس والتحرك بالارادة كالحيوان

فان قيل ان العلم قد اثبت ان الحي لا يولد الا من حي . سواء في ذلك النبات والحيوان بأنواعه من ادنى الحشرات الى اعلاها ، فالنبات الذي يخرج من الارض القفراء بعد سقيها بالماء لا بد أن يكون له بذور او جذور فيها حياة كامنة لا تظهر من مكمنها الا بالماء ، كما ان البيوض التي يتولد منها الحيوان — ادناها كالصئبان وبذور الديدان واوسطها كبيض الطير والحيات واعلاها كبيوض الارحام — كلها ذات حياة لا تنتج الا بتلقيح ماء الذكور لها ؟

قلنا ان هذه الحياة لم تكن معروفة عند واضعي اللغة فهي اصطلاح جديد ، واهل اللغة خوطبوا بعرفهم في الحياة والموت ففهموا ، على أن بعض المفسرين والمتكلمين قد قالوا إن الانسان يفنى كله الا العجب وهو (بوزن فلس) أصل الذنب المسمى بالعصص فهو كنواة النخلة تبقى فيه الحياة كامنة بعد فناء الجسم ، وروي أن الله تعالى ينزل ماء من السماء فتمطر الارض أربعين يوما فتنبت منه الاجساد كما ينبت الحب في الارض . فالقائلون ببقاء عجب الذنب يرون أن ذلك المطر يفعل فيه ما يفعل في الحب والنوى . وليس لهذا أصل صحيح من الكتاب والسنة

وانما يقال لاهل العلم بالنبات وبالحياة النباتية والحيوانية : إنكم تقولون بأن الارض كانت كرة نارية ملتهبة ، وان الاحياء الاولى وجدت فيها بالتولد الذاتي الذي انقطع بعد ذلك بتسلسل الاحياء لان طبيعة الارض لم تبق مستعدة له كما كانت وهي قريبة العهد بالتكوين ، وقد نطق القرآن الحكيم بأن الارض تفنى بتفرق مادتها ، ثم يعيدها الله كما بدأها ، قال تعالى (٥٦ : ٤ اذا رُجّت الارض رجا ٥ وبسّت الجبال بسا ٦ فكانت هباء منبثا) فهذه الرجة هي التي سماها في سور أخرى بالقارعة والصاخة ، والمعقول أن كوكبا يقرعها باصطدامه بها فتفتت جبالها وتكون كالهباء المتفرق في الجو وهو ما يسمونه بالسديم ، وقال تعالى (٢١ : ١٠٣ كما بدأنا أول خلق نعيده * ٧ : ٨ كما بدأكم تعودون)

والاشبه أن تشبيه الاعادة بالبدء إنما هو بالاجمال دون التفصيل ، فكما خلق الله جسد الانسان الاول خلقا ذاتيا مبتدأ ثم نفخ فيه الروح — يخلق أجساد جميع أفراد الانسان خلقا ذاتيا معاداً ثم ينفخ فيها أرواحها التي كانت بها أناسي في الحياة الدنيا ، لا انه يجعلها متسلسلة بالتوالد من ذكر وأنثى كالنشأة الاولى . إذ كانت الاجساد كاللباس أو السكن لها ، واذا كان الناس قد بلغوا من علم الكيمياء أن يحللوا بعض المواد المركبة من عناصر كثيرة ثم يركبوها ، أفيعجز خالق العالم كله أو يستبعد على قدرته أن يعيد أجساد ألوف الالوف مرة واحدة؟ وأي فرق عنده بين القليل والكثير ، وهو على كل شيء قدير ؟

على أنه قد ثبت عند الروحيين من علماء الكون في هذا العصر وما قبله ان الله تعالى قد أعطى الارواح المجردة قدرة على التصرف في مادة الكون بالتحليل والتركيب ، وانها بذلك تركب لنفسها من هذه المادة جسما لطيفاً أو كثيفاً تحلّ فيه ، وهو ما يسميه علماؤنا بالتشكل في تفسير مجيء الملك جبريل النبي (ص) مرة بشكل اعرابي ، وأحيانا في صورة دحية الكلبي ، واذا كان الماديون لا يصدقون الروحانيين في هذا ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا إنه محال في نفسه ، وانما قصارى انكارهم أن قالوا انه لم يثبت عندنا ، واذا كان ممكناً غير محال أن يكون مما وهب الخالق للمخلوق . أفيكون من المحال أن يفعله الخالق عز وجل من غير أن يجعل للارواح فيه عملا ؟

ليس للكفار شبهة قربه على أصل البعث ، وكل ما كان يستبعده المتقدمون من أخبار عالم الغيب قد قرب به ترقي العلوم الطبيعية الى العقول والافهام ، حتى قال بعض كبراء الغرب ليس في العالم شيء محال ، ولكن للمتقدمين والمتأخرين شبهة على حشر الاجساد ترد على ظاهر قول جمهور المسلمين ان كل احد يحشر بجسده الذي كان عليه في الدنيا أو عند الموت لكي يقع الجزاء بعده على البدن الذي اقترف الاعمال .

وتقرير هذا الايراد أن هذه الاجساد مركبة من العناصر المؤلفة منها مادة الكون كله وهي مشتركة يعرض لها التحليل والتركيب فتدخل الطائفة منها في عدة أبدان على التعاقب فمن الانسان والحيوان ما تأكله الحيتان أو الوحوش ومنها ما يحرق فيذهب بعض أجزائه في الهواء فيتصل كل بخاري — أو

غازيّ — منها بجنسه كالماء والكربون وينحل ما يدفن في الارض فيها ثم يتغذى بكل منهما النبات الذي يأكله الناس والانعام فيكون جزءاً من أجسادها ، ويأكل الناس من لحوم الحيتان والانعام التي تغذت من أجساد الناس بالذات أو بالواسطة ، فلا يخلص لشخص معين جسد خاص به ، بل ثبت أن الاجساد الحية تنحل وتندثر بالتدريج وكلما انحل بعضها بالتبخر وبموت بعض الدقائق الحية يحل محله غيره من الغذاء بنسبة منتظمة ، بحسب سنن الله الذي أحسن كل شيء خلقه ، فلا يمر بضع سنين على جسد الا ويتم اندثاره وتجدده ، فكيف يمكن أن يقال إن كل انسان وحيوان يحشر بجسده الذي كان في الدنيا ؟

وقد اجاب بعض العلماء عن هذا بأن للجسد أجزاء أصلية ، وأجزاء فضلية والذي يعاد بعينه هو الاصلي دون الفضلة ، وجعل بعضهم الاصلي عبارة عن ذرات صغيرة وجوز أن تكون هي التي ورد أن الله تعالى أودعها في صلب آدم أبي البشر بصورة الذرّ كما روي في تفسير قوله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) الآية — وسيأتي تحقيق معناها وما ورد فيها في تفسير هذه السورة — وجوز شيخنا الشيخ حسين الجسر في الرسالة الحميدية أن يكون ذلك الذر مما لا يدركه الطرف لتناهي صغره كالاحياء المجهرية أي التي لا ترى الا بالمنظار المسمى بالمجهر (الميكرسكوب)

وقد بينا في غير هذا الموضع أن التزام القول بوجوب حشر الاجساد التي كانت لكل حي باعيانها لاجل وقوع الجزاء عليها غير لازم لتحقيق العدل لجميع قضاة العالم المدني في هذا العصر يعتقدون أن ابدان البشر تتجدد في سنين قليلة ولا يوجد أحد منهم ولا من غيرهم من العقلاء يقول إن العقاب يسقط عن الجاني بانحلال اجزاء بدنه التي زاول بها الجناية وتبدل غيرها بها. فاذا لم يكن عندنا نص صريح من القرآن أو الحديث المتواتر على بعث الاجساد باعيانها فنحن غير ملزمين قبول الايراد وتكلف دفعه ، فان حقيقة الانسان لا تتغير بهذا التبدل ، فقد تبدلت اجسادنا مرارا ولم تتبدل بها حقيقتنا ولا مداركنا ، ولا تأثير الاعمال التي زاولناها قبل التبدل في انفسنا ، بل لم يكن هذا التبدل الا كتبدل الثياب كما بيناه من قبل

وقد قال بعض اعلام المتكلمين بمثل هذا ولم تكن المسألة الاخيرة معلومة

في عصرهم . قال السعد التفتازاني في شرح المقاصد بعد بيانه لما قاله الغزالي في اثبات كون الحشر والمعاد للروح والجسد جميعا مانصه :

« نعم ربما يميل كلامه وكلام كثير من القائلين بالمعادين الى أن معنى ذلك أن يخلق الله تعالى من الاجزاء المتفرقة لذلك البدن بدنا فيعيد اليه نفسه المجردة الباقية بعد خراب البدن . ولا يضرنا كونه غير البدن الاول بحسب الشخص، ولا امتناع اعادة المعدوم بعينه. وما شهدت به النصوص من كون أهل الجنة جرداً مرداً وكون ضرس الكافر مثل جبل أحد يعضد ذلك . وكذا قوله (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) ولا يبعد أن يكون قوله تعالى (أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم) اشارة الى هذا

(فان قيل) فعلى هذا يكون المثاب والمعاقب باللذات والآلام الجسمانية غير من عمل الطاعة، وارتكب المعصية (قلنا) العبرة في ذلك بالادراك وانما هو للروح ولو بواسطة الآلات وهو باق بعينه، وكذا الاجزاء الاصلية من البدن، ولهذا يقال للشخص من الصبا الى الشيخوخة انه هو بعينه وان تبدلت الصور والهيئات، بل كثير من الآلات والاعضاء، ولا يقال لمن جنى في الشباب فعوقب في المشيب انها عقوبة لغير الجاني

(قال) «لنا أن المعتمد في اثبات حشر الاجساد دليل السمع والمفصح عنه غاية الافصاح من الاديان دين الاسلام ومن الكتب القرآن ، ومن الانبياء محمد عليه السلام . والمعتزلة يدعون اثباته بل وجوبه بدليل العقل — وتقريره انه يجب على الله ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، وإعواض المستحقين ، ولا يتأتى ذلك الا باعادتهم باعيانهم فيجب ، لان ما لا يتأتى الواجب الا به واجب. وربما يتمسكون بهذا في وجوب الاعادة على تقدير الفناء ومبناه على اصلهم الفاسد في الوجوب على الله تعالى ، وفي كون ترك الجزاء ظلما لا يصح صدوره من الله تعالى ، مع امكان المناقشة في أن الواجب لا يتم الا به، وانه لا يكفي المعاد الروحاني ، ويدفعون ذلك بأن المطيع والعاصي هي هذه الجملة أو الاجزاء الاصلية لا الروح وحده . ولا يصل الجزاء الى مستحقه الا باعادتها (والجواب) انه ان اعتبر الامر بحسب الحقيقة فالمستحق هو الروح لان مبنى الطاعة والعصيان على الادراكات والارادات والافعال والحركات وهو

المبدأ للكل ، وان اعتبر بحسب الظاهر يلزم أن يعاد جميع الأجزاء الكائنة من أول التكليف إلى الممات ولا يقولون بذلك . فالاولى التمسك بدليل السمع « وتقريره ان الحشر والاعادة أمر ممكن أخبر به الصادق فيكون واقعاً . أما الامكان فلأن الكلام فيما عدم بعد الوجود أو تفرق بعد الاجتماع أو مات بعد الحياة فيكون قابلاً لذلك ، والفاعل هو الله القادر على كل الممكنات ، العالم بجميع الكليات والجزئيات . وأما الاخبار فلما تواتر عن الانبياء سيما نبينا عليه السلام أنهم كانوا يقولون بذلك وأنه ورد في القرآن من النصوص لا يحتمل أكثرها التأويل مثل قوله تعالى (قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة * فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون * فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة * أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه؟ بلى قادرين على أن نسوّي بنانه * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء * كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها * يوم تشقق الارض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير * أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور) الى غير ذلك من الآيات ومن الاحاديث أيضاً (وهي) كثيرة ، وبالجملة فاثبات الحشر من ضروريات الدين ، وانكاره كفر بيقين

(فان قيل) الآيات المشعرة بالمعاد الجسماني ليست أكثر وأظهر من الآيات المشعرة بالتشبيه والجبر والقدر ونحو ذلك وقد وجب تأويلها قطعاً فلنصرف هذه أيضاً الى بيان المعاد الروحاني وأحوال سعادة النفوس وشقاوتها بعد مفارقة الابدان على وجه يفهمه العوام . فان الانبياء مبعوثون الى كافة الخلائق لارشادهم الى سبيل الحق وتكميل نفوسهم بحسب القوة النظرية والعملية وتبقية النظام المفضي الى صلاح الكل وذلك بالترغيب والترهيب بالوعد والوعيد ، والبشارة بما يعتقدونه لذة وكمالاً ، والانذار عما يعتقدونه ألماً ونقصاناً ، واكثرهم عوام تقصر عقولهم عن فهم الكمالات الحقيقية ، واللذات العقلية ، وتقتصر على ما ألفوه من اللذات والآلام الحسية ، وعرفوه من الكمالات والنقصانات البدنية ، فوجب ان تخاطبهم الانبياء بما هو مثل للمعاد الحقيقي ترغيباً وترهيباً للعوام ، وتتميماً لامر النظام ، وهذا ما قاله أبو نصر الفارابي : ان الكلام مُثُل وخيالات للفلسفة

(قلنا) انما يجب التأويل عند تعذر الظاهر ولا تعذر ههنا سيما على القول بكون البدن المعاد مثل الاول لا عينه ، وماذكرتم من حمل كلام الانبياء ونصوص الكتاب على الاشارة الى مثال معاد النفس والرعاية لمصلحة العامة نسبة للانبياء الى الكذب فيما يتعلق بالتبليغ، والقصد الى تضليل اكثر الخلائق، والتعصب طول العمر لترويج الباطل واخفاء الحق ، لانهم لا يفهمون الا هذه الظواهر التي لا حقيقة لها عندكم ، نعم لو قيل ان هذه الظواهر مع ارادتها من الكلام وثبوتها في نفس الامر مثل للمعاد الروحاني واللذات والآلام العقلية وكذا اكثر ظواهر القرآن على ما يذكره المحققون من علماء الاسلام لكان حقا لا ريب فيه ، ولا اعتداد بما ينفيه » اه

ومن تأمل هذا من أهل عصرنا تظهر له دقة افهام هؤلاء المتكلمين الذين صوروا الشبهة بنحو مما يؤخذ من أحدث اكتشافات هذا العصر في علم الكيمياء وغيره وأجابوا عنها بما يغني عن جواب آخر. وما قاله الفارابي وأمثاله فهو كاكثر فلسفتهم فيما وراء الطبيعة جهل بحقيقة الانسان ، وضلال في تأويل الاديان ، فالانسان روح وجسد ، وكماله بحصول لذاته الروحية والجسدية جميعا ، ولا تنافي بينهما ، ولو كان روحانيا محضا لكان ملكا أو شيطانا ،ولم يكن إنسانا ، وقد سبق لنا بيان هذه الحقيقة مرارا .

وأما القول بالاجزاء الاصلية والاجزاء الفضلية فهو لا يدفع الشبهة ، ولا تقوم به حجة ، وتفسير الاجزاء الاصلية بالذرّ أو ما يشبهه الذي ورد ان الله تعالى جعله في صلب آدم وأخذ عليه الميثاق فهو غير ظاهر في هذا المقام اذ لا يصح أن تكون هذا الجراثيم المشبهة بالذر من أجزاء الجسد الظاهرة التي يعنيها من يقولون بحشر هذه الاجساد بأعيانها

ولكن لهذه المسألة وجهاً آخر من النظر العلمي وهو هل خلق الله البشر في التكوين الاول جراثيم حية تتسلسل في سلائلهم التناسلية ، فان مسألة أصول الاحياء كلها من أخفى مسائل الخلق ، والقاعدة المبنية على التجارب والمباحث الكثيرة ان كل حي يوجد في الارض في حالها هذه فهو من أصل حيّ كما تقدم ، وان كل أصل من جراثيم الاحياء الحيوانية والنباتية يندمج فيه جميع مقوماته ومشخصاته التي يكون عليها اذا قدر له أن يولد وينمي

ويكمل خلقه ، فنواة النخلة مشتملة على كل خواص النخلة التي تنبت منها حتى لون بسرها وشكله ودرجة حلاوته عند ما يصير رطباً فتمراً ، ولا يعلم أحد من البشر كيف وجدت هذه الاصول والجراثيم في التكوين الاول سواء منهم القائلون بخلق الانواع دفعة واحدة والقائلون بالخلق التدريجي على قاعدة النشوء والارتقاء، الا أن لهؤلاء نظرية في تصوير التكوين الاول من مادة زلالية مكونة من عناصر مختلفة لها قوى التغذي والانقسام والتوالد في وقت كانت طبيعة الارض فيها غير طبيعتها في هذا الزمن وما يشبهه منذ ألوف الالوف من السنين ، ولكن كيف صار لما لا يحصى من أنواع النبات والحيوان الدنيا والوسطي والعليا جراثيم مشتملة على ما أشرنا اليه من الخواص والاسرار لا تتولد الا منها ؟ انهم ليسوا على علم صحيح بهذا ولا بما قبله (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم)

أطال شيخنا الجسر رحمه الله تعالى في المسألة فأثبت أنها من الممكنات اذ لا محال في ابداع الملايين الكثيرة من النسم في ظهر آدم وقد ثبت عند علماء هذا العصر أن في نقطة الماء من الجراثيم الحية بعدد جميع من على الارض من البشر ، وارتأى أن مستودعها من آدم كان في منيه ، وانها كانت تخرج منه بالوقاع (قال) « فتحل في البزور التي تنفصل من مبيض زوجته فيكون هياكلها من تلك البزور مع السائل المنوي ويطورها أطواراً حتى تبلغ صورة الهيكل الانساني، وأول ذرة من أولاده نقلها الى بزرتها نقل معها عدد الذرات التي تكون أولاداً لها ثم ينقل [1] تلك الذرات في المني الذي ينفصل [2] فيما بعد عن هيكل هذه الذرة الاولى ، وهكذا الحال في بقية أولاده وأولادهم يفعل على تلك الكيفية الى آخر الدهر ... وعند بلوغ كل هيكل الى حد محدود يرسل الله تعالى الروح فتحل في ذرتها وتسري فيها وفي هيكلها الحياة والحركة ، فكل انسان هو مجموع الروح والذرة ، وهذه الذرة هي الاجزاء الاصلية التي قال بها أتباع محمد (ص) وانها الباقية مدة العمر وهي المعادة باعادة الروح اليها بعد ان تفارقها بالموت ، والهيكل هو الاجزاء الفضلية التي تروح وتجيء وتزيد وتنقص . فاذا أراد الله تعالى موت الانسان فصل عن ذرته الروح ففارقتها

(١) و (٢) كذا والظاهر ان يقال نقل وانفصل بالماضي

الحياة وفارقت الهيكل الذي هو الاجزاء الفضلية وحلها الموت فيأخذ الهيكل بالانحلال ويجري عليه من التفرق والدخول في تركيب غيره ما يجري ، والذرة محفوظة بين أطباق الثرى كما تحفظ ذرات الذهب من البلى والانحلال وان دخلت في تركيب حيوان فانما تدخل في تركيب هيكله الذي هو الاجزاء الفضلية محفوظة غير متبدلة ، فاذا انحل ذلك الهيكل عادت محفوظة في اطباق الثرى ، ولا تدخل في تركيب الاجزاء الاصلية لذات الحيوان التي هي حقيقته ، غاية ما يطرأ عليها بالموت مفارقة الروح لها ، وانحلال هيكلها ، واذا اراد الله تعالى حياتها اعاد الروح اليها ، فتعود اليها الحياة وبقية خواصها وان كان هيكلها منحلا

« ومن هنا تنحل شبهة سؤال القبر ونعيمه وعذابه وامثال ذلك من امور البرزخ التي وردت النصوص الشرعية بها ، وانها تكون قبل البعث

« ثم اذا اراد الله تعالى ان يبعث الخلق للحساب اعاد تكوين هياكل الذرات الانسانية التي هي الاجزاء الفضلية سواء كانت هي الاجزاء السابقة او غيرها — اذ الهياكل دائمة تبدل الذرات ، واحل الذرات في تلك الهياكل وبتعلق الروح بها تعود فيها الحياة في هياكلها الحياة ، ويقوم البشر في النشأة الاخرة كما كانوا في تلك الدار . وجميع ما تقدم يمكن ان يكون حاصلا في بقية الحيوانات غير الانسان في جميع تفصيله »

ثم ضرب المثل بالامثال المقربة لذلك بأنواع جنة الاحياء الخفية وحياتها في الماء وغيره مع تناسلها بنظام غريب ودخول المرضية منها في أجساد المرضى وسريانها في دورة الدم ، وبالحيوانات المنوية منها في المني الذي ينفصل من الانثيين ويلقح بويض الانثى — وقال بعد تلخيص ماقالوه في صفتها وقدرها وحركتها — « فأي مانع من أن تلك الحيوانات المنوية جعلها الخالق تعالى تحمل ذرات بني آدم التي هي أصغر منها وتسبح بها في السائل المنوي حتى تلقيها في البزور المنفصلة من مبيض الام ؟ ... ثم علل بهذا كون الانسان ينتقل من الاب الى الام حتى قال علماء ان الانسان من بزرة أمه وليس لأبيه منه الا مجرد التلقيح

ثم ذكر عمل القلب وتعليلهم لحركته المنتظمة واستظهر أنه هو مركز الذرة الانسانية وانها بحلول الروح فيها تتحرك تلك الحركة المنتظمة التي تنشأ

عنها دورة الدم ، وبعد ايضاح ذلك قال:

« وخلاصة ما تقدم أن الانسان الحقيقي على هذا التقرير هو الذرة التي تحل في القلب وتحلّ فيها الروح فتكسبها الحياة وتسري الحياة الى الهيكل ، ثم الهيكل انما هو آلة لقضاء أعمال تلك الذرة في هذا الكون ولا كتساب معارفها بسببه ، وتلك الذرة مع الروح الحالة فيها هي المخاطب بالتكليف والمعاد والمنعم والمعذب — الى آخر ما ورد في حق الانسان

« وعلى هذا التقرير نجد أن الشبه التي وردت على ماجاء في الشريعة المحمدية من البعث وسؤال القبر ونعيمه وعذابه وحياة بعض البشر في قبورهم ونحو ذلك سقطت برمتها كما يظهر بالتأمل الصادق والله أعلم »

ثم أورد على هذا أن بعض النصوص صريحة في اعادة الهيكل الانساني أو بعضه كالعظام — كما تقدم مثله عن السعد — وأجاب بأن هذه النصوص وردت لدفع اشكالات أخرى كانت تعرض لافكار أهل الجاهلية في اعادتها اذ عند ذكر البعث لا تنصرف أفكارهم الا الى اعادة هذا الهيكل المشاهدلهم، فيقولون كيف تعود الحياة للعظام بعد أن تصير رميما ؟ فتدفع هذه النصوص اشكالاتهم بقدرة الله الشاملة وعلمه المحيط ، (قال) وهذا لا ينافي التوجيه الذي تقدم في اعادة الاجزاء الاصلية التي هي الذرات لتدفع به الاشكالات الاخرى التي تقدمت فليتأمل . اهـ

ثم صرح بأنه لا يقول إن ما حرره مما يجب اعتقاده ؛ وانما هو لدفع الاشكال عمن يعرض له

فهذا ملخص رأيه رحمه الله تعالى ، وغايته أنه مبني على تأويل بعض الآيات كغيره ؛ وليس فيه الا محاولة الجمع بين ما ورد في خلق ذرية آدم وقول من قال بالفرق بين الاجزاء الاصلية والفضلية وهو تكلف لا حاجة اليه ، ولا يمكن أن يكون المراد بالاجزاء الاصلية لكل فرد ذرة حية في بدنه كالجنة التي لا ترى في الماء والدم وغيرهما

نعم انه يجوز عقلا أن يحمل الحيوان المنويّ الذي يلقح بويضة المرأة في الرحم ذرة حية هي أصل الانسان ، كما يجوز أن يكون هذا الحيوان المنوي

نفسه هو الذي ينمي في البويضة ويكون انسانا ، وان يكون أصله مايتولد من ازدواج خليتيه بخليتها كما سيأتي ، وأيها كان أصل الانسان فانما يكون كذلك بكبره ونمائه كما تكون نواة الشجرة شجرة باسقة مثمرة، وبذلك يكون الفرع عين الاصل فلا يكون له أصل آخر بشكل مصغر في هذا الهيكل لا في القلب ولا في المني ، وانما قد يكون في هيكله أصل أو أصول لاناسي آخرين يكونون فروعا له اذا أراد الله ذلك كما يكون للنخلة النابتة من النواة نوى كثيرة يمكن أن ينبت منها نخل كثير

وأما المعروف عند علماء العصر في هذا الشأن فهو ان سر حركة القلب وان كان لا يزال مجهولا فن المعلوم أن الدم الوارد منه الى الخصيتين هو الذي يغذيهما وبتغذيهما به تنقسم خلاياها فتتولد الحيوانات المنوية من انقسامها، وتلك سنة الله في جميع الاحياء تتغذى وتنمي بالتوالد الذي يكون من انقسام الخلايا التي تتكون بنيتها منها ، ومن غريب صنع الله الذي أتقن كل شيء أن في كل خلية من خلايا الاجسام الحية نويتين (تصغير نواة) صغيرتين تتولد الخلية الجديدة باقترانهما فسنة الزواج عامة في أنواع الاحياء وفي دقائق بنية كل منها كما قلنا في المقصورة

وسنة[1] الزواج في النتاج بل كل تولد نراه في الدنا
فاجتله في الحيوان ناطقاً وأعجماً وفي النبات المجتنى
بل كل ذرة بدت في بنية زاد بها الحي امتداداً ونمى[2]
خلية تقرن في غضونها نويتان فاذا الفرد زكا[3]

والحيوانات المنوية تتولد من الخلايا المبطنة بها الخصية من داخلها بسبب تغذية الدم لها ولا مانع من وجود سبب خفي لذلك الدم كذرات حية لا ترى في المناظير المكبرة المعروفة الآن ، فهم يقولون بأنه لا يبعد أن يوجد مناظير أرقى منها يرى فيها من أنواع هذه الجنة المسماة بالبكتريا ما لا يرى الآن وهم يقولون إن الحيوان المنوي له خلية واحدة وله رأس وجسم وذنب

---

(١) سنة مجرورة بالعطف على ما قبلها من ذكر سنن الله في الخلق
(٢) نمى ينمي بوزن رمى يرمي أفصح من نما ينمو (٣) الزكا الزوج والشفع

ورأسه هو نواة الخلية ، وهو سريع الحركة شديد الاضطراب ، ويتولد من عهد بلوغ الحلم لا قبله ، فاذا وصلت هذه الحيوانات الى رحم الانثى مع المنى الذي يحمله اليه تبحث بطبيعتها عن البويضة التى فيه فالذي يعلق بها يدخل رأسه فيها وهي مثله ذات نواة او نوية واحدة فيحصل التلقيح باقتران النويتين. ويقولون إن بويضات النسل تكون في البنت من ابتداء خلقها فتولد وفيها ألوف منها معدودة لا تزيد ويظنون أنها تسقط منها في زمن الطفولة، ثم تتكون فيها بويضات النسل بعد البلوغ بسبب دم الحيض ، ذلك بأن في داخل الرحم عضوين مصمتين يشبهان خصيتي الرجل يسميان المبيضين لان في داخلهما بويضات دقيقة جدا لا ترى الا بالمناظير المكبرة تكون في حويصلات يقترب بعضها من سطح المبيض رويداً رويداً حتى ينفجر فتخرج منه البويضة الى بوق الرحم فتكون مستعدة بذلك لتلقيح الحيوان المنوي لها . وأكثرها يضمر بالتدريج الى أن يضمحل ولا ينفجر ، وإنما ينفجر منها في زمن الحيض. والمعروف أن كل حيضة تفجر حويصلة واحدة ، تكون منها بويضة واحدة فى الغالب ، وأن ذلك يكون بالتناوب بين المبيضين مرة في الايمن ومرة في الايسر ، وقد اهتدى أحد الاطباء بالتجارب الطويلة الى أن البويضة التي تكون في المبيض الايمن يتولد منها الذكر والتي تكون فى المبيض الايسر تتولد منها الانثى ، وانه متى عرف بوضع المرأة أول ولد لها متى كان حملها يمكن أن يعرف بعد ذلك دور بويضة الذكر ودور بويضة الانثى في الغالب ويكون للزوجين كسب واختيار لنوع المولود إن قدره الله لهما . وقد فصلنا هذه المسألة في تفسير (٦ : ٥٩ وعنده مفاتح الغيب) [1] من سورة الانعام. وأما التوأمان فسببهما إما انفجار بويضتين فاكثر شذوذاً واما اشتمال البويضة الواحدة على نويتين يلقحان معا ، والله اعلم . وقد ذكرنا هذا الاستطراد للاعتبار بقدرة الخالق وسعة علمه ودقائق حكمته بعد توفية مسألة البعث حقها من البحث وكان المناسب أن يذكر بحث التكوين في سياق خلق آدم في أوائل السورة

ضرب الله إحياء البلاد بالمطر ، مثلا لبعث البشر ، ثم ضرب اختلاف إنتاج البلاد ، مثلا لما في البشر من اختلاف الاستعداد ، للغي والرشاد ، فقال

(١) ص ٤٦٤ ج ٧ تفسير

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكداً ﴾
قال ابن عباس هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، أي والبر والفاجر، ومعناه ان الارض منها الطيبة الكريمة التربة التي يخرج نباتها بسهولة ، وينمي بسرعة، ويكون كثير الغلة طيب الثمرة ، ومنها الخبيثة التربة ، كالحرة والسبخة، التي لا يخرج نباتها على قلته وخبثه — ان انبتت — الا بعسر وصعوبة، قال الراغب : النكد كل شيء خرج الى طالبه بتعسر ، يقال رجل نكد ونكد (أي بفتح الكاف وكسرها) وناقة نكداء : طفيفة الدرّ ، صعبة الحلب . وذكر الآية . وقوله والذي خبث حذف موصوفه أي والبلد الذي خبث ، وهو دون الخبيث في الخبث ، فان صيغة فعيل من الصيغ التي تدل على الصفات الكاملة الثابتة ، والنكد قد يكون فيما دون هذا من الخبث . ومن دقة البلاغة في هذين التعبيرين دلالتهما على طلب الرسوخ في صفات الكمال ، وتجنب أدنى الخبث والنقص وبين ذلك درجات . روى احمد والشيخان والنسائي من حديث أبي موسى (رض) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب [1] أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة اخرى منها انما هي قيعان [2] لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به » وقد فسر (ص) القسم الاول وهو الذي نفع وانتفع كالهادي والمهتدي والثالث الذي لم ينفع ولم ينتفع كالجاحد ، وسكت عن الثاني وهو الذي انتفع غيره بعلمه من دونه، كالعالم الذي يعلم غيره ولا يعمل بعلمه ، المشبه بالارض التي تمسك الماء ولا تنبت ، وحاله معلومة بل له أحوال فمنه المنافقون ومنه المفرّطون . ويدل المثلان على أن الوراثة سبب فطري لهذا التفاوت في الاستعداد، ولهذا يحسن أن تفضل المرأة التقية الكريمة الاخلاق الطاهرة الاعراق، على المرأة الجميلة اذا كانت من بيت دنيء ، وكذا على المرأة

(١) الاجادب جمع جدب بفتح الجيم والدال المهملة وهي التي لا تشرب ولا تنبت (٢) القيعان بكسر القاف جمع قاع وهي الارض المستوية

المتعلمة غير الكريمة الخلق ، ولا الطيبة العرق ، وقد شبه النبي (ص) الناس بالمعادن، وشبه المرأة الحسناء في المنبت السوء بخضراء الدمن أي حشيش المزبلة

ومن اختبر الناس رأى أن المعروف يخرج من الطيبين عفوا بلا تكلف ، وأن الخبيثين لايخرج منهم الخير والمعروف ولا الحق الواجب عليهم الا نكدا، بعد إلحاف أو ايذاء في الطلب أو إدلاء الى الحكام ، ومراوغة في الخصام .

﴿ كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾ اي كمثل هذا التصريف البديع المثال الموضح بالامثال؛ نصرف الآيات الدالة على علمنا وحكمتنا ورحمتنا بالاتيان بها على أنواع جلية تبين مرادنا لقوم يشكرون نعمنا، فيستحقون مزيدنا منها، وتثويبنا عليها. عبر بالشكر في الآية التي موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والارشاد ، وبالتذكر في الآية التي موضوعها الاعتبار والاستدلال

استطراد في بيان بعض نعم الله على الخلق بالهواء والرياح

الهواء جسم لطيف مما يعبر عنه علماء الكيمياء بالغاز لا لون له ولا رائحة مركب تركيبا مزجيا من عنصرين غازيين أصليين يسمون احدهما (الأكسجين) وخاصته توليد الاحتراق والاشتعال وإحداث الصدأ في المعادن وهو سبب حياة الاحياء كلها من نبات وحيوان وانسان . وثانيهما (الازوت — او النيتروجين) وهو اخف عناصر المادة وزنا وسيأتي ذكر بعض خواصه ، ومن عناصر اخرى (كالايدروجين) وهو المولد للماء (وحمض الكربون) وهو اصل مادة الفحم وغازه السام (والهليوم والنيون والكريتون) وهي عناصر اكتشفت من عهد قريب . وتكثر فيه انواع الغازات والابخرة التي تنفصل من مواد الارض وتختلف كثرة هذه المواد وقلتها باختلاف القرب والبعد من الارض ، وهو محيط بالارض الى مسافة ٣٠٠ كيلومتر بالتقريب

يسمون الهواء عنصر الحياة فلولاه لم توجد الحياة الحيوانية ولا النباتية على هذه الارض، فالانسان وسائر أنواع الحيوان تستنشق الهواء فيطهر ما فيه من الاوكسجين دماءها من الكربون السام فيخرج بالتنفس الى الجو فيتغذى به النبات ولو احتبس ما يتولد في دم الحيوان من السموم الآلية في صدره لأماته مسموما كما يموت الغريق بعدم دخول الهواء في رئتيه فمثله في ذلك كمثل مصباح

زيت البترول الذي يمد الكسجين الهواء اشتعاله، ألم تر انك اذا وضعت على فوهة زجاجة المصباح غطاء محكما ينطفىء نوره سريعا ؟ ولا يستثنى من ذلك الحيوانات المائية كالسمك فان الهواء الذي يخالط الماء كاف لها

والنبات يمتص الكربون السام من الهواء فيتغذى به كما تقدم ويدع الاكسجين للحيوان ، فكل منهما يأخذ منه حظه، ويفيد في الحياة صنوه ، كما قلنا في المقصورة :

والباسقات رفعت أكفها تستنزل الغيث وتطلب الندى (١)
تمتلج الكربون من ضرع الهوا تؤثرنا بالاكسجين المنتقى (٢)

وكذلك الهواء الذي يتخلل الارض يساعد جذور النبات على امتصاصها الغذاء من التراب

ثم ان السموم التي تنحل في البدن يخرج قسم عظيم منها من مسامه بخارا اوعرقا فيمتصها الهواء ويدفعها الى الجو الواسع ، ولو انسدت مسام البدن لما كان الهواء الذي يدخل الرئتين كافيا لوقاية الانسان والحيوان من ميتة التسمم،

ومن منافع الهواء التي يغفل اكثر الناس عن شكر الرب عليها تطهيره سطح الارض التي نعيش عليها من الرطوبات القذرة وما يتولد فيها من جنة الاحياء الضارة « ميكروبات الامراض » فهو يمتصها ويدفعها في هذا الجو العظيم فيتفرق شملها وتزول قوة اجتماعها وقد تموت محترقة بأشعة الشمس فيه. وينبغي اتقاء الغبار الذي يحملها فقد ورد في الحديث « تنكبوا الغبار فان منه النسمة» وهي ذات النفس الحية. بل لولا الهواء لتعذر أن يجف ثوب غسل بل لكانت الارض مغمورة بالماء اذا أمكن ان يوجد الماء بغير الهواء، والعلاقة بينهما معروفة فكل منهما مزدوج بالآخر فالهواء يتخلل المياه، والمجاور منه للارض فيه كثير من بخار الماء، وهو يقل فيه ويكثر بحسب بعده عن البحار والانهار وقربه منها ، ومما اثبته علماء الكون المتأخرون أن بخار الماء وان كان يقل في الطبقات العليا من الجوّ كقلل الجبال وما فوقها فان عنصر (الايدروجين) وهو المولد للماء يكثر كثرة عظيمة في اعلى كرة الهواء ويقل الأكسجين في طبقات

(١) أي ان الاشجار الباسقة — وكذا الواطئة — من اسباب حدوث المطر وندي الجو فاستعير الطلب للسبب بتورية (٢) الامتلاج الارتضاع وهو استعارة ايضا

الجو العليا ويكثر بجوار الارض لثقله النوعي فهو اثقل من صنوه النتروجين وذلك من لطف الله وحكمته

ومن المعروف عندهم ان الهواء يتحول بشدة البرد والضغط الى ماء ثم الى جليد — كما ان الماء يتبخر بالحرارة حتى يكون هواء أو كالهواء في لطافته وعدم رؤيته وقد كان المتقدمون يحسبونهما شيئا واحداً ، وعلماء العرب فرقوا بين بخار الماء وكرة الهواء ولكن اسم البخار في لغتهم يشمل كل المواد اللطيفة التي تصعد في جو السماء التي يسميها العلماء في هذا العصر «الغازات»

والمشهور ان في الهواء من حيث حجمه لاثقله ٢١ جزءا في المئة من الاكسجين و ٧٩ في المئة من النيتروجين وواحدا في المئة من الارغون ، وهذه النسبة تكون هي الغالبة في الهواء المجاور للارض وهي ضرورية لحياة اكثر الاحياء حياة صالحة معتدلة ، فاذا زاد الاكسجين زيادة كبيرة أو نقص عما هو عليه لم يعد صالحا لحياة الاحياء بل يصير نارا محرقة وسما زعافا . فكون النيتروجين يزيد على ثلاثة ارباع الاوكسجين في حجم الهواء ضروري لتعديله وجعله صالحا لذلك ،

والنيتروجين ضروري للحياة ايضا وان لم يكن هو صالحا للحياة فهو اذا وضع فيه حيوان أو نبات لم يلبث ان يموت على انه غير سام — وضرورته للحياة من حيث تعديله للاكسجين ومنعه من الطغيان ومن حيث هو في ذاته ركن من اركان الغذاء للحيوانات ولا سيما العليا منها واعلاها الانسان فاذا خلا طعامها من المادة النيتروجينية لم يكف لحياتها به .

والنيتروجين يوجد في اجسام النبات كما يوجد في لحم الحيوان وبيضه ولبنه وهو الاصل فيه ، والنبات يأخذه من الارض ، وسائر غذاء الحيوانات من المواد النباتية ومعظمها من الكربون وهو يأخذها من الارض ومن امتصاصه لغاز الحامض الكربوني من الهواء . فهذا الغاز على شدة ضرره وقوة سمه في الهواء لمن يستنشقه لا بد له منه في ركن المعيشة الاعظم وهو النبات

اذا كثر هذا الحامض في الهواء فصار واحدا في المئة كان ضارا فاذا زاد على ذلك حتى صار ١٠ في المائة صار شديد الخطر على الانسان والحيوان. وهو يكثر في المباني التي يكثر فيها الناس بخروجه من انفاسهم والتي تكثر

فيها السرج والمصابيح الزيتية والغازية وكذا الشموع فانها تولده باحتراقها فاذا لم تكن فيها نوافذ متقابلة يدخل الهواء من بعضها ويخرج من الآخر فان هواءها يفسد به ويتسمم دم من فيها. وقد قال علماء هذا الشأن ان الانسان يحتاج الى اكثر من ١٦ مترا مكعبا من الهواء في الساعة وهو ينفث في كل ساعة ٢٢ لترا من هذا الغاز السام فينبغي ان يتقي جميع الناس الاجتماع ونوم الكثيرين في البيوت التى لا يتخللها الهواء ولا سيما اذا كان فيها مصابيح موقدة وان يحذروا من وقود الفحم فيها في ايام البرد فانه سبب مطرد للاختناق كما ثبت علما وتجربة ، الا اذا وضع في البيت بعد أن تم اشتعاله وذهب غازه في الهواء فلم يبق له رائحة ولا شيء من السواد

علمنا من هذا ان الخالق الحكيم قد جعل الهواء مركبا من المواد الضرورية لحياة الاحياء كلها وجعل النسبة بين اجزائه في كل من الحجم والثقل مناسبة لما يحتاج اليه كل جنس ونوع من النبات والحيوان فاذا نقص احدها بتصرف هذه الاحياء فيه بالتغذي والاستنشاق والنفث بما من شأنه ان يوقع اختلالا وتفاوتا في هذه النسبة كان له من سنن الله تعالى ما يعيد اليه اعتداله ويحفظه له كتأثير كل من اشعة الشمس في ورق النبات الاخضر ومن تموج البحار في توليد الاكسجين ، وحمل الرياح له الى الصحاري البعيده عن الماء الخالية من الاشجار

تستفيد جميع انواع النبات والحيوان من الهواء بفطرتها فلا تحتاج الى علم كسبي ولا الى عمل صناعي تهتدي بهما الى التزام منافعه واتقاء مضاره الا الانسان فانه وهو سيد هذه الموجودات بما خلق مستعدا له منا كتساب العلوم وإتقان الاعمال الى غير حد يعرف — هو المحتاج الى العلم الواسع والعمل المبني على العلم لاجل ذلك، وكلما اتسع علمه ودقت صناعته صار اشد حاجة الى العلم والصناعة ، فأهل البداوة أقل حاجة الى ذلك من اهل الحضارة لانهم أقرب الى حياة الفطرة وأقل جناية عليها من أهل الحضارة في اغذيتهم ومساكنهم

يبني اهل الحضارة الدور فيجعلون في كل دار بيوتاً كثيرة ومرافق مختلفة فاذا لم يراعوا فيها تخلل الهواء ونور الشمس لها فسد هواؤها ، وكثرت فيها جنة الامراض والادواء التى تفتك بأهلها ، ثم انهم يحتاجون في جملة

مايقيمون فيها من الدور والدكاكين والمعامل والمدارس والثكنات للسكن والاعمال العامة والتجارة والصناعة والتعليم والجند التي يسمى مجموعها المدينة الى مثل مايراعي في كل دار من قوانين الصحة كسعة الشوارع والجواد العامة وما يتفرع منها من النواشط الخاصة بطائفة من السكان بحيث يكون الانتفاع بالهواء والشمس عاما ، وينبغي ان يكون للمدينة الكبيرة حدائق وبساتين واسعة مباحة لجميع اهلها لما اشرنا اليه من حاجة الانسان والحيوان الى الشجر في اعتدال الهواء وليختلف اليها الناس عند ارادة الاستراحة من الاعمال، واحوجهم اليها الاطفال ، يتفيئون ظلالها ، ويستنشقون هواءها النقي المنعش . فان قصروا في هذا انتابت الامراض من يقيمون في الدور التي لايطهرها الهواء والنور، ثم تسري الى من يخالطهم من سائر طبقات السكان

وخير الهواء المعتدل بين الحرارة والبرودة، والجفاف والرطوبة، ومن فوائد الحار إفراز العرق من الجلد وهو مطهر لباطن البدن كتطهير الحمام لظاهره بما يخرج معه من الفضلات الميتة والمواد السامة ، فهذه الفائدة توازي ضرره في عسر التنفس وقلة ما يدخل معه في الرئة من الاكسجين وقلة ما يخرج منها من الكربون السام ، وفي ضعف الهضم واسترخاء الجسم

ومن فوائد البارد تشديد الاعصاب وتنشيط الجسم وهو يحدث حرارة في الباطن بكثرة ما يدخل معه من الاكسجين في الجوف وهو مولد الحرارة والاشتعال فيحتاج الى كثرة الوقود الذى يحرقه وهو الغذاء ولذلك يكثر الاكل ويقوى الهضم في الجو البارد وتشتد الحاجة فيه الى الحركة والعمل لدفع الدم الى الشرايين التي في ظاهر الجسم لتدفئته ، فهو يفيد الاقوياء الاصحاء ويضر الضعفاء والمصابين ببعض الامراض الصدرية وغيرها

فعلم من هذا انه ينبغي تخفيف الطعام في زمن الحر واجتناب الاكثار من اللحم ولاسيما الاحمر منه ومن الحلوى والادهان، وجعل معظم الغذاء من البقول والفاكهة

ومن حكم الله تعالى ولطف تدبيره في الهواء وفي اختلاف بقاع الارض في الحر والبرد ما يحدثه هذا الاختلاف من الرياح وما لها من المنافع للاحياء ولا سيما الناس

فمن سننه تعالى في نظام الكون ان الحرارة تمدد الاجسام فيخف وزنها ، وان المائعات والابخرة والغازات منها يعلو ما خف منها على ما ثقل ، فاذا وضع ماء وزيت في اناء يكون الزيت في اعلاه وان وضع اولا والماء في اسفله وان وضع آخراً لان الزيت أخف من الماء، والماء السخن يكون في أعلا الاناء والبارد في أسفله ، ومتى سخن كله يكون أعلاه أشد حرارة من أسفله. فعلى هذه السنة اذا سخن الهواء المجاور للارض بحرارتها لا يلبث ان يرتفع في الجو ويحل محله هواء ابرد منه لحفظ التوازن (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) وهذا هو الاصل في حدوث الرياح

ومن المعلوم أن حرارة الارض تكون على اشدها في خط الاستواء وهو وسط عرض الارض وما يقرب منه حيث تكون أشعة الشمس عمودية فيكون تأثير حرارتها في الارض على اشده ثم يضعف تأثيرها في جهتي الشمال والجنوب حيث تقع الاشعة مائلة بقدر هذا الميل فتكون الحرارة معتدلة ثم تكون باردة حتى تصل في منطقتي القطبين الى درجة الجليد الدائم لقلة ما يصيبها من شعاع الشمس مائلا في الافق لا تأثير له في الارض ، فهنالك تكون سنتنا يوما واحداً نصفه ليل ونصفه نهار ، وليل كل من ناحيتي القطبين نهار الآخر. وتحديد امثال هذه المسائل كلها موضعه علم (الجغرافية الطبيعية أو الرياضية) ولاختلاف درجات الحرارة في كل قطر أسباب غير القرب من خط الاستواء والبعد عنه أهمها الجبال والانجاد والاغوار ، والقرب أو البعد من البحار ،

لولا حركة الهواء وحدوث الرياح بما ذكرنا لازدادت حرارة البقاع الحارة سنة بعد سنة حتى تكون محرقة لكل شيء فيها ولازداد قرّ البقاع الباردة حتى يبس كل حي فيها فيكون جليدا كما يحصل لاسماك الانهار والبحار الشمالية التي تجمد في فصل الشتاء حتى اذا ما عادت مياهها الى سيلانها في فصل الصيف لانت تلك الاسماك وعادت اليها الحركة وسائر خواص الحياة

بالرياح ينتفع جو كل من البلاد الحارة والبلاد الباردة من جو الآخر بما في كل منهما من الخواص والمزايا التي أشرنا الى المهم منها، فبارتفاع هواء المنطقة الاستوائية الحار لخفته وانخفاض هواء القطبين لثقله يحدث في كل من

نصفي كرة الارض تياران هوائيان بين وسط الارض وطرفيها — كما يحدث في جو كل قطر على حدة ، فان الحر يشتد عندنا عصر من الضحوة الكبرى الى وقت الاصيل أو الى الليل فيرتفع ويأتي بدله هواء معتدل لطيف من جونا نفسه كما تقدم — واذا استمر الحر الشديد عدة أيام يخلفه هواء بارد معتدل أياما أخرى ، وهو في الغالب يكون من الاقطار المجاورة لنا - فكلما كانت حركة الريح شديدة كان مداها أبعد. وأقل حركة في الهواء تريك كيف يعدل الجو ما يمكنك أن تختبره في حجرتك اذا فتحت نافذة فيها وأخذت شمعة أو ذبالة - فتيلة - موقدة فوضعتها في أعلى النافذة مرة وفي أسفلها أخرى فانك ترى النور في أسفلها مائلا تحوك وفي أعلاها مائلا عنك الى خارج الحجرة لأن الهواء الحار الذي في الحجرة هو الخفيف فيخرج من أعلاها ويدخل بدله هواء الجو الذي هو أبرد من هواء الحجرة في اكثر الاوقات ، وانما يكون الهواء الخارجي أشد حرارة من هواء البيوت في أوقات هبوب الريح السموم. وبهذه القاعدة يعرف سبب اختلاف النسيم وهبوب الريح في سواحل البلاد الحارة تارة من البر كوقت الليل وتارة من البحر واكثره في النهار وذلك ان الماء أقل تأثرا بحرارة الشمس من الارض ولاسيما الرملية والحجرية

هـذا وإن للرياح في اتجاهها بين خط الاستواء والقطب جنوباً وشمالا وفيما بينهما شرقا وغرباً أسباباً معروفة كما أن لقوة الرياح فى البحار والاقطار أوقاتاً تختلف باختلاف مواقعهـا من الارض كالرياح الموسمية التي تشتد في فصل الصيف في المحيط الهندي حيث تكون البحار الشماليـة وكذا البحر المتوسط رهوا أو معتدلة الاضطراب تبعا لسكون الريح واعتدالها

وجملة القول إن أسباب حركة الهواء وهبوب الرياح وكون أصل المنتظم منها أربعاً ومنـه ما يسمونه الرياح التجارية المواتية والمضادة أو العكسية والرياح الموسمية — كل تلك الاسباب — معروفة للبشر في الجملة تبعا لعلمهم بسنن الله في الحرارة والبرودة وبهيئة الارض وحركتها وفصولها ، ولكن هذا العلم إجمالي فلا يعلم أحد من البشر متى تهب الريح في بلاده ومتى تسكن ومتى يشتد الحر في أيام شهور الصيف والبرد في ايام شهور الشتاء بالنسبة الى سائر الايام

ومن أعظم فوائد الرياح نقلها لمادة اللقاح من ذكور النبات

الى اناثه ، فان من الشجر ما هو ذكر ومنها ما هو أنثى كالنخل فوظيفة الاول تلقيح الآخر وهذا إنما يثمر بتلقيح ذاك له ولا يثمر بغير تلقيح ، واذا أجيد التلقيح كان سبباً لجودة الثمر والا فلا ، ومنها ما تشتمل كل شجرة منه على أعضاء الذكورة الملقحة وأعضاء الانوثة المثمرة . والرياح تنقل اللقاح فيما لا تتصل ذكوره باناثه نقلا تاما أو ناقصا . قال الله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) ولما نزلت هذه الآية لم يكن أحد من الناس يعلم هذه الحقيقة أي لم ينقل ذلك عن أحد منهم ، ولذلك جعل بعض المفسرين اللقح هنا مجازيا بتشبيه تأثير الرياح في السحاب ذلك التأثير الذي يتولد منه المطر بتأثير اللقاح في الحيوان وكونه سببا للحمل والنتاج

وأما منافع الرياح في احداث المطر فقد سبق بيانه في تفسير الآية التي جعلنا هذا الاستطراد متمما له بتفسيرها ببيان نعم الله على الخلق بها، والمطر هو الاصل لمياه الانهار والينابيع والآبار كما قال تعالى (انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض) والماء مركب من عنصري الاكسجين والادرجين ويخالط ماء المطر منه وهو أنقاه بعض ما يحمله الهواء من العناصر ومن المواد المنفصلة من الارض وعوالمها ، ومياه الارض يخالطها كثير من موادها وبعضها ضار وبعضها نافع ، ولذلك يفضل بعض المياه بعضا حتى ان بعضها ينقل في القوارير من قطر الى أقطار أخرى ويباع فيها غالي الثمن للشرب. ومنها المياه المعدنية المسهلة والنافعة لبعض الامراض دون بعض

وخلاصة القول ان الهواء والماء ،هما الاصلان لحياة جميع الاحياء ، وللحرارة والنور فيهما وسنن الله تعالى في حركتهما وانتقالهما ما علمت ، فهذه الاشياء (الهواء والماء والنور والحرارة) أثمن من الذهب والفضة والجواهر الكريمة كلها ، وكان من رحمة الله تعالى أن جعلها عامة مبذولة لا يمكن احتكارها ، وانما ذكرنا من منافعها ما يسهل على كل قارىء للمنار أن يفهمه، والا فان لها من المنافع والفوائد ما لا يعرفه الا أساطين علماء الكيمياء وهم لا يزالون يزدادون بها علما. وهذا مصداق لقوله تعالى (وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

---

(٥٨) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ

مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ

هذا سياق جديد في قصص الانبياء المرسلين المشهور ذكرهم في الامة العربية والشعوب المجاورة لها ، قد سبق التمهيد له فيما تقدم من نداء الله تعالى لبني آدم بقوله (يابني آدم اما يأتينكم رسل منكم) ـ الى آخر الآيتين ٣٣ و ٣٤ ـ ومنه يعلم وجه التناسب واتصال الكلام . قال تعالى :

﴿ لقد أرسلنا نوحا الى قومه ﴾ بدأ الله تعالى هذه القصة بالقسم لتأكيد خبرها لاول من وجه اليهم الخطاب بها وهم أهل مكة ومن وراءهم من العرب اذ كانوا ينكرون الرسالة والوحي ، على كونهم أميين ليس عندهم من علوم الامم وقصص الرسل شيء الا ان يكون كلمة في بيت شعر مأثور . أو عبارة ناقصة من بعض أهل الكتاب حيث كانوا يلقونهم من بلاد العرب أو الشام ، والقسم محذوف دل عليه لامه في بدء الجملة وهي لا تكاد تجيء الا مع قد لأنها مظنة التوقع ، ونوح اول رسول أرسله الله تعالى الى قوم مشركين هم قومه كما ثبت في حديث الشفاعة وغيره وتقدم التحقيق في هذه المسألة في تفسير سورة الانعام ، عند البحث في عدد الرسل المذكورين في القرآن وهل بعد آدم منهم أم لا ؟ واخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس أن قوم نوح هم الذين صوروا بعض الصالحين منهم ووضعوا لهم التماثيل لاحياء ذكرهم والاقتداء بهم ثم عبدوا صورهم وتماثيلهم وقد تقدم بيان هذا في تفسير الانعام وغيره

﴿فقال ياقوم اعبدوا الله، مالكم من اله غيره﴾ أي فناداهم بصفة القومية مضافة اليه استمالة لهم، ودعاهم الى عبادة الله تعالى وحده وبيان انه ليس لهم إله غيره يتوجهون إليه في عبادتهم، بدعاء يطلبون به مالا يقدرون عليه بكسبهم، وما جعله الله في استطاعتهم من الاسباب التي تنال بها المطالب، فان مثل هذا هو الذي يتوجه في طلبه الى الرب الخالق لكل شيء الذي بيده ملكوت كل شيء، وهذا التوجه والدعاء هو مخ العبادة ولبابها فلا يحل لمؤمن بالله تعالى ان يتوجه فيه الى غيره البتة — لا استقلالا ولا بالتبع للتوجه الى الله تعالى وارادة التوسط به عنده. فان هذا عين الشرك، الذي ضل به أكثر من ضل من الخلق.

وقوله تعالى « من إله » يفيد تأكيد النفي وعمومه، فلو قال قائل « ما عندنا من طعام او أكل » أفاد أنه ماثم شيء مما يطعم ويؤكل، ولو قال: ماعندنا طعام او أكل — لصدق بانتفاء ما يسمى بذلك مما يقدم عادة لمن يريد الغداء أو العشاء من خبز وادام، فان كان لدى القائل بقية من فضلات المائدة او قليل من الفاكهة لا يكون كاذبا. والمراد من النفي العام المستغرق هنا — انه ليس لهم إله ما يستحق ان يوجه اليه نوع ما من انواع العبادة لا لرجاء النفع او دفع الضرر منه لذاته ولا لاجل توسطه وشفاعته عند الله تعالى — بل الاله الحق الذي يستحق ان تتوجه القلوب اليه بالدعاء وغيره هو الله وحده. قرأ الكسائي « غيره » بالكسر على الصفة للفظ « إله » والباقون بالرفع باعتبار محله من الاعراب

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ هذا انذار مستأنف علل به الامر بعبادة الله تعالى وحده المستلزم لترك أدنى شوائب الشرك بها، وبيان لعقيدة البعث والجزاء وهي الركن الثاني من اركان الايمان. أي إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم اذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به، وهو يوم القيامة الذي يبعث الله تعالى فيه العباد ويجازيهم بايمانهم وكفرهم وما يترتب عليهما من اعمالهم، وقيل هو يوم الطوفان ويضعف بأن الانذار به لم يكن عند تبليغ الدعوة، بل بعد طول الاباء والرد، والوصول معهم الى درجة اليأس، المبين بقوله تعالى من سورته حكاية عنه (قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا، فلم يزدهم دعائي

إلا فرارا) الآيات . وبقوله من سورة هود (واوحي الي نوح انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) الآيات . ولا يبعد ان يراد باليوم العظيم عذاب الدنيا مطلقا

﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ الملأ اشراف القوم فانهم يملؤن العيون رواء بما يكون عادة من تأنقهم بالزي الممتاز وغير ذلك من الشمائل ، قال هؤلاء الملأ لنوح : إنا لنراك في ضلال عن الحق بين ظاهر بنهيك إيانا عن عبادة ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر الذين هم وسيلتنا وشفعاؤنا عند الله تعالى بقبلنا ببركتهم ، ويعطينا سؤ النابوساطتهم ، لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى . ونحن لا نرى انفسنا أهلا لدعائه والتوجه اليه بانفسنا لما نقترفه من الذنوب التي تبعدنا عن ذلك المقام الاقدس بغير شفيع ولا وسيط من اوليائه وأحبائه . حكموا بضلاله وأكدوه بالتعبير بالرؤية العلمية وبانّ واللام وبالظرفية المفيدة للاحاطة ، كانهم قالوا انا لنراك في غمرة من الضلال محيطة بك لا تهتدي معها الى الصواب سبيلا . وذلك لما رأوه عليه من الثقة بما يدعو اليه

﴿ قال ياقوم ليس بي ضلالة ﴾ ناداهم باسم القومية مضافة اليه ثانية تذكيرا لهم بأنه لا يريد بهم ولا لهم الا الخير ، ونفى أن يكون قد علق به أدنى شيء مما يسمى ضلالة ، كما أفاد التنكير في سياق النفي ، والتعبير بالمرة الواحدة أو الفعلة الواحدة من الضلال ، فبالغ في النفي كما بالغوا في الاثبات ، وفي تقديم الظرف « بي » تعريض بضلالهم ، ثم قفى على نفي الضلالة عنه باثبات مقابلها له في ضمن تبليغ دعوى الرسالة التي تقتضي أن يكون على الحق والهدى فقال

﴿ ولكني رسول من رب العالمين ﴾ أي لست بمنجاة من الضلال الذي انتم فيه فقط بل أنا رسول من رب العالمين اليكم ليهديكم باتباعي سبيل الرشاد ، وينقذكم على يدي من الهلاك الابدي بالشرك وما يلزمه من الخرافات والمعاصي المدنسة للانفس المفسدة للارواح . والقدوة في الهدى ، لا يمكن ان يكون ضالا فيما به أنى ، ومن آثار رحمة الربوبية أن لا يدعكم على شرككم الذي ابتدعتموه بجهلكم ، حتى يبين لكم الحق من الباطل . ثم بين موضوع الرسالة باسلوب الاستئناف الذي يقتضيه المقام وهو ما تتوجه اليه الانفس من السؤال عما

جاء به بدعواه من عند الله . فقال :

﴿ أبلغكم رسالات ربي ﴾ قرأ أبو عمرو « ابلغكم » بالتخفيف من الابلاغ والباقون بالتشديد المفيد للتدريج والتكرار المناسب لجمع الرسالة باعتبار متعلقها وموضوعها. وهو متعدد منه العقائد وأهمها التوحيد المطلق الذي بدأ به، ويتلوه الايمان باليوم الآخر وبالوحي والرسالة وبالملائكة والجنة والنار وغير ذلك (ومنه) الآداب والحكم والمواعظ والاحكام العملية من عبادات ومعاملات ، ولو آمنوا به وأطاعوه لما كان لهم بد من كل ذلك .

﴿ وأنصح لكم ﴾ قال الراغب النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه .. وهو من قولهم : نصحت لكم الود أي اخلصته ، وناصح العسل خالصه، أو من قولهم نصحت الجلد خطته ، والناصح الخياط، والنصاح (ككتاب) الخيط اه وفي الكشاف : يقال نصحته ونصحت له ، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على امحاض النصيحة وانها وقعت خالصة للمنصوح مقصودا بها جانبه لاغير ، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعا ، ولا نصيحة امحض من نصيحة الله ورسله عليهم السلام اه فعلم منه أن الاصل في النصيحة أن يقصد بها صلاح المنصوح له لا الناصح، فان كان له فائدة منها وجاءت تبعا فلا بأس، وإلا لم تكن النصيحة خالصة، وفي الحديث عن تميم الداري أن رسول الله (ص) قال « الدين النصيحة — قلنا لمن يارسول الله ؟ قال — لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم وأبو داود والنسائي

﴿ وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ قيل ان هذه الجملة معطوفة على ماقبلها والظاهر عندي انها حالية ، أي ابلغكم ماارسلني الله تعالى به اليكم من علم وحكم وانصح لكم بما أعظكم به من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وانا في هذا وذاك على علم من الله أوحاه إلي لا تعلمون منه شيئاً ؛ أو : واعلم من أمر الله وشؤونه ما لا تعلمونه . وهو العلم بصفاته وتعلقها وآثارها في خلقه ، وسننه في نظام هذا العالم ، وما ينتهي اليه ، ومابعده من امر الآخرة ، والحساب والجزاء — فاذا نصحت لكم، وانذرتكم عاقبة شرككم، وما اقتضته حكمته تعالى من انزال العذاب بكم في الدنيا اذا جحدتم وعاندتم ، فانما انصح لكم عن علم

يقين لا تعلمونه

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ؟ ﴾ الهمزة في أول الجملة للاستفهام الانكاري ، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدر بعد الهمزة والمعنى أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم؟ ﴿ لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ أي لاجل أن يحذركم عاقبة كفركم ويعلمكم بما أعد الله له من العقاب — ولاجل أن تتقوا بهذا الانذار ما يسخط ربكم عليكم من الشرك في عبادته، والافساد في ارضه — وليعدكم بالتقوى لرحمة ربكم المرجوّة لكل من أجاب الدعوة واتقى . علل مجيئه بالرسالة بعلل ثلاث متعاقبة مرتب ثالثها على ثانيها وهذا على أولها ، كما بيناه آنفا

وقد علم من قوله « على رجل منكم » ان شبهتهم على الرسالة هي كون الرسول بشرا مثلهم، كأن الاشتراك في البشرية وصفاتها العامة يقتضي التساوي في الخصائص والمزايا ويمنع الانفراد بشيء منها، وهذا باطل بالاختبار والمشاهدة في الغرائز والقوى العقلية والعضلية ، وفي المعارف والاعمال الكسبية ، فالتفاوت بين أفراد البشر عظيم جدا لا يشبهم فيه نوع آخر من أنواع المخلوقات في عالم الشهادة ، ولو فرضنا التساوي بينهم في ذلك فهل يمنع ان يختص الخالق الحكيم من شاء منهم بما هو فوق المعهود في الغرائز والمكتسب بالتعلم ؟ كلا انه تعالى قادر على ذلك وقد اقتضته حكمته ومشيئته، ونفذت به قدرته ، وقد تقدم رد هذه الشبهة في أوائل سورة الانعام (١)

﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك ﴾ فكذبوه وأصر على ذلك جمهورهم فأنجيناه من الغرق والذين سلكهم معه في الفلك من المؤمنين به (وما آمن معه الا قليل) كما قال تعالى في قصته المفصلة في سورة هود — أو المعنى أنجيناه وأنجيناهم حال كونهم معه في الفلك أي السفينة ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴾ أي وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا بالطوفان بسبب تكذيبهم ، ولماذا كذبوا ؟ انهم ما كذبوا الا لعمى بصائرهم الذي حال دون اعتبارهم وفهمهم لدلالة تلك الآيات على توحيد الله وقدرته على ارسال الرسل وحكمة

(١) يراجع ص ٣١٢ — ٣٢٠ من تفسير الجزء السابع

ربوبيته في ذلك، وعمون جمع عم، وهو ذو العمى ، وأصله عمي بوزن كتف . وقيل انه خاص بعمى القلب والبصيرة ، والاعمى يطلق على الفاقد لكل منهما . قال زهير :

وأعلم علم اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

(٦٤) وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (٦٥) قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكذبين (٦٦) قال يقوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العلمين (٦٧) أبلغكم رسلت ربي وأنا لكم ناصح أمين (٦٨) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (٦٩) قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصدقين (٧٠) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب، أتجدلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطن؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين (٧١) فأنجينه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآيتنا وما كانوا مؤمنين

﴿ قصة هود عليه السلام ﴾

اخرج اسحق بن بشر وابن عساكر من طريق عطاء عن ابن عباس انه قال: كان هود أول من تكلم بالعربية، وولد لهود اربعة قحطان ومقحط وقاحط

وقالغ فهو أبو مضر ، وقحطان أبو اليمن ، والباقون ليس لهم نسل . واخرجا من طريق مقاتل عن الضحاك عنه ومن طريق ابن اسحق عن رجال سماهم ومن طريق الكلبي قالوا جميعا : إن عادا كانوا اصحاب أوثان يعبدونها - - اتخذوا اصناما على مثال ود وسواع ويغوث ونسر ؛ فاتخذوا صنما يقال له صمود[1] وصنما يقال له الهتار[2] فبعث الله اليهم هودا وكان هود من قبيلة يقال لها الخلود ، وكان من اوسطهم نسبا واصبحهم وجها ، وكان في مثل اجسادهم ابيض بادي العنفقة طويل اللحية . فدعاهم الى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا ذلك وكذبوه (وقالوا من أشد منا قوة) ... وكانت منازلهم بالاحقاف ، والاحقاف الرمل فيما بين عمان الى حضرموت باليمن . وكانوا مع ذلك قد افسدوا في الارض كلها وقهروا اهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله اه ملخصا واخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن خيثم قال كانت عاد ما بين اليمن الى الشام مثل الذر . واخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن عساكر عن علي بن ابي طالب قال : قبر هود بحضرموت في كثيب احمر عند رأسه سمرة . اه وسيأتي من السورة المسماة باسمه مزيد بيان لحاله وحال قومه

قوله تعالى ﴿ والى عاد أخاهم هودا ﴾ معطوف على قوله (لقد أرسلنا نوحا الى قومه) أي وارسلنا الى عاد أخاهم في النسب هودا ، كما يقال في اخوة الجنس كله : يا أخا العرب ، وللدين اخوة روحية ، كاخوة الجنس القومية ، والوطنية وحكمة كون رسول القوم منهم ، أن يفهمهم ويفهم منهم ، حتى اذا ما استعد البشر للجامعة العامة ، أرسل الله خاتم رسله اليهم كافة ، وفرض عليهم توحيد اللغة لتوحيد الدين ، المراد به توحيد البشر وادخالهم في السلم كافة

﴿ قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ تقدم معناه في قصة نوح آنفا ، ولكن الجملة هناك عطفت بالفاء ، وفصلت هنا وفيما يأتي من سائر القصص . والفرق المقتضي لذلك أن العطف هنالك جاء على اصله وهو كون التبليغ جاء عقب الارسال ، لان التأخير غير جائز ، ولما صار هذا معلوما

« ١ » الظاهر انه بمعنى الصمد وهو السيد الذي يصمد ويتوجه اليه لقضاء الحاجات وروي أن لهم صنما آخر اسمه الصمد

« ٢ » الهتار مبالغة من الهتر يقال هتره الكبر أي أخذ عقله

كان من المناسب فيما بعده من القصص أن يجيء باسلوب الاستئناف البياني الذي هو الاصل في المراجعات القولية واذ تكررت كما تراه في السور الكثيرة، فكأن المستمع لهذه القصة مثلا يسأل وقد علم من أمر قصة نوح ما علم: فماذا كان من أمر هود مع قومه؟ أ كان أمره معهم كامر نوح مع قومه أم اختلفت الحال؟

﴿ أفلا تتقون ﴾ أي أفلا تتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عقابه ؟ الاستفهام للانكار، واستبعاد عدم الايمان والاذعان، بعد ان كان من عقابه تعالى لقوم نوح ما كان ، وفي سورة هود (أفلا تعقلون) وهو دليل على انه قال هذا وذاك في وقت واحد أو في وقت بعد وقت ، ومن سنة القرآن في القصص المكررة ، أن يذكر في كل منها مالم يذكر في الاخرى لتنويع الفوائد ، ودفع الملل عن القاريء ، وقد اقتبس ذلك البخاري في أحاديث جامعه الصحيح المكررة فتحرى في كل باب أن ينفرد بفائدة

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة ﴾ وصف الملأ من هؤلاء بالكفر دون ملا قوم نوح قيل لانه كان فيهم من آمن كمرثد بن سعد الذي كان يكتم إيمانه ، والسفاهة خفة الحلم وسخافة العقل، وتنكيرها لبيان نوعها أو المبالغة بعظمها أي قالوا إنا لنراك في سفاهة غريبة أو تامة راسخة تحيط بك من كل جانب، بأنك لم تثبت على دين آبائك واجدادك ، بل قمت تدعو الى دين جديد تحتقر فيه الاولياء الصالحين من قومك، الذين اتخذت الامة لهم الصور والتماثيل لتخليد ذكرهم، والتقرب الى الله تعالى بشفاعتهم، روي عن ابن عباس وغيره أن عادا كانوا أصحاب اوثان يعبدونها اتخذوا اصناما على مثال أصنام قوم نوح وسيأتي نص الرواية في ذلك فبعث الله اليهم هودا وكان من قبيلة يقال لها الخلود الخ ومثل قولهم هذا قال ويقول المنافقون والمشركون لدعاة الاصلاح من اتباع الانبياء : انكم سفهاء لاثبات لكم ، وانكم حقرتم اولياءكم وآباءكم

﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ في دعوى الرسالة عن الله تعالى ، وهو يتضمن تكذيب كل رسول اذ عبروا عن اصحاب هذه الدعوى بالكاذبين وجعلوه واحداً منهم . والظن على معناه فلو قالوا انهم يعلمون ذلك لكانوا كاذبين على انفسهم فيما يحكون من اعتقادهم

﴿ قال ياقوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ﴾ أي ليس بي أدنى شيء من ضروب السفاهة وشوائبها ولكني رسول من رب العالمين، والله أعلم حيث يجعل رسالته وهي أمانة عنه، فلا يختارها إلا أهل الحصافة رجحان العقل وسعة الحلم وكمال الصدق، والا لفات ما يقصد بها من الحكمة، ولم تقم بها لله الحجة

﴿ ابلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ وأنا لكم ناصح فيما ادعوكم اليه لان فيه سعادتكم ، أمين على ما أقول فيه: عن الله تعالى فاني لا اكذب عليكم فكيف اكذب على ربي عز وجل ، وهذا اقوى من قول نوح: وانصح لكم. فانه يحتج عليهم بأن النصح وصف قائم به ثابت له عندهم ، لما يعهدون من سيرته معهم، وكذلك الصدق والامانة، والجملة حال من فاعل الجملة المستأنفة كنظيرتها

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ تقدم مثله من قول نوح ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾ أي واذكروا فضل الله عليكم ونعمه اذ جعلكم خلفاء الارض من بعد قوم نوح وزادكم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة، أو زادكم بسطة في خلق ابدانكم اذ كانوا طوال الاجسام، اقوياء الابدان ، وفي التفسير المأثور روايات في المبالغة في طولهم وقوتهم لا يعتمد عليها، ولا يحتج بشيء منها، ولكن نص على قوتهم وجبروتهم في سور هود والشعراء وفصلت ﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ أي فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من ادامتها عليهم وزيادتها لهم، ولن تكونوا كذلك الا اذا عبدتموه وحده ، ولم تشركوا بعبادته أحداً لا على سبيل الاستقلال ، ولا على سبيل جعله واسطة بينكم وبينه؛ فان هذا حجاب دونه ، ومن حجب نفسه عما كرمه به من التوجه اليه وحده في الدنيا حجب عن لقائه في الآخرة ، وانما يحجب عن ربهم الكافرون ، لا المؤمنون الشاكرون

﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا ؟ ﴾ فيحقرهم ونمتهنهم برميهم بالكفر ، ونحقر اولياءنا وشفعاءنا عند الله بترك التوجه اليهم عند التوجه اليه ، وهم الوسيلة وهو المقصود بالدعاء والاستغاثة بهم، والتعظيم

لصورهم وتماثيلهم وقبورهم ، والنذر لهم ، وذبح القرابين عندهم؟ وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا الا بهم ولاجلهم؟ وتمسكوا بالتقليد وهو باطل

والمراد من المجيء الاتيان بالرسالة حسب دعواه الصادقة في نفسها الكاذبة في ظنهم الآثم ، على أن العرب تستعمل المجيء والذهاب والقعود والقيام في التعبير عن الشروع في الشيء وبيان حاله — يقال جاء يعلم الناس كيف يحاربون وذهب يقيم قواعد العمران (ونذر) بمعنى نترك لم يستعمل من مادته الا الفعل المضارع

﴿ فاءتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾ أي فجئنا بما تعدنا به من العذاب على ترك الايمان بك ، والعمل بمقتضى توحيدك ، ان كنت من الصادقين في انذارك ، أو في انك رسول من رب العالمين. وقد استعمل الوعد بمعنى الوعيد ، والمراد به هو ما أشير اليه بقوله هنا (أفلا تتقون) وصرح به في سورة الشعراء بقوله (اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم)

﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ ذكر الآية الزمخشري في مجاز الاساس وفسر الرجس بالعذاب قال لانه جزاء ما استعير له اسم الرجس. وذكر قبل ذلك في قسم الحقيقة من المادة أن الرجس بالفتح صوت الرعد ، وانه يقال : رجست السماء وارتجست : قصفت بالرعد (قال) والناس في مرجوسة أي في اختلاط قد ارتجس عليهم أمرهم اه ومثلها في هذا مادة الرجز ، ومنه في (٣٤ : ٥ و ٤٥ : ١٠ لهم عذاب من رجز أليم) وقد كان العذاب الذي نزل بهم ووقع عليهم ريح صرصر أي ذات صوت شديد عاتية كانت « تنزع الناس » من الارض ثم ترميهم بها صرعى « كانهم اعجاز نخل منقعر » قد قلع من منابته وزال عن أماكنه ، وذلك من معنى الرجس والارتجاس والرجز والارتجاز . وقوله « وقع » مجاز عبر به عن المتوقع لتحققه وقربه ، وعطف الغضب على الرجس لبيان أن الرجس قد أريد به الانتقام الحتم فلا يمكن رفعه ، والعياذ بالله من غضبه ، ما كان منه حتما عقابه كهذا ، وما كان ممكنا دفعه بالتوبة . كعقاب هذه الامة . اللهم تب على امتنا وارفع عنها رجس الاجانب الطامعين ، واعوانهم المنافقين.

﴿ أتجادلونني في اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ﴾ اي أتخاصمونني وتمارونني في اسماء وضعتموها انتم وآباؤكم الذين قلدتموهم على غير علم ولا هدى منكم ولا منهم — لمسميات اتخذوها آلهة زاعمين انها تقربكم

الى الله زلفى وتشفع لكم عنده، ما انزل الله من حجة ولا برهان يصدق زعمكم، بأنه رضي أن تكون واسطة بينه تعالى وبينكم، وكيف وهو الاحد الصمد الذي يصمد اليه عباده في العبادة وطلب مالم يمكنهم منه بالاسباب، أي يتوجهون اليه وحده، لا يشركون في توجيه قلوبهم اليه أحدا من خلقه (وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين) وكل ما يتعلق بعبادته، لا يجوز أن يؤخذ إلا مما انزله على رسله، اذ لا يعلم ما يرضيه ويصح عنده من عبادته غيره، والآية دليل على بطلان التقليد ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي فانتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم « فأتنا بما تعدنا » إني معكم من المنتظرين، ولكنني موقن وانتم مرتابون، وجادّ وانتم هازلون

﴿ فانجيناه والذين معه برحمة منا ﴾ أي فلما جاء امرنا انجينا هودا والذين معه من المؤمنين برحمة عظيمة من لدنا لا يقدر عليها غيرنا ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ أي استأصلناهم بريح (تدمر كل شيء بأمر ربها فاصبحوا لا ترى إلا مساكنهم)

---

(٧٢) وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ

الذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ

﴿ قصة صالح عليه السلام ﴾

﴿ والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ﴾ أي وارسلنا الى ثمود أخاهم في النسب والوطن صالحا. سئل الامام عبدالله بن أبي ليلى عن اليهودي والنصراني يقال له أخ؟ قال: الاخ في الدار . واستدل بالآية . رواه أبو الشيخ . وصالحا بدل أو عطف بيان لاخاهم . وتقدم مثل هذا التركيب آنفا في قصة هود عليه السلام . وثمود قبيلة من العرب قيل سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وقيل ابن عاد بن عوص بن إرم . . . وعن عمرو بن العلاء أنهم سموا بذلك لقلة مائهم فالثمد المال القليل . وثمود يمنع من الصرف بارادة القبيلة فيجتمع فيه العلمية والتأنيث ، ويصرف بتأويل الحي أو باعتبار الاصل فانه علم لمذكر . وكانت مساكنهم الحجر (بكسر المهملة) بين الحجاز والشام الى وادي القرى وهي معروفة الى الآن . وعن الحافظ البغوي في نسبه عليه السلام أنه صالح بن عبيد بن أسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود . وعن وهب أنه ابن عبيد بن جابر بن ثمود .

﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ قد علمنا من سنة القرآن وأساليبه في قصص الانبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرة والموعظة ببيان سنن الله تعالى في البشر وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام ، لا حوادث الامم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان ، أو أنواع الاعمال ، وقد حكي هنا عن صالح عليه

السلام أنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها عقب ذكر تبليغ الدعوة ، وفي قصته من سورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته، وتصريحهم بالشك في صدقه ، وزاد في سورة الشعراء طلبهم الآية منه ، وكل ذلك صحيح ومراد ، وهو المسنون المعتاد ، ولا منافاة بين ذلك التفصيل وهذا الاجمال، والمروي أن هذه السورة (الاعراف) نزلت بعد تينك السورتين فتفصيلهما لاجمالها جاء على الاصل المألوف في كلام الناس ، وان كان غير ملتزم في القرآن، على أن ترتيب السور لم يراع فيه ترتيب نزولها ، والمعنى قد جاءتكم آية عظيمة القدر ، ظاهرة الدلالة على ما جئتكم به من الحق، فتنكير الآية للتعظيم والتفخيم — وقوله « من ربكم » للاعلام بأنها ليست من فعله ولا مما ينالها كسبه عليه السلام ، وكذلك سائر ما يؤيد الله تعالى به الرسل من خوارق العادات ، فليعتبر بذلك الجاهلون الذين يظنون أن الخوارق مما يدخل في كسب الصالحين الذين هم دون الانبياء، ولاسيما الذين يسمونهم الاقطاب المتصرفين في الكون . ولو كانت كذلك لم تكن خوارق، ولا آيات من الله تعالى دالة على تصديق الرسل في دعوى النبوة ، وعلى كمال اتباع من دونهم لهم فيما جاؤا به من الهداية ، إذ كسب العباد ما زال يتفاوت تفاوتا عظيما بتفاوت قوى عضلهم وجوارحهم ، وقوى عقولهم وأرواحهم وعزائمهم، وتفاوت علومهم ومعارفهم ، ولذلك اشتبهت الآيات على كثير من الناس بالسحر والشعوذة ، وما يكون من التأثير لعلو الهمة وقوة الارادة

﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ هذا بيان مستأنف للبينة أي هذه ناقة الله تعالى — اضافها الى اسمه الكريم تعظيما لشأنها ، وقيل لانه خلقها على خلاف سنته في خلق الابل وصفاتها، وقيل لانه لم يكن لها مالك — أشير اليها حالة كونها آية لكم خاصة بكم ، وبين معنى كونها آية بقوله

﴿ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ ومثله في سورة الشعراء الا أنه وصف العذاب بالعظيم فهو أليم وعظيم — وفي (هود) الا أنه وصف العذاب بالقريب وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم

إياها بسوء ، وكذلك كان ، وفي سورة القمر (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) وفسره قوله تعالى في سورة الشعراء (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) وهو قبل الوعيد على مسها بسوء ، والشرب بكسر المعجمة مايُشرب . وفي سورة الشمس « كذبت ثمود بطغواها * اذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها) الخ فدل مجموع الآيات على أن آية الله تعالى في الناقة أن لا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها ولا في أكلها ولا في شربها ، وأن ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة اذ كان ماء قليلا فكانوا يشربونه يوما وتشربه هي يوما ، وورد أنهم كانوا يستعيضون عنه في يومها بلبنها ، روي هذا عن ابن عباس وعن قتادة . فأما الرواية عن الاول فهي تصدق بماء معين معروف كان لشربهم خاصة إذ ذكر في سورة القمر معرفا ، وثبت في الحديث الآتي مرفوعا

وأما الرواية عن الثاني ففيها أن الماء كان لهم ولماشيتهم وأرضهم. وهو بعيد بل منقوض بما في سورة الشعراء من قول صالح لهم (أتتركون فيما ههنا آمنين ؟ في جنات وعيون ونخل طلعها هضيم) وقد روى احمد عن عبد الله بن عمر مرفوعا انه كان لهم آبار وان النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على البئر التي كانت تشرب منها الناقة حين مروا بديار قوم صالح في غزوة تبوك . وفي البخاري عنه انه (ص) أمرهم ان يستقوا منها ويهريقوا ما استقوا من غيرها من تلك الآبار. قال العلماء وقد علمها بالوحي . ولا يصح شيء يحتج به في خلقها من الصخرة او من هضبة من الارض كما روي عن ابي الطفيل

والمتبادر الى الذهن من اضافة الارض الى الله تعالى أن المراد بها المباحة للانعام أن ترعى ما ينبت فيها من الكلأ وغيره دون ما يزرعه الناس ويحمونه لانفسهم ، وفيه مراعاة النظير بين ناقة الله وأرض الله ، أي فذروا واتركوا ناقته تأكل من أرضه ، التي خلقها وأباحها لخلقه ، والمتبادر من تنكير السوء في سياق النهي أن الوعيد مرتب على أي نوع من أنواع الايذاء لها في نفسها أو أكلها أو شربها ، فكيف وقد عقروها

﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ﴾ أي وتذكروا اذ جعلكم الله تعالى خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس ، وبوأكم في الارض أي أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومنازل لكم : تتخذون من سهولها قصوراً زاهية ، ودورا عالية ، بما حذقتم بالهامه من فنون الصناعة ، كضرب الآجر واللبن والجص ، وهندسة البناء ودقة النجارة ، وتنحتون الجبال أي بعضها كما قال في آية أخرى (من الجبال) بيوتا بما علمكم من فن النحت ، وآتاكم من القوة والصبر . قيل إنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة فيها من القوة التي لا تؤثر فيها الامطار والعواصف ، ويسكنون السهول في سائر الفصول لاجل الزراعة والعمل ، ولم تكن القصور فيها متينة ولا الطرق مرصوفة ، بحيث يرتاح ساكنها في أيام الامطار الشديدة

﴿ فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين ﴾ أي فتذكروا نعم الله تعالى عليكم في ذلك كله واشكروها له بتوحيده وافراده بالعبادة واستعمالها فيما فيه صلاحكم ، ولا تستبدلوا الكفر بالشكر فتعثوا في الارض مفسدين . يقال عثى يعثي وعثي يعثى « من بابي ضرب وعلم » عثياً وعثياناً ، وعثا يعثو عثواً ، بمعنى أفسد وكفر وتكبر ، ومثله مقلوبه : عاث يعيث عيثاً وعيثاناً ، وفيه معنى الاسراف والتبذير مع الافساد ، وقال الراغب : العيث والعثي يتقاربان نحو جذب وجبذ ، الا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسا ، والعثي فيما يدرك حكما اهـ والمعنى ولا تتصرفوا في هذه النعم تصرف عثيان وكفر بمخالفة ما يرضي الله فيها حال كونكم متصفين بالافساد ثابتين عليه ، وقال المفسرون إن مفسدين حال مؤكدة ، والصواب أنها تفيد معنى زائدا على التأكيد كما علمت

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ ﴾ مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس الى اجابة دعوة الرسل واتباعهم والى كل دعوة إصلاح لانه

لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعا لغيرهم ، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، والاغنياء المترفون ، لانه يشق عليهم أن يكونوا مرؤسين ، وأن يخضعوا للاوامر والنواهي التي تحرم عليهم الاسراف الضار، وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال . وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم صالح في قولهم للمؤمنين منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قيل إن السؤال للتهكم والاستهزاء ، ولا مانع من جعله استفهاما حقيقياً اذ سألوهم عن العلم بأنه مرسل لارتيابهم في اتباعهم إياه عن علم برهاني ، وتجويزهم أن يكون عن استحسان ما وتفضيل له عليهم ، واختيار رياسته على رياستهم ،

﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ أي إنا بما أرسل به دون ما يخالفه من الشرك والفساد مصدقون بأنه جاء به من عند الله تعالى ومذعنون له بالفعل فان الايمان هو التصديق الذي يجزم به العقل ، ويطمئن به القلب ، وتخضع له الارادة ، وتعمل بهديه الجوارح ، وكان مقتضى مطابقة الجواب للسؤال أن يقولوا نعم ، أو نعلم أنه مرسل من ربه، أو إنا برسالته عالمون. ولكنهم أجابوا بما يستلزم هذا المعنى ويزيد عليه ، وهو أنهم علموا بذلك علماً يقينياً إذعانيا له السلطان على عقولهم وقلوبهم اذ آمنوا به إيمانا صادقا كاملا صار صفة من صفاتهم الراسخة التي تصدر عنها أعمالهم ، وما كل من يعلم شيئا يصل علمه الى هذه الدرجة ، بل من الناس من يعلم الشيء بالبرهان ، وهو ينفر منه بالوجدان ، فيجحده ويحاربه وهو موقن به ، استكباراً عنه أو حسداً لاهله ، « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا »

﴿ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون لانه يتضمن إثبات أصل الرسالة له ، ولو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بأنهم جاحدون للحق على علم لمحض الاستكبار

﴿ فعقروا الناقة ﴾ أصل العقر الجرح وعقر الابل قطع قوائمها وكانوا يعقرون البعير قبل نحره ليموت في مكانه ولا يند ، ثم صار يستعمل بمعنى النحر وهو طعنه في المكان المعروف من حلقه بالمنحر . اسند العقر الى هؤلاء المستكبرين الكافرين وقيل الى جميع الكفار من القبيلة — والمتعاطي له

واحد منهم — لانه بتواطئهم ورضاهم، كما قال في آية القمر (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) ومثل هذا من أعمال الامم ينسب اليها في جملتها كما انها تعاقب عليه في جملتها ، ولو بقي الصالحون فيها لاصابهم العذاب،(واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) وقد روي عن قتادة أن عاقر الناقة قال: لا اقتلها حتى ترضوا أجمعين . فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول نعم، وعلى الصبي... حتى رضوا أجمعين فعقروها

﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ اي تمردوا مستكبرين عن امتثال امر ربهم . ضمن العتو معنى الاستكبار ، والعتو في اللغة التمرد والامتناع، ويكون عن ضعف وعجز ومنه عتا الشيخ وبلغ من الكبر عتيا : اذا أسن فامتنع من المواتاة على ما يراد منه — وعن قوة كوصف الريح الشديدة بالعاتية ، ومنه عتو الجبارين والمستكبرين ،وتوصف النخلة العالية بالعاتية لامتناعها على من يريد جناها الا بمشقة التسلق والصعود . روى احمد والحاكم باسناد حسنه الحافظ ابن حجر عن جابر قال : لما مر رسول الله (ص) بالحجر قال « لاتسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج،فعتوا عن امر ربهم . وكانت تشرب يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة اهمد الله من تحت ادیم السماء منهم الا رجلا واحدا كان في حرم الله — وهو ابو رغال — فلما خرج من الحرم اصابه ما اصاب قومه »

﴿ وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ﴾ نادوه باسمه تهوينا لشأنه ، وتعريضا بما يظنون من عجزه ، وقالوا ائتنا بما أوعدتنابه من العذاب ولا تزال مصراً عليه ومعلقا له على مس الناقة بسوء — ان كنت من المرسلين من عند الله تعالى وتدعي أن وعيدك تبليغ عنه — واستعمل الوعد في الشر —

﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ الرجفة المرة من الرّجف وهو الحركة والاضطراب يقال رجف البحر اذا اضطربت امواجه ، ورجفت الارض زلزلت واهتزت، ورجف القلب والفؤاد من الخوف . وفي حديث الوحي : فرجع الى مكة يرجف بها فؤاده . وفي سورة هود (فأخذ الذين ظلموا الصيحة) ونحوه في سورة القمر . وقد اختلف المفسرون في تفسير اللفظين والجمع بينهما فقيل

الصيحة صيحة جبريل رجفت منها قلوبهم، وقيل بل الرجفة الزلزلة أخذتهم من تحتهم، والصيحة من فوقهم. وجعل الزمخشري الصيحة سببا للزلزلة — ومن الغريب أن مثل السيد الالوسي وهو متأخر واسع الاطلاع ينقل هذه الاقوال ويجمع بين الكلمتين بما ذكر ويصحح بحق التعبير عن « الصيحة العظيمة الخارقة للعادة بالطاغية ، وهي الكلمة التي وردت في سورة الحاقة ، وينسى كن نقل عنهم الصاعقة وهي الاصل كما ورد في سورة «حم السجدة — فصلت» وفي سورة الذاريات، فالاول قوله تعالى (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) والثاني (فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) ولنزول الصاعقة صيحة شديدة القوة والطغيان ، ترجف من وقعها الافئدة وتضطرب الابدان ، وربما اضطربت الارض وتصدع ما فيها من بنيان ، وسببها اشتعال يحدثه الله تعالى باتصال كهربائية الارض بكهربائية الجو التي يحملها السحاب ، فيكون له صوت كالصوت الذي يحدث باشتعال فذائف المدافع وتأثيره في الهواء ، وهذا الصوت هو المسمى بالرعد، كما بيناه من قبل ، وأما الصاعقة فهي الشرارة الكهربائية التي تتصل بالارض فتحدث فيها تأثيرات عظيمة بقدرها كصعق الناس والحيوانات وموتهم وهدم المباني أو تصديعها واحراق الشجر والمتاع وغير ذلك . هذا ما وصل اليه علم البشر في هذا العصر ، ومن الدلائل على صحته أن علمهم بسنة الله تعالى فيه هداهم الى اتقاء ضرر الصواعق في المباني العظيمة بوضع ما يسمونه قضيب الصاعقة عليها ، فيمتنع بسنة الله نزولها بها . يجوز ان يكون الخالق القادر المقدر قد جعل هلاكهم في وقت ساق فيه السحاب المتشبع بالكهرباء الى ارضهم بأسبابه المعتادة ، كما يجوز ان يكون قد خلق تلك الصاعقة لاجلهم مع سبيل خرق العادة ، وايا ما كان الواقع فالآية قد وقعت وصدق الله رسوله في انذار قومه

﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ دار الرجل مايسكنه هو واهله «مؤنثة» وتكون مشتملة على عدة بيوت ، والبلد دار لاهله ، ودار الاسلام الوطن الذي تنفذ فيه شرائعه، وهي دار العدل الذي يقيمه الامام الحق، ويقابلها دار الكفر ودار الحرب، والجثوم للانسان والطير كالبروك للابل ، فالاول وقوع الناس على ركبهم وخرورهم على وجوههم ، والثاني وقوع الطير لاطئة بالارض في حال

سكونها بالليل ، او قتلها في الصيد، والمعنى انهم لم يلبثوا وقد وقعت الصاعقة بهم ان سقطوا مصعوقين ، وجثموا هامدين خامدين . واصبحوا إما بمعنى صاروا ، وإما بمعنى دخلوا في وقت الصباح اي حال كونهم جاثمين

﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم. ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ في سورة هود ان صالحا عليه السلام امهل قومه ثلاثة ايام يتمتعون فيها بعد عقر الناقة فلما انتهت انجاه الله تعالى ومن معه من المؤمنين برحمة منه وانزل العذاب بالباقين الظالمين بعد انجائه ، وانما يكون الانجاء من عذاب صيحة الصاعقة الطاغية المتجاوزة للحد المعتاد بالبعد عن المكان الذي تقع فيه . وفي هذه الآية أنه تولى عنهم عقب هلاكهم كما يدل عليه العطف بالفاء . والمعهود في مثل هذا أن تتقدم هذه الآية على ما قبلها في الذكر ، كتقدم مدلولها بالفعل ، ولكن عهد في كلام العرب ترك الترتيب بين المعاني لنكت في الكلام ولا سيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة أو ما يقرب منها في الظهور ، وجعل بعضهم الآيتين هنا من هذا القبيل ، بناء على أن ماتضمنته الآية من إعذار صالح الى قومه بابلاغهم الرسالة، ومحضهم النصيحة، ومن تسجيله عليهم أفن الرأي وفساد الاخلاق بكره الناصحين وعدم الانتفاع بهم — إنما يكون قبل التولي والانصراف عنهم أو عنده ولكن في حال حياتهم

وفيه أن هذا وان كان هو الاصل الذي سبق مثله في قصتي نوح وهود الا أن مثله جائز أن يكون بعد الموت ، وله طريق مسلوك، واسلوب معهود، وآخر مروي مأثور، فأما الاول فما يقوله المتحسر على من مات جانيا على حياته بالسكر ونحوه، المعزي لنفسه بأنه لم يقصر في دفع الضر عنه ، والمتحزن لعدم قبوله مابذل من النصح له : ألم أنهك عن هذه المسكرات ؟ ألم أحذرك عاقبة هذه المخدرات؟[1] فماذا أفعل اذا كنت تفضل لذة الساعات والايام، على هناء المعيشة المعتدلة في عشرات الاعوام؟ — ونحو هذا مما يقال في احوال الحزن المختلفة خطابا للموتى بحسب احوالهم، بل عهد منهم مخاطبة الديار، والطلول والآثار

واما الثاني فهو ما ورد من نداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبعض قتلى المشركين ببدر بعد دفنهم في القليب(٢)« يا فلان ابن فلان !وفلان ابن

(١) هى الحشيش والافيون والكوكايين وأشباهها (٢) البئر غير المبنية

فلان ! ايسركم انكم اطعتم الله ورسوله فانا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟» قال ابو طلحة الانصاري راوي هذا الحديث فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من اجساد لا ارواح لها — او فيها — فقال رسول الله (ص) «والذي نفس محمد بيده ما انتم بأسمع لما اقول منهم» رواه البخاري وغيره من طريق قتادة عن ابي طلحة الانصاري « ر ض » ثم قال : قال قتادة احياهم الله حتى اسمعهم قوله « ص » توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما اه قال العلماء : ومثل هذا مما خص الله به الانبياء . ولكن بعض المعتذرين لعباد القبور بدعاء اصحابها لقضاء حوائجهم يقيسون عليه وعلى ما ورد من حياة الانبياء والشهداء في البرزخ ان كل من دعا ميتا من الصالحين يسمع منه ويقضي حاجته ، مع العلم بأن امور عالم الغيب لا يقاس عليها وإن لم تكن من الخصائص التي لا يجري فيها القياس لكونها خصائص .

---

(٧٩) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

خير ما يعرف به لوط عليه السلام أنه ابن أخي ابراهيم خليل الرحمن (صلى الله على نبينا وعليهما وسلم) كما في كتب الانساب العربية وسفر التكوين وفيه أن اسم والده (حاران) وانه ولد في (اور الكلدانيين) وهي في طرف الجانب الشرقي من جنوب العراق الغربي من ولاية البصرة — وكانت تلك

البقعة تسمى أرض بابل. وانه بعد موت والده سافر مع عمه ابراهيم (ص) الى ما بين النهرين الذي كان يسمى جزيرة فور ومنه ما يسمى بجزيرة ابن عمر وهو مكان تحيط به دجلة فقط. وهنالك كانت مملكة أشور — ثم الى ارض كنعان من سورية. ثم أسكنه ابراهيم في شرق الاردن باختياره لما لجودة مراعيها وكان في ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت الذي سمي ببحر لوط أيضاً — القرى أو المدن الخمس: سدوم وعمورة وادمة وصبويم وبالع التي سميت بعد ذلك صوغر لصغرها - فسكن لوط . (ع م) في عاصمتها سدوم التي كانت تعمل الخبائث. ولا يعلم أحد الآن أين كانت تلك القرى من جوار بحر لوط ثم يوجد من الآثار ما يدل عليها فمن المؤرخين من يظن أن البحر غمر موضعها ولا دليل على ذلك. وكانت عمورة تلي سدوم في الكبر وفي الفساد ، وهما اللتان يحفظ اسمهما الناس الى الآن.

واسم لوط مصروف وان كان أعجميا لكونه ثلاثيا ساكن الوسط كنوح. وقال بعض المفسرين انه عربي من مادة لاط الشيء بالشيء لوطاً أي لصق به، ولكن بعض اهل الكتاب يقول إن معنى كلمة لوط بالعبرانية «ستر» فهي من الكلمات التي تختلف معنى مادتها العربية من مادتها العبرية والسريانية أختي العربية الصغريين. على انه يقرب منه فان اللصوق ضرب من الستر. ويراجع ما ذكرناه في لغة ابراهيم في (الآية ٧٥ س ٦) تفسير سورة الأنعام (ص ٦٣٤ ج ٧ تفسير)

﴿ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ؟﴾ النسق الذي قبل هذا يقتضي ان يكون المعنى: وارسلنا لوطا — ولكن حذف هنا متعلق الارسال وركنه الاول وهو توحيد العبادة للعلم به مما قبله ومما ذكر في غير هذه السورة اي ارسلناه في الوقت الذي انكر على قومه فعل الفاحشة لما بلغهم من دعوى الرسالة : وقيل ان لوطا منصوب بفعل مقدر اي واذكر لوطا اذ قال لقومه موبخا لهم :اتفعلون الفعلة البالغة

منتهى القبح والفحش ؟ ﴿ما سبقكم بها من احد من العالمين﴾ بل هي من مبتدعاتكم في الفساد ، فأنتم فيها قدوة سوء فعليكم وزرها ومثل اوزار من يتبعكم فيها الى يوم القيامة : فالجملة استئناف نحوي او بياني يؤكد التوبيخ ببيان انه فساد مخالف لمقتضى الفطرة ولهداية الدين معا ، والباء في قوله « بها » للتعدية أو الملابسة او الظرفية — اقوال . وقوله « من أحد»

يفيد تأكيد النفي وعمومه المستغرق لكل البشر على الظاهر المتبادر وان كان اللفظ يصدق بعالمي زمانهم ، ولكونهم هم المبتدعين لها اشتق العرب لها اسما من لوط فقالوا : لاط به لواطة

﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾ [1] استئناف مفسر للاتيان المجمل الذي قبله . والاتيان كناية عن الاستمتاع الذي عهد بمقتضى الفطرة بين الزوجين تدعو اليه الشهوة ويقصد به النسل ، وتعليله هنا بالشهوة وتجنب النساء بيان لخروجهم عن مقتضى الفطرة ، وما اشتملت عليه هذه الغريزة من الحكمة ، التي يقصدها الانسان العاقل والحيوان الاعجم ، فسجل عليهم بابتغاء الشهوة وحدها أنهم اخس من العجماوات واضل سبيلا ، فان ذكورها تطلب اناثها بسائق الشهوة لاجل النسل الذي يحفظ به نوع كل منها ، الا ترى أن الطير والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء المساكن الصالحة لنسلها في راحته وحفظه مما يعدو عليه — من عش في أعلى شجرة ، أو وكنة في قلة جبل ، أو جحر في باطن الارض ، أو غيل في داخل أجمة أو حرجة ؟ — وهؤلاء المجرمون لاغرض لهم إلا إرضاء حس الشهوة ، وقضاء وطر اللذة ، ومن قصد الشهوات لذاتها ، أي التمتع بلذاتها ، دون الفائدة التي خلقها الله تعالى لاجلها ، جنى على نفسه غائلة الاسراف فيها ، فانقلب نفعها ضراً ، وصار خيرها شرا ، بجعل الوسيلة مقصدا ، وصيرورة الاسراف فيه خلقا ؛ اذ الفعل يكون حينئذ عن داعية ثابتة ، لا عن علة عارضة ، فلا يزال صاحبه يعاوده ، حتى يكون ملكة راسخة له ، فتكرار العمل يكوّن الملكة ، والملكة تدعو الى تكرار العمل والاصرار عليه ، وهذا وجه الانتقال من اسناد إتيان الفاحشة اليهم بفعل المضارع المفيد للتكرار والاستمرار ، الى اسناد صفة الاسراف اليهم بقوله .

﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي لستم تأتون هذه الفاحشة المرة بعد المرة ولكن بعد ندم وتوبة ، بل أنتم مسرفون فيها وفي سائر أعمالكم

(١) قرأ نافع وحفص عن عاصم إنكم بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ، وقال الرازي بعد ذكر القراءة : ومذهب عاصم أن يكتفي بالاستفهام بالاولى عن الثاني في كل القرآن وقرأ ابن كثير أئنكم بهمزة غير ممدودة وبين الثانية وقرأ أبو عمرو بهمزة ممدودة بالتخفيف وبين الثانية والباقون بهمزتين على الاصل ـ أي في الاستفهام

لا تقفون عند حدّ الاعتدال في عمل من الاعمال، ففي سورة العنكبوت مكان هذه الآية — وما قبلها عين ماقبلها — (انكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر). وفي سورة الشعراء مكان هذا الاضراب (بل أنتم قوم عادون) أي متجاوزون لحدود الفطرة وحدود الشريعة، فهو بمعنى الاسراف، وفي سورة النمل (بل أنتم قوم تجهلون) وهو يشمل الجهل الذي هو ضد العلم، والجهل الذي هو بمعنى السفه والطيش. ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مرزوئين بفساد العقل والنفس، فلا هم يعقلون ضرر هذه الفاحشة في الجناية على النسل وعلى الصحة وعلى الفضيلة والآداب العامة ولا غيرها من منكراتهم — فيجتنبوها أو يجتنبوا الاسراف فيها — ولا هم على شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك

على أن العلم بالضرر وحده لا يصرف عن السوء والفساد، اذا حرم صاحبه الفضائل ومكارم الاخلاق، بل الفضائل الموهوبة بسلامة الفطرة، عرضة للفساد بسوء القدوة، الا اذا رسخت بالمكسوبة بتربية الدين، فاننا نعلم أن هذه الفاحشة فاشية بين أعرف الناس بمفاسدها ومضارها في الابدان والانفس ونظام الاجتماع من المتعلمين على الطريقة المدنية العصرية حتى الباحثين في الفلسفة منهم، فقد بلغني عن بعضهم أنه قال لاخدانه: ان هذه الفعلة لا تحدث نقصاً في النفس الناطقة !! ونقول يا لها من فلسفة فاسقة !! أليسوا يستخفون بها من الناس حتى أشدهم استباحة للشهوات كالافرنج لكي لا ينتقصوهم ويمتهنوهم ؟ أو ليسوا بذلك يشعرون بنقص أنفسهم الناطقة ودنسها، فان لم يشعر الفاعل، أفلا يشعر القابل ؟ بلى ولكن قد يجهل كثير من الاحداث الذين يخدعون عن أنفسهم بهذه الفاحشة أنهم يصابون بالأبنة، حتى إذا كبر أحدهم وصار لا يجد من الفساق من يرغب في إتيانه للاستمتاع به يبحث هو في الخفاء عمن يؤجر نفسه لهذا العمل من تحوت الفقراء وأراذل الخدم فيجعل له جُعلا أو راتباً على إتيانه، وهو لا يلبث أن يعاف هذا المنكر أو يعجز عن ارضاء صاحبه (المهين عنده المحترم عند من لا يعرف حاله) فينشد المأبون غيرة، ولا يزال يذل ويخزى في مساومة أفراد هذه الطبقة السفلى على نفسه حتى يفتضح أمره في البلد ويشتهر بل يشهر بين سائر طبقات الناس، فان أكثر التحوت الذين يعلونه

لا يخجلون من افشاء سرهم معه ، ولانه كثيراً مايعرض نفسه على من ليس منهم ويراودهم بالتصريح ، اذا لم يعرضوا عنه عند مايبدأ به من التعريض والتلويح. أفنسي من ذكرنا من فلاسفة الفسق هذا الخزي ؟ أم يرون أنه لا يدنس النفس الناطقة بنقص؟ فقبح اللواطة وفحشها ليس بكونها لذة بهيمية كما قيل ، إذ اللذة البهيمية لاقبح فيها لذاتها ، لانها مقتضى الفطرة ومبدأ حكمة بقاء النسل ، بل بما يترتب عليها من المضار البدنية والاجتماعية والادبية الكثيرة

﴿ وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون ﴾ أي وماكان جواب قومه عن هذا الانكار والنصيحة شيئاً مما يدخل في باب الحجة ولا الاعتذار ، ولا غير ذلك مما اعتيد في الجدال ، — ماكان إلا الامر باخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم ، وتعليل ذلك بأنهم أناس يتطهرون ويتنزهون عن مشاركتهم في رجسهم ، فلا سبيل الى معاشرتهم ولا مساكنتهم مع هذه المباينة ، فان الناقص يستثقل معاشرة الكامل الذي يحتقره . وفي سورة الشعراء أنهم أنذروه هذا الاخراج ، اذا هو لم ينته عن الانكار

(فان قيل) إنه لم يسبق ذكر لمن آمن معه فيعود اليهم ضمير أخرجوهم

(قلنا) ان هذا مما يعرف بالقرينة وقد صرح به في آية النمل فقيها (أخرجوا آل لوط) بدل أخرجوهم والباقي سواء ، الا اللطف في أولها بالقاء ، كآية العنكبوت التي اختلف فيها الجواب ، وهي (فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين)

(فان قيل) ان في حكاية الجوابين تعارضاً في المعنى محكيا بصيغة النفي والاثبات فيهما فكيف وقع هذا في كتاب الله تعالى وما الذي يدفع هذا التعارض (قلنا) انه لا تعارض ولا تنافي بين الجوابين ، لحملهما على الوقوع في وقتين ، ولاشك انه كان ينهاهم كثيراً فكان يسمع في كل وقت كلاما من حضر منهم ، وقد قلنا إن قصص القرآن لم يقصد بها سرد حوادث التاريخ بل العبرة والموعظة فيذكر في كل سورة من القصة الواحدة من المعاني والمواعظ ما لا يذكر في الاخرى ومجموعها هو كل ما أراد الله تعالى أن يعظ به هذه الامة . فمن المعهود أن الرسل عليهم السلام — وكذا غيرهم من الوعاظ الذين ينهون الضالين والمجرمين عن المنكر — يكررون لهم الوعظ بمعان متقاربة ،

ويسمعون منهم أجوبة متشابهة، وقد يقول بعضهم ما لا يقول غيره فيعجبهم ويقرونه عليه فيسند اليهم كلهم ، كما يسند اليهم فعل الواحد منهم اذا رضوه وأقروه عليه ولو بعد فعله كما تقدم آنفا في اسناد عقر الناقة الى قوم صالح وانما عقرها واحد منهم ، وقد حكى الله تعالى من قول رسوله لوط عليه السلام لقومه في سورة العنكبوت ما لم يحكه في سورتي الاعراف والنمل ، فزاد على اتيانهم الرجال قطع السبيل، واتيانهم المنكر في النادي الحافل، والمجلس الحاشد ، فكانهم ضاقوا به حينئذ ذرعا واستعجلوه العذاب الذي أنذرهم اذا أصروا على عصيانه ، والاظهر أن هذا كان بعد امرهم باخراجه، وان التوعد بالاخراج كان قبل الامر به، والله أعلم

(فان قيل) هذا مقبول[1] ، لان مثله معهود معروف ، ولكن ماوجه بدء جملة الجواب بالواو تارة وبالفاء أخرى، وما وجه اختصاص كل منهما بموضعه؟

(قلنا) ان عطف الجملة على ما قبلها بكل من الواو والفاء جائز الا أن في الفاء زيادة معنى لانها تفيد ربط ما بعدها بما قبلها بما يقتضي وجوب تلوه له فهو جماع معانيها الثلاثة من التعقيب والسببية وجزاء الشرط، والاصل العام في هذا الارتباط أن يكون ما بعد الفاء أثراً لفعل وقع قبله ، وكل من آيتي النمل والعنكبوت جاء بعد اسناد فعل الى القوم، وهو قوله في الاولى (بل أنتم قوم تجهلون) وفي الثانية (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر) فلذلك عطف الجواب على ما بعدهما بالفاء . وأما آية الاعراف فقد جاءت بعد جملة اسمية وهي قوله (بل أنتم قوم مسرفون) واسناد صفة الاسراف اليهم فيها مقصود بالذات دون ما قبله من فعل الفاحشة الذي كان بتكراره علة لهذه الصفة ، لان الاصرار عليه محاولة لها . وثم وجه آخر لعطف هذه بالواو مبني على ما استظهرناه من كون الامر باخراجه عليه السلام

(١) أردت اولا كتب «هذا معقول مقبول» ومن العادة أن ارسل ما كتبته الى المطبعة من غير ان اقرأه ثم اصححه بعد جمع المطبعة له فلما عرض علي هذا لتصحيحه رايت كلمة « مقبول » فعلمت أني نحت من الكلمتين كلمة واحدة بغير شعور ، وسبق القلم في ذلك هذا سببه النفسي ليس هذا محل بيانه وكلمة معقبول جديرة بالاستعمال اذا قررت مجامع اللغة جعل النحت قياسيا للحاجة اليه في هذا العصر

من بعضهم قد كان بعد الانذار والوعيد به من آخرين منهم، فكان بهذا في معنى المعطوف عليه — فكأنه قال : فما كان جواب قومه الا أن قال بعضهم: لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين، وأن قال بعضهم أخرجوهم من قريتكم... وهذه الدقة في اختلاف التعبير في المواقع المتحدة أو المتشابهة لامثال هذه النكت لا تجده مطرداً الا في كتاب الله تعالى، وهو من اعجازه اللفظي ولذلك يغفل عنه اكثر المفسرين

بعد كتابة ماتقدم راجعت (روح المعاني) فاذا هو يقول : وانما جيء بالواو في (وما كان) الخ دون الفاء كما في النمل والعنكبوت لوقوع الاسم قبل الفعل هنا والفعل هناك ، والتعقيب بالفعل بعد الفعل حسن دون التعقيب به بعد الاسم. وفيه تأمل اه ولعمري إنه جدير بالتأمل للفظه الذي اورده به أولا ولمعناه بعد فهمه ثانيا ، فان ظهر للمتأمل أن وجه الحسن في التعقيب ما بسطناه انتهى تعب التأمل بالقبول ان شاء الله ولم يكن عبثا ، والا كان حظه منه كدّ الذهن واضاعة الوقت معاً. وما كتبت هذه النكتة، الا لاقول فيها هذه الكلمة ، واني بذكاء اصحاب الايجاز المخل من المعجبين ، وان قل من ينتفع بعلمهم من الصابرين، وسيقل عددهم في هذه الامة كما قل في غيرها من الامم التي عرفت قيمة العمر ، فضنت به أن يضيع جله في حل رموز زيد وعمرو

(فان قيل) ان المعهود من اهل الرذائل ان ينكروها أو يسموها بغير اسمها، ويألمون ممن يعيرهم بها، لما جبل الله عليه البشر من حب الكمال وكره النقص، فكيف علل قوم لوط اخراجه هو ومن آمن معه بأنهم يتطهرون ويتنزهون من ادران الفواحش وهو شهادة لهم بالكمال وشهادة على انفسهم بالنقص ؟

(فالجواب) ما قال الزمخشري فيه وهو انه : سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء اذا وعظهم : ابعدوا عنا هذا المتقشف ، واريحونا من هذا المتزهد اه ومثله معهود من المجاهرين بالفسق. وللنقص والرذائل دركات ، كما أن للكمال والفضائل درجات ، فأولاها أن يلمّ بالرذيلة وهو يشعر بقبحها، ويلوم نفسه عليها ، ثم يتوب الى ربه منها، ويليها أن يعود اليها المرة بعد المرة مستتراً مستخفياً ، ويليها أن يصر عليها ، حتى يزول شعوره بقبحها ، ويليها

أن يجهر بها ، ويكون قدوة سيئة للمستعدين لها ، ويليها أن يفاخر بها أهلها ، ويحتقر من يتنزهون عنها ، وهذه أسفل الدركات ، وهي دركة قوم لوط ، ولا يهبط اليها ولا يسف من يؤمن بالله واليوم الآخر ، بل وصف الله المؤمنين بأنهم اذا عملوا السيئات يعملونها بجهالة ثم يتوبون من قريب ، وأنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون

﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه ولذلك استثنى منهم امرأته فانها لم تؤمن به بل خانته بولاية قومه الكافرين الفاسقين عليه فكانت من جماعة الغابرين أي الهالكين أو الباقين الذين نزل بهم العذاب في الدنيا وينيه عذاب الآخرة . يقال غبر بمعنى بقي وبمعنى مضى وذهب وهلك . ومن قال من المفسرين ان اهله الذين آمنوا به سواء كانوا من ذوي قرابته ام لا فقد غفل عن قوله تعالى في سورة الذاريات (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي ارسلنا عليهم مطراً عجيباً امره وهو الحجارة التي رجموا بها . قال الزمخشري في الكشاف الفرق بين مطر وامطر ان معنى مطرتهم السماء : اصابتهم بالمطر كقولهم غاثتهم ووبلتهم وجادتهم ورهمتهم [1] ويقال امطرت عليهم كذا — بمعنى ارسلته عليهم إرسال المطر . وعن بعض أئمة اللغة أن مطر وأمطر بمعنى واحد كما في الصحاح وقال آخرون ان « مطر » لا يستعمل الا في الرحمة و « أمطر » لا يستعمل الا في العذاب ، نقل هذا عن أبي عبيدة وتبعه الراغب والفيروزبادي في القاموس والتحقيق أنه يقال : مطرتهم السماء وأمطرتهم ، وسماء ماطرة وممطرة — قاله الزمخشري في حقيقة المادة من أساس البلاغة . ثم قال : ومن المجاز امطر الله عليهم الحجارة اه فالامطار حقيقة في المطر مجاز فيما يشبهه في الكثرة من خير وشر حسيين أو معنويين مما يجيء من السماء أو من الارض ، وما قال من قال إنه خاص بالشر الامن تكرر الآيات في إرسال الحجارة على قوم لوط وقوله تعالى

(١) اي اصابتهم بالوبل والغيث والجود بفتح اولهن — والرهام والرهمة — بكسر اولهما — وكلها بمعنى المطر الا ان الوبل المطر الشديد والرهام المطر الخفيف اللين المتواصل

حكاية عن بعض كفار قريش (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم) وعقلها عن قوله تعالى في سورة الاحقاف (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا)

نحن نؤمن بهذه الآيات وما ورد في سور القرآن ولا نقول في حقيقتها وصفتها قولا جازما . ولكننا نجوز عقلا أن يكون سبب إمطار الحجارة على قوم لوط إرسال إعصار من الريح حملها وألقاها عليهم ، ومثل هذا معهود ، وقد أخبرنا بعض أهل ساحل البحر أن السماء أمطرت عليهم وعلينا مرة سمكا أي مع المطر وسألونا من أين جاء ذلك ؟ فقلنا أما التراب فأثارته السافياء من الريح فحملته الى السحاب فنزل مع المطر طيناً ، وأما السمك فهذا الاعصار الذي يتدلى من السحاب الى البحر كعمود من الدخان وتسمونه التنين يرفع الماء من البحر الى السحاب فاتفق ان كان فيما رفعه سمك حملته الريح التي ألقته من البحر .

ويحتمل أن تكون تلك الحجارة من بعض النجوم المحطمة التي يسميها الفلكيون الحجارة النيزكية وهي بقايا كوكب محطم تجذبه الارض اليها اذا صارت بالقرب منها وهي تحترق غالباً من سرعة الجذب وشدته وهي الشهب التي ترى في الليل فاذا سلم منها شيء من الاحتراق ووصل الى الارض ساخ فيها ، وكان لسقوطه صوت شديد ، وقد اهتدى الناس الى بعض هذه الحجارة ووضعوها في المتاحف ولم يتعذر أن تكون كثيرة ، والآيات تخالف المعهود وتخترق المعتاد وان كانت موافقة لسنن خفية في الكون بفعل الله عز وجل .

وفي سورتي هود والحجر أنها حجارة من سجيل مسومة واختلف رواة التفسير في تفسير السجيل قال مجاهد بالفارسية أولها حجارة وآخرها طين ، وفي قوله « مسومة » قال معلمة . ومثله عن شيخه ابن عباس (رض) قال : حجارة فيها طين وقال السدي بياض في حمرة . وقال الراغب : والسجيل حجر وطين مختلط وأصله فيما قيل فارسي معرب انتهى . وهذا يرجح الوجه الأول وهو كون تلك الحجارة من الارض وقلعتها الاعاصير من أرض رطبة من الماء أو غيره . وحجارة النيازك لا تكون الا جافة بل تسقط حامية من شدة الجذب ثم تبرد . وقال الاستاذ الامام في تفسير سورة الفيل السجيل طين متحجر والصواب الاول وانه فارسي الاصل . وسنعود الى هذا البحث في تفسير سورة هود ان شاء الله

تعالى وفيها أن الله تعالى جعل عالي تلك القرى سافلها ونبين ان وقوع هذا وذاك بالسنن الالهية الجلية أو الخفية لا ينافي كونها آية .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ الخطاب لكل من يسمع القصة أو يقرأها من أهل النظر والاعتبار ، والمراد أن يعلم أن عاقبة القوم المجرمين لا تكون الا وبالا وعقابا ، فان ذنوب الامم تعاقب عليها في الدنيا قبل الآخرة باطراد وقد بينا من قبل أن عقابها إما أن يكون أثراً طبيعيا للذنب كالترف والسرف في الفسق يفسد أخلاق الامة ويذهب ببأسها أو يجعله بينها شديداً بتفرق كلمتها واختلاف أحزابها وتعاديهم، فيترتب على ذلك تسليط أمة أخرى عليها تستذلها بسلب استقلالها، وتسخيرها في منافعها، حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين بذهاب مقوماتها ومشخصاتها، اوا ندغامها في الامة الغالبة أو انقراضها ، وإما أن يكون بما يحدث بسنن الله تعالى في الارض من الجوائح الطبيعية كالزلازل والخسف وإمطار النار والمواد المصطهرة التي تقذفها البراكين من الارض والاوبئة — أو الانقلابات الاجتماعية كالحروب والثورات والفتن. وهنالك نوع ثالث وهو ما كان من آيات الرسل (ع. م) وقد انقضى زمانه بختمهم بنبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (راجع تفسير ٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض (ص ٤٨٩ ج ٧ تفسير)

﴿ حظر اللواطة والعقاب عليها ومفاسدها ﴾

أجمع العلماء على أن اللواطة من كبائر المعاصي لان الله تعالى سماها فاحشة وخبيثة وقد وردت عدة أحاديث في لعن فاعلها عند النسائي وابن حبان وصححه والطبراني والبيهقي وصحح بعضها الحاكم وهي على كل حال يؤيد بعضها بعض في أمر معلوم من الدين بالضرورة . وروى الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث جابر بن عبد الله مرفوعا « ان أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط » صححه الحاكم وقال الترمذي حسن غريب ومن حديثه عند الطبراني « اذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو ، واذا كثر الزنا كثر السباء ، واذا كثر اللوطية رفع الله يده عن الخلق فلا يبالي في أي واد هلكوا »

واسناده ضعيف وروى احمد وغير النسائي من أصحاب السنن من طريق عكرمة عن ابن عباس مرفوعا « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » قال الحافظ ابن حجر في التلخيص واستنكره النسائي ورواه ابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة وإسناده أضعف من الاول بكثير . ثم نقل عن ابن الطلاع في أحكامه تصحيح الحديث ورده بأن حديث أبي هريرة لايصح وان ابن ماجه رواه من طريق عاصم بن عمر العمري بلفظ « فارجموا الاعلى والاسفل » وقال عاصم متروك وحديث ابن عباس مختلف في ثبوته أهملخصاً ولكن الشوكاني قال في حديث ابن عباس ان الحافظ قال : رجاله موثقون الا أن فيه اختلافا ، وان الشيخين احتجا بعمرو بن ابي عمير الذي ضعف به، ثم ذكر عبارة ابن الطلاع وتعقب الحافظ لها . واورد بعض الاخبار والآثار في ذلك ثم قال في احكامها مانصه :

« وقد اختلف اهل العلم في عقوبة الفاعل للواط والمفعول به بعد اتفاقهم على تحريمه وانه من الكبائر للاحاديث المتواترة في تحريمه ولعن فاعله (اي تواترا معنويا) فذهب من ذكر من الصحابة (يعني الذين استشارهم أبو بكر في المسألة وعلي وهو منهم وابن عباس) الى ان حده القتل ولو كان بكراً سواء كان فاعلا او مفعولا واليه ذهب الشافعي والناصر والقاسم بن ابراهيم واستدلوا بما ذكره المصنف (يعني صاحب المنتقى) من حديث عكرمة عن ابن عباس في رجمه اللوطية وذكرناه في هذا الباب وهو بمجموعه ينتهض للاحتجاج به . وقد اختلفوا في كيفية قتل اللوطي فروي عن علي انه يقتل بالسيف ثم يحرق لعظم المعصية والى ذلك ذهب ابو بكر كما تقدم عنه (اي عملا برأي علي في الشورى) وذهب عمر وعثمان الى انه يلقى عليه حائط وذهب ابن عباس الى انه يلقى من اعلى بناء في البلد (اقول والروايتان ضعيفتان وهونهما الثانية لان ابنيتهم كانت واطئة جدا) وقد حكى صاحب الشفاء اجماع الصحابة على القتل . وقد حكى البغوي عن الشعبي والزهري ومالك واحمد واسحاق انه يرجم »

ثم ذكر قول من قالوا ان اللواطة كالزنا فحدهما واحد وبحث في تخصيص اللوطي بعقاب . وقفى عليه بقوله :

« وما احق مرتكب هذه الجريمة ، ومقارف هذه الرذيلة الذميمة ، بأن

يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ، ويعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردين ، فحقيق بمن اتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من احد من العالمين ، أن يصلى من العقوبة بما يكون في الشدة والشناعة مشابهاً لعقوبتهم ، وقد خسف الله تعالى بهم ، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم. وذهب أبو حنيفة والشافعي في قول له والمرتضى والمؤيد بالله الى أنه يعزر اللوطي فقط . ولا يخفى ما في هذا المذهب من المخالفة للادلة المذكورة في خصوص اللوطي ، والادلة الواردة في الزاني على العموم اه

أقول ومما قاله الحنفية في هذا التعزير انه يكون بالجلد والحبس في انتن بقعة وبالسجن حتى يموت او يتوب . وقد تقدم في تفسير (٤ : ١٤ واللائي يأتين الفاحشة من نسائكم) الآيتين — ان ابا مسلم الخراساني فسر اللائي يأتين الفاحشة من النساء بالمساحقات — والذين يأتيانها من الرجال باللائط والملوط به ، وان الجلال قال انها في الزنا واللواط جميعا . وبينا ان الاستاذ الامام رجح قول ابي مسلم في الآيتين . وهو يوافق قول من قالوا ان عقاب اللواطة التعزير ولكن بما فيه ايذاء لا مطلقا ، فالتعزير يكون بالقول والفعل وبما فيه تعذيب وما لا تعذيب فيه ، (راجع ص ٤٣٤ — ٤٣٩ ج ٤ تفسير)

ابتلاء مترفي الحضارة بهذه الفاحشة

ليس لدينا اثارة من التاريخ في سبب ابتلاء قوم لوط بهذه الفاحشة ولكن روى ابن اسحق عن بعض رواة ابن عباس ان ابليس تزيى لهم في صورة اجمل صبي رآه الناس فدعاهم الى نفسه ثم جروا على ذلك . وهذا اثر لا يثبت به شيء. واخرج اسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس انه كانت لهم ثمار بعضها على ظهر الطريق وانه اصابهم قحط وقلة ثمار فتواطؤا على منع ثمارهم الظاهرة ان يصيب منها ابناء السبيل بأن يعاقبوا كل غريب يأخذونه في ديارهم باتيانه وتغريمه اربعة دراهم . فالوا : فان الناس لا يظهرون ببلادكم اذا فعلتم ذلك. ففعلوه فألفوه. وانا لنعلم ان العرب كانت تنزه انفسها عن هذه الفاحشة في الجاهلية وفي اول الاسلام بالاولى وما اشرنا اليه آنفا من تشاور الصحابة في العقاب عليها كان سببه ان خالد بن الوليد (ر ض) كتب الى ابي بكر الصديق

(رض) انه وجد رجلا في بعض ضواحي العرب ينكح كما تنكح المراة فجمع لذلك ابو بكر اصحاب رسول الله (ص) واستشارهم في هذا الامر إذ لم يسبق له مثل ، فأشار علي كرم الله وجهه بان يحرق بالنار أي بعد قتله كما تقدم فوافقه الصحابة وكتب أبو بكر الى خالد بذلك فأمضاه. رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه باسناد جيد ، والمراد بقول خالد (رض) ضواحي بلاد العرب ما يلي بلاد فارس منها اذ كان هنالك ولم نعلم جنس ذلك الرجل ولا بد ان يكون من الاعاجم . وروى البيهقي عن عائشة : اول من أتهم بالامر القبيح ـ تعني عمل قوم لوط ـ رجل على عهد عمر فامر عمر بعض شباب قريش ان لا يجالسوه . اي لمجرد التهمة .

هذه الفاحشة من سيئات ترف الحضارة وهي تكثر في المسرفين في الترف ولا سيما حيث يتعسر الاستمتاع بالنساء كثكنات الجند والمدارس التي لا تشتد المراقبة الدينية الادبية فيها على التلاميذ ، ومن أسباب ابتلاء بعض فساق المسلمين بها في عنفوان حضارتهم احتجاب النساء وعفتهن مع ضعف التربية الدينية ، وكثرة المماليك من ابناء الاعاجم الحسان الصور والاتجار بهم . قال الفقيه ابن حجر في آخر الكلام على هذه الكبيرة من كتابه الزواجر ما نصه :

وأجمعت الامة على أن من فعل بمملوكه فعل قوم لوط من اللوطية المجرمين الفاسقين الملعونين ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وقد فشا ذلك في التجار والمترفين ، فاتخذوا حسان المماليك سوداً وبيضاً لذلك ، فعليهم أشد اللعنة الدائمة الظاهرة ، وأعظم الخزي والبوار والعذاب في الدنيا والآخرة ، ما داموا على هذه القبائح الشنيعة ، البشعة الفظيعة ، الموجبة للفقر وهلاك الاموال وامحاق البركات ، والخيانة في المعاملات والامانات ، ولذلك تجد أكثرهم قد افتقر من سوء ما جناه ، وقبيح معاملته لمن أنعم عليه وأعطاه ، ولم يرجع الى بارئه وخالقه ، وموجده ورازقه ، بل بارزه بهذه المبارزة المبنية على خلع جلباب الحياء والمروة ، والتخلي عن سائر صفات اهل الشهامة والفتوة ، والتحلي بصفات البهائم بل بأقبح وأفظع صفة وحلة ، اذ لا نجد حيواناً ذكراً ينكح مثله ، فناهيك برذيلة تعفف عنها الحمير ، فكيف يليق فعلها بمن هو في صورة رئيس أو كبير ، كلا بل هو أسفل من قدره ،

وأشأم من خبره ، وأنتن من الجيف ، وأحق بالشرور والسرف ، وأخو الخزي والمهانة ، وخائن عهد الله وما له عنده من الامانة ؛ فبعداً له وسحقا ، وهلاكا في جهنم وحرقا اه

وقال السيد الآلوسي في آخر تفسير هذه القصة من روح المعاني : وبعض الفسقة اليوم - - دمرهم الله تعالى — يهونون أمرها ويتمنون بها ، ويفتخرون بالاكثار منها ، ومنهم من يفعلها أخذاً للثار ، ولكن من أين ؟ ومنهم من يحمد الله سبحانه عليها مبنية للمفعول ، وذلك لانهم نالوا الصدارة باعجازهم نسأل الله العفو والعافية ، في الدين والدنيا والآخرة اه

وأقول إن هذه الفتن بالمرد هي التي حملت بعض الفقهاء على تحريم النظر الى الغلام الامرد ولا سيما اذا كان جميل الصورة ، أطلقه بعضهم وخصه آخرون بنظر الشهوة الذي هو ذريعة الفاحشة . روى ابن أبي الدنيا والبيهقي عن الوضين بن عطاء عن بعض التابعين قال : كانوا يكرهون أن يحد الرجل النظر الى وجه الغلام الجميل — وعن الحسن بن ذكوان أنه قال : لا تجالسوا أولاد الاغنياء فان لهم صوراً كصور النساء وهم أشد فتنة من العذاري — وعن النجيب بن السدي قال كان يقال : لا يبيت الرجل في بيت مع المرد — وعن ابن سهل قال سيكون في هذه الامة قوم يقال لهم اللوطيون على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك العمل — وعن مجاهد قال : لو أن الذي يعمل ذلك العمل (يعني عمل قوم لوط) اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الارض لم يزل نجسا . وأخرج البيهقي عن عبد الله بن المبارك قال دخل سفيان الثوري الحمام فدخل عليه غلام صبيح فقال أخرجوه فاني أرى مع كل امرأة شيطانا ومع كل غلام بضعة عشر شيطانا . يعني ان الوسوسة والاغراء بالغلام الجميل يزيد على الاغراء بالمرأة بضعة عشر ضعفاً لسهولة الوصول اليه وكثرة وسائله ، وهل كان من الممكن أن تدخل المرأة الحمام على الرجال كما دخل ذلك الغلام وكما يدخل النساء في غير بلاد المسلمين حتى انهن يتولين تنظيف الرجال في الحمامات . ومن وسائل الافتتان بالمرد التعليم والانتساب الى طريقة المتصوفة فيجعل الخير وسيلة الى الشر ، وكم فتن أستاذ من هؤلاء وأولئك بمريده وتلميذه وأخفى هواه حتى فسدت

حاله ، وساء مآله، وكم تهتك متهتك ففضح سره، واشتهر أمره، كالشيخ مدرك الذي عشق عمراً النصراني أحد التلاميذ الذين كانوا يأخذون عنه علم الادب ، فكتم هواه زمناً حتى غلبه فباح به فانقطع الغلام عن مجلسه فكتب اليه قصيدته المزدوجة المشهورة التي قال فيها

ان كان ذنبي عنده الاسلام فقد سعت في نقضه الآثام
واختلت الصلاة والصيام وجاز في الدين له الحرام

وجملة القول في هـذه الفاحشة أنها (١) جناية على الفطرة البشرية (٢) مفسدة للشبان بالاسراف في الشهوة لانها تنال بسهولة (٣) مذلة للرجال بما تحدثه فيهم من داء الابنة ، وقد اشرنا آنفا الى مافيه من خزي ومهانة

(٤) مفسدة للنساء اللواتي تصرف أزواجهن عنهن ، حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصانهن ، حدثني تاجر أنه دخلت دكانه مرة امرأة بارعة الجمال فأسفرت عن وجهها، فقام لخدمتها دون أعوانه ، فلما رأته دهشاً بروعة حسنها قالت له: انظر أتجد فيّ عيباً ؟ قال : أنى ولم ار مثلك قط، قالت ولكن زوجي فلانا يتركني عامة لياليه كالشيء الملقا (هو الذي يلقى ويرمى لعدم الانتفاع به) في غرف الدار ويلهو عني في الدور السفلى بغلمان الشوارع حتى مساحي الاحذية ، وهو لا يشكو مني شيئا من خلق ولاخلق ولا تقصير في عمل، ولا خيانة في مال ولا عرض . على انه يعلم انى اعلم هذا ولا يبالي به ، ولا يحسب حساباً لعواقبه ...

ومن البديهي انه يقل في النساء من تصبر على هذا الظلم طويلا في مثل هذه البلاد (المصرية) التي تروج في مدنها اسواق الفسق بما له فيها من المواخير السرية والجهرية، واما المدن التي يعسر فيها السفاح واتخاذ الاخدان فكثيراً ما يستغني فيها النساء بالنساء كما يستغني الرجال بالغلمان. كما نقل عن نساء قوم لوط ، فقد روي عن حذيفة (رض) :انما حق القول على قوم لوط حين استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال — وعن أبي جعفر قال قلت لمحمد بن علي : عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم ؟ قال الله أعدل من ذلك: استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال. أبو جعفر هو الامام محمد الباقر ومحمد بن علي هو ابن الحنفية

(٥) قلة النسل بفشوها فان من لوازمها الرغبة عن الزواج والرغبة في إتيان

الازواج في غير مأتي الحرث ، وقد وردت أحاديث كثيرة في حظر إتيان النساء في غير سبيل النسل ولعن فاعل ذلك ، وهو من عمل قوم لوط ، وسماه بعض العلماء اللوطية الصغرى .

(٦) أنها ذريعة للاستمناء ولاتيان البهائم وهما معصيتان قبيحتان شديدتا الضرر في الابدان والآداب ، ومحرمتان كاللواطة والزنا في جميع الاديان ، وذلك مما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن رسوله لوط عليه السلام (إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) فقصد الشهوة لذاتها ، يفضي الى وضعها في غير موضعها ، وانما موضعها الزوجة الشرعية المتخذة للنسل ، وفي الحياة الزوجية الشرعية احصان كل من الزوجين الآخر بقصر لذة الاستمتاع عليه وجعله وسيلة للحياة الوالدية التي تنمي بها الامة ويحفظ النوع البشري من الزوال . والخروج عن ذلك الى جعل الشهوة مقصدا يكثر من وسائلها ما كان اقرب منالا وأقل كلفة ، فاذا اعتيد استغني به عن غيره . ومفاسد ذلك فوق ما وصفنا

---

(٨٤) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

﴿ قصة شعيب عليه السلام ﴾

هو من أنبياء العرب المرسلين واسمه مرتجل وقيل مصغر شعب بفتح

المعجمة أو كسرها ، وما قيل من حظر تصغير أسماء الانبياء لا يدخل فيه الوضع الاول بل المراد به تصغير الاسم المعروف بما يوهم الاحتقار كأن تقول في شعيب «شعيعيب» بناء على أنه غير مصغر في الاصل. وقصد الاحتقار لا يقع من مؤمن بأنه من رسل الله عليهم السلام

اخرج بن عساكر من طريق اسحق بن بشر قال أخبرني عبيد الله بن زياد بن سمعان عن بعض من قرأ الكتب قال ان أهل التوراة يزعمون أن شعيباً اسمه في التوراة ميكائيل واسمه بالسريانية خبري بن يشخر بن لاوي بن يعقوب (ع . م) وأخرج من طريقه عن الشرقي بن القطامي وكان نسابة عالما بالانساب قال هو يثروب بالعبرانية وشعيب بالعربية بن عيفا بن يوبب بن ابراهيم عليه الصلاة والسلام . يوبب بوزن جعفر أوله مثناة تحتية وبعد الواو موحدتان اه من الدر المنثور ولعل يشخر فيه مصحف يشجر

وأقول إن اليهود كانوا يغشون المسلمين فيما يروون لهم من كتبهم والذي في توراتهم أن حمي موسى كان يدعى رعوئيل كما في سفر الخروج (٢ : ١٨) وسفر العدد (١٠ : ٢٩) وقالوا ان « رعو » معناه صديق فمعنى رعوئيل (صديق الله) أي الصادق في عبادته . وفي (٣ : ١ خروج) ان اسمه يثرون بالمثلثة والنون اذ قال وكان موسى يرعى غنم يثرون حميه كاهن مدين. ومثله في (٤ : ١٨ منه) وضبط في ترجمة الاميركان بكسر الياء وسكون الثاء ، وفي ترجمة الجزويت « يثرو » بفتح الياء وبدون نون . وفي قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست الاميركاني: يثرون (فضله) كاهن أو أمير مديان وهو حمو موسي (خر ٣ : ١) ويدعى أيضاً رعوئيل (خر ٢ : ١٨ وعد ١٠ : ٢٩) ويثر حاشية خر ٤ : ١٨) ويرجح أن يثرون كان لقباً لوظيفته . وانه كان من نسل ابراهيم بوقطورة (تك ٢٥ : ٢) اه وذكر قبل ذلك يثر وفسره بفضل كما فسر يثرون عبده علماً في زماننا ويختصرون به عبدالله

وفي الفصل الخامس من سفر التكوين أن زوجة ابراهيم قطورة ولدت له ستة أولاد منهم مداذ ومدين واهل الكتاب يكسرون ميم مدين وبعضهم يقول مديان ، والمدينيون عرب والعرب تفتح ميم الكلمة وفي قاموس بوست أن معناها خصام ونقل عن بعض المؤرخين أن ارضهم كانت تمتد من خليج

العقبة الى موآب وطور سيناء وعن آخرين أنها كانت تمتد من شبه جزيرة سيناء الى الفرات . وقال ان الاسماعيليين كانوا من سكان مدين . ثم ذكر أن أهل مدين حسبوا مع العرب والموآبيين

وأما علماؤنا فقال بعضهم كأبي عبيدة من حملة اللغة والبخاري من المحدثين والمؤرخين ان مدين بلد وان قوله تعالى (والى مدين) فيه حذف المضاف أي أهل مدين ، وهو غلط . وأما شعيب فقد قال النووي في تهذيب الاسماء واللغات : هو ابن مكيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام . وقيل ان جده يشجر بن لاوي بن يعقوب (ع . م) وقال الحافظ في الفتح هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن لاوي بن يعقوب . كذا قال ابن اسحق ولا يثبت . وقيل هو شعيب بن صفور بن عنقا بن ثابت بن مدين ، وكان مدين ممن آمن بابراهيم لما أحرق . وروى ابن حبان في حديث أبي ذر الطويل « أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ومحمد » فعلى هذا هو من العرب العاربة . وقيل انه من بني عنزة بن أسد ففي حديث سلمة بن سعيد العنزي أنه قدم على النبي فانتسب الى عنزة فقال (ص) « نعم الحي عنزة مبغي عليهم منصورون ؛ رهط شعيب وأختان موسى » اخرجه الطبراني وفي اسناده مجاهيل اه وقال الآلوسي : ومدين — وسمع مديان في الاصل — علم لابن ابراهيم الخليل عليه السلام ومنع صرفه للعلمية والعجمة ثم سميت به القبيلة . وقيل هو عربي اسم لماء كانوا عليه ، وقيل اسم بلد ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث فلا بد من تقدير مضاف حينئذ اه ومما تقدم تعلم ان الراجح من هذه الثلاثة الاقوال هو الاول . قال الله تعالى

﴿ والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ قد تقدم مثله من كل وجه في قصة صالح (ع . م) لا أنه هنالك قد عين الآية بعد الاعلام بمجيئها وهي الناقة . ولم يذكر هنا ولا في سورة أخرى آية كونية لشعيب عليه السلام ، وقد قال النبي (ص) « ما من الانبياء نبي الا وقد أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله الي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة ومعناه أن كل نبي مرسل

أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر بدلالة مثله . وقد يقال ان إنذار قومه بأن يصيبهم ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح اذا هم أصروا على شقاقه وعناده — هو آية بينة على صدقه ، وقد صدق إنذاره هذا وهو مبين في قصته من سورة هود . ولكن لا بد ان يكون له آية أخرى دالة على صدقه تقوم بها الحجة عليهم فان ظهور صدق هذا الانذار إنما يكون بوقوع العذاب المانع من صحة الايمان فلا فائدة لهم من قيام الحجة به . على أن البينة كل ما يتبين به الحق فهي تشمل المعجزات الكونية ، والبراهين العقلية ، والمعروف من احوال الامم القديمة أنها لم تكن تذعن الا لخوارق العادات . ولو لم تكن البينة التي أيد الله تعالى بها شعيبا (ع . م) ملزمة للحجة قاطعة لالسنة العذر ومكابرة الحق لما ترتب عليها قوله :

﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ فان عطف هذا الامر بالفاء لا يصح الا اذا كان مبنيا على ما هو سبب له وهو البينة على صدقه ووجوب طاعته ، ولو كان معطوفا على قوله (اعبدوا الله) لعطف بالواو .

بدأ الدعوة بالامر بالتوحيد في العبادة لانه أساس العقيدة وركن الدين الاعظم ، وقفى عليه بالامر بايفاء الكيل والميزان اذا باعوا والنهي عن بخس الناس اشياءهم اذا اشتروا لان هذا كان فاشيا فيهم اكثر من سائر المعاصي ، فكان شأنه معهم كشأن لوط (ع . م) اذ بدأ بنهي قومه عن الفاحشة السوءى التي كانت فاشية فيهم . كان قوم شعيب من المطففين الذين اذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لانفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم او يزيدون عليه ، واذا كالوهم او وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان اي ينقصونه ، فيبخسونهم اشياءهم ، وينقصونهم حقوقهم . والبخس اعم من نقص المكيل والموزون فانه يشمل غيرهما من المبيعات ، كالمواشي والمعدودات ، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق ، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل ، وكل من البخسين فاش في هذا الزمان ، فأكثر التجار باخسون مطففون مخسرون ، فيما يبيعون وفيما يشترون ، واكثر المشتغلين بالعلم والادب وكتاب السياسة بخاسون لحقوق صنفهم ، ومتنفجون فيما يدعون لانفسهم ، يتشبعون بما لم يعطوا كلابس ثوبي زور ،

وينكرون على غيرهم ما اعطاه الله بباعث البغي والحسد والغرور

وجملة (لا تبخسوا الناس اشياءهم) تشعر بأنهم كانوا يتواطؤن على هضم الغريب وبخسه ، وان كانت تشمل بخس الافراد بعضهم اشياء بعض ، وهضم الشعب في جملته اشياء الغرباء الذين يعاملونهم ، فقد روي انهم كانوا اذا دخل الغريب يأخذون دراهمه ويقولون : هذه زيوف ، فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس يعني النقصان . وهذه النقيصة فاشية بين الامم والشعوب في هذا العصر فتجد بعضهم يذم بعضا وينكر فضله كالافراد ، وترى التجار في عواصم اوربة يغالون للغرباء ما يرخصون لاهل البلاد ، وترى بعض الغرباء في مصر يستحلون من نهب اموال المصريين بضروب الحيل والتلبيس ما لا يستحلون مثله في معاملة ابناء جلدتهم . واما المصريون وامثالهم من الشرقيين فكما قال الشاعر

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ومن إساءة اهل السوء إحسانا

وياليتهم يعاملون انفسهم ومن تجمعهم معهم أقوى المقومات هذه المعاملة ، بل يكثر فيهم من يبخسون ابناء قومهم وملتهم اشياءهم ، ويهضمون حقوقهم ، ويعظمون الاجنبي ويعطونه فوق حقه . وانما استذلهم للاجانب حكامهم . ولكنهم في جملتهم مبخوسون لا باخسون ، ومظلومون لا ظالمون ، وهم على ذلك مذمومون لا محمودون ، ومكفورون لا مشكورون

﴿ ولا تفسدوا في الارض بعد إصلاحها ﴾ الافساد في الارض يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري بالظلم واكل اموال الناس بالباطل والبغي والعدوان على الانفس والاعراض — وإفساد الاخلاق والآداب بالاثم والفواحش الظاهرة والباطنة — وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام . واصلاحها ما يصلح به امرها وحال اهلها من العقائد الصحيحة المنافية لخرافات الشرك ومهانته ، والاعمال الصالحة المزكية للانفس من ادران الرذائل ، والاعمال الفنية المرقية للعمران وحسن المعيشة ، فقد قال تعالى في اوائل هذه السورة (ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) فقد اصلح الله تعالى حال البشر بنظام الفطرة وكمال الخلقة ، ومكنهم من اصلاح الارض بما آتاهم من القوى العقلية والجوارح ، وبما اودع في خلق الارض من السنن الحكيمة ،

وبما بعث به الرسل من مكملات الفطرة . فالافساد ازالة صلاح أو اصلاح ، والاصلاح ما يكون بفعل فاعل : وهو إما الخالق الحكيم وحده واما من سخرهم للاصلاح من الانبياء والعلماء والحكماء الذين يأمرون بالقسط ، والحكام العادلين الذين يقيمون القسط ، وغيرهم من العاملين الذين ينفعون الناس في دينهم ودنياهم كالزراع والصناع والتجار أهل الامانة والاستقامة . وهذه الاعمال تتوقف في هذا العصر على علوم وفنون كثيرة فهي واجبة وفقا لقاعدة مالا يتم الواجب الا به فهو واجب

﴿ ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين ﴾ الاشارة الى كل ما تقدم من أمر ونهي — أي هو خير لكم دينكم ودنياكم لا تكليف إعنات ، فربكم لا يأمركم الا بما هو نافع لكم ، ولا ينهاكم الا عما هو ضار بكم ، وهو على كل حال غني عنكم ، ولو شاء لاعنتكم ، ولكنه رحيم لا يفعل ذلك . وانما تتحقق خيريته لكم ان كنتم مؤمنين بوحدانيته وصفاته تعالى وبرسوله وما جاءكم به عنه سبحانه من الدين والشرع .

وقد فسر بعضهم الايمان هنا بالتصديق اللغوي أي اعتقاد صحة قوله عليه السلام لما هو معروف به عندهم من الصدق والامانة والنصح ، بناء على أن خيرية الاوامر والنواهي الدنيوية لا تتوقف على عبادة الله وحده والايمان برسالة رسوله . وذهب بعض المفسرين الى أن الاشارة الى قوله (فأوفوا الكيل) وما بعده دون ما قبله من الامر بعبادة الله تعالى وحده . وقال الطيبي ان مثل هذا الشرط انما يجاء به في آخر الكلام للتأكيد . وقال القطب الرازي ان ذلك ليس شرطا للخيرية نفسها بل لفعلهم كأنه قيل فأتوا به ان كنتم مصدقين بي فلا يرد أنه لا توقف للخيرية في الانسانية على تصديقهم به . وقد أطالوا الاحتمالات في الآية حتى زعم الخيالي ان قوله «ذلكم خير لكم» جملة معترضة !! وهو من خيالاته الغريبة التي انفرد بها

والصواب أن هذا التذييل كامثاله في القرآن مقصود بالذات وان المعنى : ذلكم الذي أمرتكم به من عبادة الله وحده وعدم إشراك شيء من خلقه في عبادته لما ترون فيه من خير ترجونه أو ضر تخافونه — ومن إيفاء الكيل والميزان بالقسط — وما نهيتكم عنه من الافساد في الارض — ذلكم كله خير لكم في معاشكم ومعادكم ، وانما تتحقق خيريته لكم إن كنتم مؤمنين بالله ورسوله

وما جاءكم به من هذه الاوامر والنواهي وغيرها . ذلك بأن الايمان يقتضي الاتباع والامتثال والعمل بجميع ما جاء به الرسول من عند الله وان خالف الهوى أو لم تظهر له فائدته ومنفعته بادي الرأي، بل يقتضيه حتى فيما يظن المؤمن أنه مناف لمصلحته ، فتحصل له فوائده ومنافعه وان لم يعلم أنه علة أو سبب لها بحسب حكمة الله وسننه التي أقام بها نظام العالم الانساني . فكيف اذا علم ذلك بالتفقه في الدين والوقوف على حكمه واسراره — ككون التوحيد واجتناب نزغات الشرك ترفع قدر الانسان ، وتطهر عقله ونفسه من الخرافات والاوهام، وتعتق ارادته من العبودية والذلة لمخلوق مثله مساو له في كونه مخلوقا مسخراً لارادة الخالق وسننه وان فاقه في عظمة الخلق، أو عظم المنفعة كالشمس ، أو بعض الصفات أو الخصائص كالانبياء والملائكة وغير ذلك مما عبد من دون الله ، أو في الملك والسلطان ، فان بعض الناس قد عبدوا الملوك الجبارين فاتخذوهم آلهة وأربابا ، ومنهم من لا يزال يذل لهم ويطيعهم ولو في الباطل والجور ، خوفا منهم ، أو رجاء في رفدهم ، وليس هذا من شأن الموحدين ، قال تعالى (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) فالمؤمن الموحد لا يخضع لاحد لذاته الا ربه وإلهه ، وانما يطيع رسوله لانه مبلغ عنه ، قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال خاتم رسله « إنما أنا بشر مثلكم اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » رواه احمد ومسلم من حديث رافع بن خديج (ر ض) وقال « انما أنا بشر مثلكم وان الظن يخطيء ويصيب، ولكن ماقلت لكم «قال الله » فلن أكذب على الله » رواه احمد وابن ماجه من حديث طلحة (ر ض) بسند صحيح . وقال « انما أنا بشر وانكم تختصمون اليّ فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته [1] من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » رواه الجماعة كلهم من حديث أم سلمة (ر ض)

---

(١) اسم تفضيل من لحن اذا فطن لحجته أي ألسن وافصح وابين كلاما واقدر على الحجة (قسطلاني) وفي رواية البخاري في كتاب الاحكام من صحيحه «ابلغ » وهو تفسير ألحن

وفي رواية « فلا يأخذه » بدل تخيير التهديد ، وفي بعضها « من حق أخيه » بدلا من « بحق مسلم » وأجمع العلماء على ان هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، وان الذمي والمعاهد كذلك. ومعلوم ان الذمي هو الخاضع لاحكامنا من غير المسلمين ، والمعاهد من بيننا وبينه او بين قومه معاهدة على السلم ، والمراد أن غير المسلم اذا لم يكن حربيا فهو مساو للمسلمين في احترام ماله ونفسه وعرضه وفي احكام الشريعة التي تصدر بذلك . والشاهد المرادلنا من الحديث ان الحق في شرع الله تعالى مقصود لذاته ، وان حكم الحاكم ولوكان رسولا من رسل الله انما ينفذ على الظاهر لانه حكم بالظاهر دون الباطن ، فاذا علم المحكوم له انه خطأ في الواقع لم يحل له ديانة . والحديث ليس نصا في وقوع الخطأ او جوازه منه (ص) اذ يصح ان يكون قاله على سبيل الفرض حتى لا يستعين أحد بخلابة اللسان لدي الحكام على القضاء له بالباطل ، والذين قالوا بجواز خطأ الانبياء في اجتهادهم قالوا ان الله تعالى لا يقرهم عليها ، على ان الحكم هنا بالبينة وهي انما تكون بحسب الظاهر لا بمحض الاجتهاد وهذه المباحث ليست من موضوعنا هنا

هذا مثال لكون التوحيد في العبادة هو لمصلحة الناس وتكريمهم واعلاء شأنهم ، وكذلك سائر العبادات واحكام الحظر والاباحة حتى ما يسمونه في عرف هذا العصر بالاحكام المدنية — قد شرعت لدفع المفاسد وتقرير المصالح العامة والخاصة ، وترى غير المؤمن المتدين لا يلتزم اجتناب كل مفسدة بل يستبيح ما يراه نافعا له وإن كان ضارا بغيره فرداً كان او جماعة او امة بأسرها ، فان مجرد العلم بكون الامانة خيراً من الخيانة وكون القسط في البيع والشراء وسائر المعاملات خيراً من الغش والخيانة وبخس الحقوق — لا يكفي لحمل الجمهور على العمل به ، اولا لان هذا العلم إجمالي يعرض له عند التفصيل ضروب من الاشكال في تحديد الامانة والخيانة والقسط والبخس وضروب من الهوى في تطبيق حدودها او رسومها على جزئياتها ، وضروب من التأويل والشبهات في المساواة فيها بين القريب والغريب ، والصديق والعدو ، والضعيف والقوي ، والفقير والغني . وأما الدين فيوجب على المؤمن إقامة العدل لذاته بالمساواة كما قال تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو

أقرب للتقوى واتقوا الله) ويقول يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا [1] وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون بصيرا)

لم يصل البشر في عصر من عصور التاريخ إلى عشر ما وصلوا اليه في هذا العصر من العلم بالمنافع والمضار والمصالح والمفاسد في الاجتماع البشري في معاملاته وآدابه حتى زعم كثير من الباحثين والمفكرين منهم أنه يمكن الاستغناء بالعلم عن الدين في تربية الاحداث باقناعهم بمنافع الفضائل كالصدق والامانة والعدل ومضار الرذائل كأضدادها ، وان هذا أهدى وأقوى اقناعاً من التبشير بثواب الآخرة والانذار بعذابها. ولكنا نرى رؤساء أرقى الامم في هذه العلوم يقترفون أفحش الرذائل بالتأويل لها، وتسميتها بغير اسمائها، وبالخفاء والحيل، ومازالوا يراؤن الناس في ذلك حتى فضحتهم وفضحت شعوبهم الحرب الاخيرة فثبت بها أنهم شر البشر وأعرقهم في الرذائل العامة كالافساد في الارض بالظلم والطمع ، والمباراة في وسائل افساد الشعوب صحة وأخلاقا واستذلالا، لاجل الاستلذاذ باستعبادها، والاستئثار بثمرات أعمالها. على انهم يمنون عليها بذلك زعماً منهم أنهم يجذبونها به الى حضارتهم الملعونة المبنية على الاسراف في الشهوات، واستحلال الفواحش والمنكرات ، وجعل ذلك من الحرية الشخصية التي يبالغون في مدحها ، وعد هذا الاطلاق سبباً للكمال فيها — هذا وان منهم من يدعي الجمع بين علوم الحقوق والآداب والفضائل وسنن الاجتماع، وبين دين المبالغة في الزهد والعفة والتواضع والايثار ، وهي الملة المسيحية التي يفتخرون بوصف أممهم بها ، وهم أبعد من جميع خلق الله عنها — فالتحقيق الذي ثبت بالدلائل العقلية والنقلية والتجارب الدقيقة أن ملكات الفضائل لا تنطبع في الانفس الا بالتربية الدينية كما بيناه في مواضع أخرى ولذلك تقل السرقة والخيانة في البلاد التي يغلب على اهلها التدين الصحيح كبلاد نجد وا كثر بلاد اليمن على قلة وسائل المحافظة على الاموال فيهما، وتكثر في غيرها على كثرة تلك الوسائل

(١) قوله تعالى « أن تعدلوا » معناه كراهة أن تعدلوا أو امتناعا من أن تعدلوا

﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ﴾ قلنا انه عليه السلام قد بدأ بدعوتهم الى توحيد العبادة لانه ركن الدين الاعظم الذي هدمته الوثنية — وثنى بالاوامر والنواهي المتعلقة بحالهم الغالبة عليهم — وأما هذا النهي عن قطعهم الطرق على من يغشى مجلسه عليه السلام ويسمع دعوته ويؤمن بها فلم يؤخر لان اقترافه دون اقتراف التطفيف في الكيل والميزان وبخس الحقوق، بل لانه متأخر عنها في الزمن — فالدعوة قد وجهت أولا الى أقرب الناس اليه في بلده ثم الى الاقرب فالاقرب منهم وممن يزور أرضهم ، وقد كان الاقربون داراً هم الابعدين استجابة له في في الاكثر، وتلك سنة الله في الخلق . فلما رأوا غيرهم يقبل دعوته ويعقلها ويهتدي بها ،شرعوا يصدون الناس عنها،فلا يدعون طريقاً توصل اليه الاقعدوا بها من يتوعد سالكيها اليه ويصدونهم عن سبيل الله التى يدعوهم اليها، ويطلبون بالتمويه والتضليل أن يجعلوا استقامتها عوجاً ، وهداها ضلالا . وتقدم مثل هذه الجملة (في الآية ٤٤ من هذه السورة في ص ٤٢٧ من هذا الجزء فليراجع

روي عن ابن عباس (رض) في قوله (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) قال كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتى عليهم ان شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم . وفي رواية عنه . بكل صراط : طريق — توعدون قال : تخوفون الناس أن يأتوا شعيبا . وهذا تفسير للصراط بالطريق الحسي الحقيقي. وروي عن مجاهد تفسيره بالسبيل المجازي قال (بكل صراط) قال : بكل سبيل حق الخ . وروي أنهم كانوا يخوفون الناس بالقتل اذا آمنوا به

والحاصل أنه نهاهم هنا عن ثلاثة أشياء(أولها) قعودهم على الطرقات التى توصل اليه يخوفون من يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته (ثانيها)صدهم من وصل اليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الايمان والاسلام و الاستقامة على سبيل الله تعالى الموصلة الى سعادة الدارين (ثالثها) ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عوج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها كقولهم له الذي حكاه الله تعالى عنهم في سورة هود (أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء) ؟

فههنا ضلالتان — ضلالة التقليد والعصبية للآباء والاجداد ولا تزال

تكأة اكثر الضالين في أصل الدين وفي فهمه وفي الاهتداء به — وضلالة الغلو في الحرية الشخصية التي لم تكن فتنتها في زمن ما أشد وأعم منها في هذا الزمن بما بث الافرنج الفاتنون المفتونون لدعوتها في كل الامم حتى إن حكومة كالحكومة المصرية تبيح الزنا لشعب يدين اكثر اهله بالاسلام وأقله بالنصرانية واليهودية وكلهم يحرمون الزنا وانما أباحته باغواء أساتذتها وسادتها من الافرنج وقد خنع الشعب المستذل المستضعف لها وسكت علماؤه ومرشدوه الدينيون فلا ينكرون عليها أفراداً ولا جماعات، ولا يتظاهرون على الاحتجاج على عملها بالخطب الدينية والاجتماعية ولا بالنشر في الصحف العامة، وقد أدى السكوت عن هذا وما اشبهه الى أن صار المنكر معروفا يكثر انصاره والمستحسنون له ومن المعلوم من دين الاسلام بالضرورة أن استحلال الزنا واباحته كفر وردة . وعلماء الدين يتحدثون فيما بينهم بكفر واضعي أمثال هذه الاحكام في القوانين والمستبيحين لها من سواهم، ولكنهم قلما يتجاوزون التناجي في ذلك بينهم، إما لضعفهم أو لان ارزاقهم من الاوقاف ومنصب القضاء في أيد هؤلاء الحكام، كما بيناه في مواضع. ومن مفاسد هذا السكوت عن انكار المنكر أن بعض المسلمين يحتجون به على شرعية كل ما يسكت عنه علماء الدين (١)

﴿ واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ﴾ أي وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد فكثركم الله تعالى بما بارك في نسلكم فاشكروا له ذلك بعبادته وحده واتباع وصاياه في الحق والعدل وترك الفساد في الارض

﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ من الشعوب المجاورة لكم كقوم لوط وقوم صالح وغيرهم، وكيف اهلكهم الله تعالى بفسادهم، فيجب أن يكون لكم عبرة في ذلك

﴿ وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ أي ان كان بعضكم قد آمن بما ارسلني

(١) احتج رئيس حكومة الترك الجديدة مصطفى كمال باشا على جواز نصب التماثيل شرعا بوجودها منصوبة في مصر واقرار علمائها المشهورين لها . وكتب مسلم جغرافي في جريدة مصرية يقترح أن تكون حكومة مصر غير دينية وأن تلغي المحاكم الشرعية اقتداء بدولة الخلافة التركية !!! فكل يقتدي بشر ما عند الآخر

الله به اليكم من التوحيد والعبادة والاحكام المقررة للاصلاح المانعة من الافساد وبعضكم لم يؤمن بها بل اصروا على شركهم وافسادهم فستكون عاقبتكم كعاقبة من قبلكم فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بالفعل ، وهو خير الحاكمين لانه يحكم بالحق والعدل ، لتنزهه عن الباطل والجور ، فان لم يعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم ، فسيرون مايحل بهم . فالامر بالصبر تهديد ووعيد

حكم الله بين عباده نوعان : حكم شرعي يوحيه الى رسله، وحكم فعلي يفصل فيه بين الخلق بمقتضى سننه ، فمن الاول قوله تعالى في أول سورة المائدة (إن الله يحكم مايريد) فانه جاء بعد الامر بالوفاء بالعقود واحلال بهيمة الانعام الا مااستثنى منها بعد هذه الآية . ومن الثاني ماحكاه تعالى هنا عن رسوله شعيب عليه السلام ومثله قوله تعالى في آخر سورة يونس خطابا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (واتبع مايوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) وفي معناه ماختمت به سورة الانبياء وهو في موضوع تبليغ دعوة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم : (قل انما يوحى الي أنما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون * فان تولو فقل آذنتكم على سواء ، وان ادري أقريب أم بعيد ماتوعدون * انه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون * وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين * قال رب احكم بالحق . وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) وانما حكمه تعالى بين الامم بنصر اقربها الى العدل والاصلاح في الارض ، وحكمه هو الحق ، ولا معقب لحكمه ، فليعتبر المسلمون بهذا قبل كل أحد ، وليعرضوا حالهم وحال دولهم على القرآن ، وعلى أحكام الله لهم وعليهم ، لعلهم يثوبون الى رشدهم ويتوبون الى ربهم ، فيعيد اليهم ماسلب منهم ، ويرفع مقته وغضبه عنهم . اللهم تب علينا ، وعافنا واعف عنا، واحكم لنا لاعلينا ، انك على كل شيء قدير .

﴿ تم الجزء الثامن بفضل الله وتوفيقه، وكان بدء كتابته في رمضان سنة ١٣٣٨ ﴾

ونشر أوله في ج ٨ من المجلد الحادي والعشرين للمنار وهذا آخره في ج ١٠ من المجلد الرابع والعشرين الذي صدر متأخرا في آخر ربيع الاول سنة ١٣٤٢ ونسأل الله تعالى التوفيق للاكمال

كما يحب ويرضى

الجزء الثامن

من

تفسير القرآن الحكيم

الشهير بتفسير المنار

نشر في مجلة المنار من الجزء ٨ م ٢١ — ج ١٠ م ٢٤

مصطلحات هذا الفهرس :—

١ — أنه قد روعي الترتيب الهجائي في الكلمة الثانية وقدم المعرف وأهمل واو العطف وحرف الجر

٢ — أن الاصفار التي عن يسار الارقام تشير الى اتمام أو اعادة المعنى في الصفحة الثانية أو ما بعدها

٣ — ان الترتيب انما هو على حسب النطق لا المادة

﴿ الطبعة الاولى ﴾

مطبعة المنار بمصر

obeikandl.com

فهرس الجزء الثامن من التفسير

ا

صفحة

آدم . قصته مع ابليس ٣٢٨ — ٣٥٢
« « العبرة فيها والاشكال عليها وكونها مثلا للفطرة ٢٥٢ — ٢٥٧
« وسوسة الشيطان وتغريره له ٢٤٧
آجال الامم ٤٠٢
آلة لتكليم الموتى ١١٧
الآيات في ابتلاء الناس بالنعم والنقم ٢٥٢
آيات الصفات والاشتباه فيها ٤٥١
« الله . انتظار الكفار لاتيانها ٢٠٨
« الله للمسلمين بتخاذل الطامعين فيهم وتسخير بعضهم لهم ٢٢٩
الآية التي لا ينفع الايمان ولا العمل بعد اتيانها ٢٠٩
آية التكوين على الربوبية ٢٤٥ و ٤٤٤
« الله الكبرى القرآن ٢٨٠
ابراهيم . ملته وكونه حنيفا ٢٣٩
إبليس . اهباطه من الجنة ٣٣٣
« جهله في ترك السجود لآدم ٣٣٠
« حكمة خلقه وذريته ٣٤٠
« خطاب الرب له تكويني أم تكليفي ٣٣٩
« طرده وابعاده وأتباعه الى جهنم ٣٣٨
« طلبه الانظار واجابته ٣٣٤
« عداوته لآدم ٣٤٨
ابن القيم : تفصيله لأدلة الاختلاف في سرمدية عذاب النار ٧١
أبو هريرة . روايته عن كعب الاحبار ٤٤٩

صفحة

الأثم ظاهره وباطنه ٢١
« والبغي (معناهما) ٣٩٥
الاجرام . معناه وكونه في الاكابر ٣٣
الاجساد . اعادتها بعينها أو بمثلها ٤٧٣
أحاديث الحساب والسؤال ٣١٨
أحاديث وآثار في زينة اللباس ٣٩١
« في سعة رحمة الله ١١٥
« في طلوع الشمس من مغربها ٢١٠
« في عبادة الانسان عن غيره أو لغيره ٢٤٧ و ٢٦٤
« في محرمات الطعام ١٥٠
الاحسان . طلبه في كل شيء ٤٦٢
الاخلاق . هلاك الامم بفسادها ٤٠٦
ارادة الله الهداية والاضلال ٤٢ و ٣٧٥
الارواح . محاولة الاتصال بها ١١٧
الاستاذ الامام . ومذهب السلف ٢٢٣
استخلاف الله الاقوام في الارض ١١٦
الاستعمار الاوربي ومفاسده ٤٦٤
الاستواء على العرش ٤٥١
الاسراف في الأكل والصدقة ١٣٨
« في الزينة والاكل والشرب ٣٨٤
الاسرائيليات في التفسير ٣٥٥ و ٤٤٩
الاسلام . اصلاحه للامم بالوحدة ٢٢٨
« باغوه عوجا من اهله ٤٢٨
« تحضيره للبشر بالزينة ٣٨٣ و ٣٩٣
« جناية أهله عليه (راجع المسلمون)
« سبب السعادة ٣٩٤
« صراط الرب ٦٢

	صفحة
الاسلام. عدم الاستعداد له	٤١
« والعلوم الصحية	٤٠٩
« والنصرانية . تنازعهما	٢٣١
الاشاعرة والمعتزلة . تنابزهما بالالقاب	٤٩
الاشعري مناظرته للجبائي ٤٧ و ٥٢ و ٥٩	
الاصلاح الاسلامي بالوحدة	٢٢٨
الاصل الذي بلغه الرسل للامم	٤١١
أصول الاشياء . جهل الفلاسفة بها	٤٧٦
« المحرمات والفضائل	١٨٣
الاصول العلمية والعملية في سورة الانعام وهي ٢١ اصلا في كون الاسلام توحيدا واتفاق فتفريقه بالمذاهب مفارقة لاصله ـ وكون الجزاء على الحسنات يضاعف دون السيئات وجزاء كل عامل له وعليه عمل الناس بالاختيار وبطلان الجبر وسنن الله ومشيئته والسنن الاجتماعية في الامم واليقين في العقائد وبطلان التقليد وكون التحليل والتحريم حق الله وحده وكونه لم يحرم من الطعام الا أربعا وكون المحرمات تباح للضرورة ووجوب السياحة في الارض ـ والنظر في أحوال الامم ـ وكون الظلم سببا لهلاك الامم ـ والترغيب في علوم الكون ـ وحفظ الحيوان والرفق به وكون حياة الدنيا لهوا ولعبا والنهي عن سب معبودات المشركين ـ وابتلاء بعض الناس ببعض ـ وكون التوبة سبب المغفرة	٢٨٥
الاصنام . سبب اتخاذها	١٤٦
الاطعمة ومحرماتها	١٤٨
الاعراب . مخالفة معهوده لنكتته	١٧
اعراب (هو أعلم من يضل)	١٦
الاعراف وأصحابها	٤٣١ ـ ٤٣٩
« (راجع سورة)	
الاعمال وزنها يوم القيامة ٣١٩ ـ ٣٢٢	
« الثواب عليها بحسب تزكيتها للنفس	٢٣٣ و ٢٦٠
أغلاط المفسرين . سببها	١٨
الافتراء على الله بتحريم مالم يحرم	١٤٤
« سببه	٤١٢
الافرنج . رذائلهم وبعدهم من المسيحية ٥٣٥ إفسادهم للناس واصلاحهم للنبات والحيوان	٤٦١
الافساد في الارض	٤٦٠
أفعال العبد . خلقها للرب أو للعبد	٥٦
أكابر المجرمين	٣٢
الاكل مما ذكر اسم الله عليه	١٧
« مما لم يذكر اسم الله عليه	٢٢
الامامة الكبرى بالانتخاب	١٠٣
الامة . افتراقها ٧٣ فرقة ٢١٥ ـ ٢٢٤	
الامم . آجالها	٤٠٢
« خطاب الله لجميعها بالرسل	٤١٠
« رهينة باعمالها	٤١٩
« سؤالها عن دعوة الرسل وسؤال الرسل عنها	٣١٥
« سيطرتها على حكوماتها وتأثير ملوكها في صلاحها وهلاكها ١٠٢ ـ ١١٠	
« عذابها في الدنيا بذنوبها مطرد دون الافراد	٤١٠

صفحه

الامم كالافراد تتاثر بالفساد ٤٠٥
« هلاكها وأسبابه ١١٠ و ١١٩ — و ٢٩١ و ٣١١ و ٤٠٢ و ٤١٠
الاناجيل . اثباتها دخول الشياطين في الاجسام ٣٦٩
الانبياء . آياتهم وعلمهم ليسا من كسبهم ٢٨٢ و ٤٩٤
الانذار العام والخاص ٣٠٦
الانس والجن . استمتاع بعضهما ببعض ٦٦
« « درجات اعمالهم ١١١
الانسان . أصله وتكوينه الاول وهل له جراثيم متسلسلة ٤٧٦ — ٤٨١
« حقيقته ٤٧٨
« الحمل به وتولده ٤٨٠
« عامل بالاختيار خاضع للاقدار ٤٥ و ١١٣ و ٢٨٦
« عمله لنفسه أو عليها لا ينفع ولا يضر غيره وما ورد مخالفا لذلك ٢٤٦ و ٢٥٦
الانعام حمولة وفرش ١٣٩
« (راجع سورة)
« والحرث بين الله والاوثان ١٢٢
« والثمرات . اباحتهما ١٣٥
أهل السنة والجماعة ٢٥٤
« الكتاب . سريان الوثنية اليهم ١٤٦
أوربة توقع هلاكها بفساد أهلها ٤٠٦
« قسوتها ٤٦٤
الاولاد . قتلهم في الجاهلية ١٢٤
الاولياء من دون الله ٣٠٧

صفحه

الايام الستة لخلق العالم ٤٤٥
أئمة الضلال ٤١٤
الايمان . الآية التي ينتهي بها قبوله ٢٠٩
« كونه يستلزم العمل ٢١٢ و ٥٠٦

ب

الباطنية . دسائسهم في الاسلام ٢٢٥
البدع وانواعها ٤٢٨
بدع الجاهلية في الحج ٤١٩
« المقابر وصيرورتها شعائر ٢٦٩
البرهان . تعظيم القرآن له ٣٩٧
البشر . توليهم الشياطين ٣٧٦
« تحضير الارواح لهم ٣٨٣ و ٤٨٢
« خلقهم ثم تصويرهم ٣٢٨
« علاقة الملائكة والشياطين بهم ٣٨٢
« محاولة ايجادهم بالصناعة ١١٧
البعث . مباحثه ٢٨٣
« صفته وكونه كبدء الخلق وتشبيهه بالحياة النباتية وهل هو باعادة الاجساد باعيانها أو بمثلها وشبهة الكفار عليه وازالة العلوم الطبيعية لاستبعاده ٤٧٠ — ٤٨١
البغي والعدوان . حقيقتهما ٣٩٦
البلشفيك تسخير الله اياهم للمسلمين ٢٣٢
بلوغ الاشد والرشد ١٩٠
بنو اسرائيل . ما حرمه الله عليهم ١٧٠

ت

تاريخ وثنية العرب ١٤٥
التحريم حق الله لا يصح الا منه أو

صفحه

باذنه ١٤٣ و ١٤٧ و ١٦٤ و ١٨١ و ٣٩٩
« نوعان حكم تكليفي وحرمان قهري ٤٣٩
التخويف والوعيد بعد التبليغ ٣١٠
التذكر والذكر (معناهما) ١٩٣
التصوف والتشيع والباطنية ٤٢٨
التضليل والتكفير بلوازم المذهب ٦١
« التفرق في الدين ١٩٥ و ٢١٣ و ٢٢٨
« المسلمين « بدؤه » ٢٢٤
التفسير والاسرائيليات ٣٥٦
تفسير « خلقناكم ثم صورناكم ٣٢٨
« « ويوم نحشرهم » وأمثاله ٦٥
التقليد . بطلانه ومفاسده ١٦٩ و ٢٨٨
التقوى وأنواعها ١٩٧
التكليف قصره على الوسع ١٩١ و ٤٢٠
تلاوة القرآن بالتاثر والتاثير والبكاء والتباكي ٣٠١
التماثيل . سبب وضعها وعبادتها ١٩
التمكين في الارض « معناه » ٣٢٦
تنازع البقاء والحق والباطل ٦ و ٣٦
التوبة من الذنوب للافراد والامم ٣١٣
توبة آدم وكلماته فيها ٣٥٠
توحيدا الربوبية والالوهية ٢٤٥ و ٢٧٢
التوحيد . أساليب القرآن فيه ٢٧٢
« استنباطه من غريزة الفطرة ٢٧٣
التوراة والقرآن « التشابه بينهما » ٢٠٠
« قصة آدم فيها ٣٥٥
« مخالفة العلم لها في خلق العالم ٤٥٠
التوسل والشرك ٢٠٠ و ٢٥٠ و ٣٧٥ و ٤٥٩

صحفه

التوفيق والخذلان واختيار الانسان ٤٥

ث

ثم . العطف بها ٢٠٢
الثواب بتزكية النفس (راجع الجزاء)
« والتفضل ٢٣٦
« لا يتعدى العامل الى غيره ٢٥٦
« اهداؤه للموتى ٢٦٦
ثمود (قصتهم) وفيها بيان آية الله لهم « الناقة » وحضارتهم ومياههم وعذابهم وخطاب صالح لهم بعد هلاكهم ٥٠١ — ٥١٠
الثياب . وجوب لبسها ٣٨١

ج

الجاهلية . بدعها في الحج ٣٧٩
« تحريمها لبعض الحرث والانعام ١٢٧ و ١٣١
« شركها في التقرب لغير الله ١٢٣
« قتلها لاولادها ١٢٤ و ١٣٠
الجبر والقدر ٤٤ — ٦٢ و ١٧٩
« وكسب الاشعرية ١١٢ و ١٨٠
الجريد . وضعه على القبر ٢٦٤
الجزاء بحسب صفات النفس وتزكيتها ١٣٠ و ٢٣٧ و ٢٦٠
« على الاعمال القاصرة والمتعدية ٢٦١
« على العمل بعدل الله وفضله ٥٨
« الفرق بين الدنيا والآخرة فيه ٢٣٧
« للانسان بعمله لا بعمل غيره ٢٤٦ و ٢٥٦
« والبعث ٢٨٣
الجزاف والنظام في الخليقة ٥٠٦ و ٤٤٨

صفحه

الجن والانس استمتاع بعضهم ببعض ٦٦
الجنات المعروشات وغيرها والنخل والزرع
آياتها وفوائدها ١٣٢
الجنة . علة تحريمها على الكافرين ٤٣٩
« صفة أهلها ٤٢١ تخاطبهم مع أهل
النار ٤٢٣ و ٤٣٨ كونها ارثا ٤٢٢
« والنار في أرض واحدة ٤٣٤
جنة آدم ٣٤٥
جهنم . طرد ابليس اليها ٣٣٨
« مهادها وغواشيها ٤١٩
« الخلاف فى بقائها (راجع النار)

ح

حب الزينة وفوائده ٣٨٨
الحجاب بين الجنة والنار ٤٣١
حجة الله البالغة ١٧٧
حديث افتراق الامة ٧٣ ملة ٢١٨
حديث البطاقة ٣٢٤
الحرج . « معناه » ٤٣
الحسن والقبيح العقليان ٥٥
الحساب والسؤال ٣١٨
الحسنات ومضاعفتها ٢٣٣
حسين الجسر . رأيه في خلق الانسان
وبعثه ٤٧٣ و ٤٧٧
الحصر . الفرق بين النفي والاثبات وإنما ١٥٩
الحق . غلبته للباطل ٦ و ٣٦
حق الزرع والثمر يوم الحصاد ١٣٦
حقيقة الانسان ٤٧٨
حكم الله بين عباده نوعان ٥٣٦
الحكمة والعدل والرحمة والفضل ٩٨

صفحه

حكمة افتتاح بعض السور بالحروف المقطعة
٢٩٦ — ٣٠٢
حكمة الخلق والاستعداد للشر ٣٤٠
حكمة الله في الجزاء والخلود في النار الا
ما شاء ٦٨
الحلال والحرام في الذبائح ٢٥
الحمس في الجاهلية ٣٧٩
الحمولة والفرش من الانعام ١٣٦
الحمير . حكم أكل لحمها ١٥٤
الحنيف . « معناه » ٢٣٩
حواء . خلقها وشأنها مع آدم ٣٤٩
الحياة الدنيا ٢٩٢
« والممات لله وحده ٢٤٤
« النباتية والبعث ٤٧١
الحيوان . علم حفظه والمواليد ٢٩١
« رحمته والرفق به ٤٦٣

خ

الخبائث المحرمة وغير المحرمة ١٦٦
الخذلان الالهي ٤٥
الخروج على الظلمة وشرطه ٢٢٥
خسران النفس في الآخرة ٤٤٤
الخطأ في النظر في الدين والعذر فيه ٣٧٨
الخطاب الالهي لجميع الامم ٤٢٠
الخطاب الالهي تكليفي وتكويني ٣٣٩
خطوات الشيطان . النهي عن اتباعها ١٤٠
الخلق . إعادته كبدئه ٣٧٢ — ٣٧٥
« بنظام لا انف ولا جزاف ٤٤٨
« والتقدير والجبر ٤٤
« والامر ٤٥٥

صفحه

خلق السموات والارض في ٦ أيام ٤٤٦
« الناس ثم تصويرهم ٣٣٨
الخلود في النار (الا ما شاء ربك) ٩٥
خلائف الارض ورفع بعضهم على بعض ٢٥٠
الخلافة بالانتخاب وكونها مقيدة ١٠٣
الخنزير تحريم لحمه ١٦٦

د

دار السلام « الجنة » ٦٣
الدجالون . خرافاتهم والصاقها بالدين منفرعنه ٣٦٨
الدرجات والدركات الاعمال ١١٢ و ٤١٦
الدسائس الاجنبية في المسلمين ٢٢٧
الدعاء — شرعيته والاعتداء فيه وطلبه من الناس وكونه تضرعا وخفية وخوفا وطمعا ٤٥٧ — ٤٦١ الاخلاص فيه ٣٨٣
الدولة العثمانية . غرور المسلمين بها ٢٣٢
الدين اتخاذه لهوا ولعبا ٤٣٩
« إلصاق الخرافات به ٣٦٨
« بطلان التقليد فيه ٢٨٨
« بلوغ دعوته وشروطها ٣٨٧
« ترقيته للبشر ٥٢٩
« تفريقه والتفرق فيه بالمذهب والبدع ١٩٥ و ٢١٣ — ٢٣٢
« جزاء المفرقين له في الدارين ٢١٦
« حكم المخطىء في النظر فيه ٣٧٧
« السعادة بالعمل به ٢٥١
« ضعفه ومذاهبه اليوم ٢٢٦

صفحه

الدين الظالمون المفسدون فيه من اهله بالابتداع والتاويل وترك اقامة احكامه بالحق والعدل وجعل يسره عسرا ٤٢٨
« والعصبية الجنسية ٢٢٧
« الفرق بين المسلمين وغيرهم فيه ١٩٦
« كمال الفطرة به ٢٥٣
« لبسه على المشركين ١٢٦
« مكمل للعمران ٥٣٤
« هديه في التقشف ٣٨٦
« يسره وتعسير الفقهاء له ٤٢٠

ذ

الذبح لغير الله حرام أو كفر ٢٧
« للسلطان وحكمه ٢٥
الذكر والتذكر (معناها) ١٩٣
الذنوب . عقابها أثر طبيعي لها مطرد في الامم دون الافراد ١٧٤ و ٣١٣

ر

رابطة المشاكلة والعمل والاسم واللقب والزي بين الناس الخ ١٠٤
الرازي . رده على المعتزلة ٤٨
« رد تعليله لتحريم البحيرة والسائبة الخ ١٤٣
« رد شبهته على الجبر ١١٢
« رد قوله في الوعد والوعيد ١١٨
« رد قوله في حق الزرع ١٣٧
« كلام شيخه في تقديم الفقهاء كلام شيوخهم على كلام الله ١٦٩
الرأي والقياس . منعه في أحكام الدين

صفحه

لا الدنيا ٢١٩
الرب . انتظار اتيانه ٢٠٨
الربوبية . توحيدها ٢٤٥ و ٤٤٤
الرجس . معناه ٢ ٤٣
الرحمة تغلب الغضب ٨٢
« صفة الله والعقاب فعله ٨٨
« عند الماديين والمستعمرين ٤٦٣
« من يخرج بها من النار بعد الشفاعة ٩٣
« والغضب آثارهما ٨٦
« والعفو أحب الى الله من مقابلتها ٨٧
رحمة الله بالهواء والماء ٤٩٠
« « سعتها ١١٥
« « في الدنيا عشر عشر رحمته في الآخرة ٩٧
« « قربها من المحسنين ٤٦٢
الرحم وصفة الحمل ٤٨١
الرذائل . دركاتها ٥١٦
الرزق والكسب ١٨٦
الرسالة . شبهات الكفار عليها ٢٧٨
« فضل من الله ليست مكسوبة ٣٩
الرسل . اتباعهم خير حتى في الدنيا ٥٣٢
« بعثهم في جميع الامم ١٠٦ و ٤١٠
« بلوغ دعوتهم وشرطه ٣٧٨
« الغلو فيهم وحقيقة حالهم ٢٧٧
« كسائر البشر في الامور الكسبية ٢٨٢
« ما بلغوه لامتهم ٤١١
« نصر الله لهم ولاتباعهم ١٢١
« هل يكونون من الجن ١٠٥ و ١٠٦
الرسول حكمة جعله بشرا ٢٧٩
« ووظائفه ٢٧٦

صفحه

و ٤٩٥
الروافض . سبب لقبهم ٢٢٥
الرؤساء المضلون ٤١٤
الرياح والسحاب والمطر ٤٦٦
« أسبابها ومنافعها ٤٨٨
« تلقيحها للنبات ٤٩٠
الرياش واللباس ٣٥٨

ز

الزار . خرافته ٣٦٩
الزنادقة ظلمهم وتعويجهم لسبيل الله ٤٢٨
زيد بن علي . موالاته للشيخين ولون أتباعه فدائية ٢٢٤
الزينة . وجوب أخذها عند المساجد وايجاب الاسلام لها وانكاره لتحريمها وكون غريزة حبها من أسباب العمران وكون المؤمنين أحق بها في الدنيا وخالصة لهم في الآخرة — وما ورد من الاخبار فيها ٣٨٠ — ٣٩٢

س

سباع الوحش والطير . حل أكلها ١٥٧
سبيل الله بغيها عوجا ٤٢٧ — ٤٢٩
« « الاضلال والصد عنها ١٥ و ٥٣٦
سجود الملائكة لآدم ٣٢٩
السحاب والمطر ٤٦٨
السلطان (معناه) ٣٩٧
السلف . مذهبهم واتباعهم ٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤
سن الرشد وبلوغ الاشد ١٨٩

صفحه

السعادة بالدين ومراعاة سنن الخلق ٢٥١
السلف ٤٠ و٥٠ و٥٣ و١١٦ و٢١٥ و٢٢٢ و٢٥٤ و٢٥٧ و٢٦٤ و٤٠٠ و٤٢٨
سنن الله في الخلق لا تتبدل ١٢ و ٢٦
« في الشقاوة والسعادة وافتتان بعض الناس ببعض وحياة الامم وموتها ٢٨٧
السنن والاقدار لا تنافي الاختيار ٢٨٦
سنة الرسول من المنزل عليه ٣٠٩
سنة الله في اهلاك الامم ١٠٩ و ٤٠٦
« « « تنازع البقاء و بقاء الامثل ٦
« « « الاعمال والاعمار ٦٠
« « « أكابر المجرمين مع المصلحين ٣٣
« « « السابقين الى الاصلاح ٥٠
« « « سوء عاقبة الماكرين ٣٥
سؤال الله تعالى للامم والرسل ٣١٥
« العباد ربهم عن فعله وحكمه ٥٧
السؤال والحساب . أحاديث فيهما ٣١٨
السور الذي بين الجنة والنار ٤٣٠
سورة الاعراف ومناسبتها لما قبلها وحكمة افتتاحها بالحروف المخصوصة هي وامثالها ٢٩٤ — ٢٩٦
السياحة . أحكامها وحكمتها ٢٨٩
السياسة ستجمع المسلمين كما فرقتهم ٢٢٦
السيد الافغاني . ايقاظه للمسلمين ٢٢٨

ش

الشبهات على الوحي والرسالة ٢٧٨ و٤٩٥
شبهات المشركين على تحريم الميتة ٢٣
« في فعل الفاحشة ٣٧٣
الشبهة على الدين بدوام العذاب ٩٩

صفحه

شجرة آدم ٣٤٦
الشر . كونه لا يضاف الى الله ٨٩ و٣٤٠
شرح الصدر للاسلام وضيقه ٤٢
الشرع حق الله وحده ٣٩٨ — ٤٠١
الشرك اكبر المحرمات وأشدها إفسادا للعقل ١٨٤ و ٣٩٧
« بالتقرب الى الله وغيره ١٢٣
« والتوسل والوسيلة ٣٧٥ و ٤٥٩
« لا يقتضي هلاك الامم كالظلم ٥١١
شعيب قصته ٥٢٦ — ٥٣٨
الشفعاء . تمنيهم يوم القيامة ٤٤٢
شكر النعم وقلة الشاكرين ٣٢٧
الشمس . طلوعها من مغربها ٢١٠
« والقمر . تسخيرهما ٤٥٤
الشورى في الاسلام ٥١٠٢
الشياطين . اتخاذهم أولياء ٣٧٦ تأثيرهم في النفس كتأثير الميكروبات في الجسم ٦٧
« كونهم من الانس والجن وعداوتهم لدعاة الخير ووحي بعضهم لبعض زخرف القول كالشبهات ٧ و٢٣
« والصرع ٣٦٩
الشيطان . علاقته بالناس ٣٤٢
مجيئه للناس من الجهات الاربع ٣٣٧
وسوسته لآدم ٣٤٧ ولايته للكفار ٣٧١
الشيعة والباطنية ٢٢٥ و ٤٢٨

ص — ض

صالح عليه السلام . قصته ٥٠١ — ٥٠٩
الصالحون . تعظيمهم سبب الوثنية ٢٠ و٢٥

صفحة

الصحابة. أسباب تقشفهم ٣٨٦
« والخلافة ١٠٣ و ٢٢٤
الصحابة فهمهم لآيات الصفات ٤٥٢
« من قال منهم بخلود النار وفنائها ٧٣
صدف عن الشيء معناها (معناها) ٢٠٦
الصدقة . الاسراف فيها ١٣٨
صراط الله المستقيم ١٩٤ و ٢٣٩
(راجع سبيل الله)
الصلاة لله ٢٤١
الصليب والهلال . قاعدة الانكليز فيهما ٢٣١
الصرع وشفاؤه ٣٧٠
الصور . النفخ فيه والصعق ٣٣٦
الصوفية والباطنية ٤٢٨
ضلال أكثر الناس ١٥
ضلال المفترين على الله ١٤٤
الضلالة والهدى من الله ٣٧٥
الضرورة التي تبيح الميتة ١٩

ط – ظ

الطب الروحي . فضله على الجسدي ٣٦٧
الطعام محرماته بنص القرآن وبالاحاديث وأقوال الفقهاء ١٥٠
طلوع الشمس من مغربها ٢١٠
الطيبات . انكار تحريمها ٣٨٧
ظاهر الاثم وباطنه ٢١
الظالمون . تولي بعضهم بعضا ١٠٠
« الخروج عليهم ٢٢٥
« فرقهم المفسدون في الدين ٤٢٨
« لانفسهم وللناس ١٠٤

صفحة

الظالمون . لعنهم يوم القيامة ٤٢٦
« هم المجرمون الكافرون ٤٢٠
الظلم . أشد الافتراء على الله بالتشريع ١٤٤
« اهلاكه للامم ١١ و ١١٩ و ٢٩١
الظلم نفيه عن الله وتعلق قدرته به ٢٣٤
الظن . اتباعه ١٥ و ١٧٧

ع

عالم الغيب من عقائد الدين ٢٨٤
العبادة . معناها ١٤٦
عبادة القبور بدل الصور والتماثيل ١٤٧
العبادات اهداؤها الى الموتى بدعة ٢٤٩
عبد القادر الجيلي . كلمة جليلة له في اقبال الدنيا وهي حقيقة الزهد ٣٩٣
العترة والخلافة والامويون ٢٢٤
العدل . وجوبه في القول كالفعل ١٩٢
عدل الله وفضله في جزاء العمل ٥٨
العذاب مضاعفته ٤١٤ – ٤١٧
عذاب جهنم لا رحمة ولا حكمة في دوامه ٩٩
« « تحديده بيوم ٩١
العرب . استخباثها لا يقتضي التحريم ١٦٥
« . الاشارة الى خداع زعمائهم الحجازيين لهم ، وما في اتباعهم من الخطر عليهم ٢٣٠
« تاريخ وثنيتها ١٤٥
« عدلهم ورحمتهم ١١٧
العرش واستواء الرب عليه ٤٥١
العصبية الجنسية والدين ٢٢٧
العصبية الطورانية . عداوتهم للاسلام والعرب ٢٢٩

العقل والايمان الصحيح ٢١٢ و ٢٧٣
علماء الرسوم . جهلهم حتى بالتوحيد ٢١١
العلماء المنعمون في الدنيا ٢٢٣
العقاب فعل الله والرحمة صفته ٨٨
علم الاجتماع والمواليد ٢٩٠
العلم والحكمة . تعظيم شأنهما ١٤٤ و ٢٧٣
« الطبيعي . تقريبه أمور الآخرة وعالم الغيب ١١٧ و ٢٨٤
العمائم . جهل كثير من حملتها ٢٥١
العمل الاختياري والقدر ٢٨٦
« جزاؤه للعامل دون غيره ٢٤٨
العلوم الصحية والاسلام ٤٠٩
علي ومن قدمه في الخلافة ٢٢٤
العمر الطبيعي والحقيقي ٤٠٨

غ

الغر والغرور . معناهما ٩
الغرور بالدنيا ١٠٧ و ٢٩٢
غضب الله ورحمته ٨٢-٨٩
غنى الله وفقر العالم اليه ١١٤
غريزة الفطرة والايمان ٢٧٣
غشيان الليل النهار ٤٥٣
الغفلة عن اسباب هلاك الامم ٣١١
الغلمان الحسان . النظر اليهم ٥٢٣
الغلو في الدين ومضاره ٤٢٩
الغلو في الرسل ٢٧٧ و ٢٨٢
الغيب . تقريب العلوم الطبيعية للايمان به ١١٧ و ٢٨٤

ف

الفاحشة . التقليد فيها وادعاء امر الله بها ٣٧٣
الفتنة في كسر دول المسلمين ٧

صفحة

الفرس . افساد قدمائهم في الاسلام ٤٢٨
« تسخير الروس لدولتهم ٢٣١
فرق المتكلمين وسبب اختلافهم ٤٤
الفرقة الناجية من ٧٣ فرقة ٢٢١
الفسق من الذبائح ٢٤
الفصل والوصل في الآيات المتشابهة ٣٤٣
الفضائل . أصولها ١٨٣
الفطرة . تدنيسها ٨٣
« تكميلها بالدين ٢٥٣
« الرجوع اليها في الايمان ٢٧٣
فقر الخلق وغنى الله وحده ١١٤
الفقهاء . تأويلاتهم الباطلة ١٥٨
« تعسيرهم الدين ٤٢٠ و ٤٢٩
الفواحش ماظهر منها وما بطن ١٨٦
« والاثم والبغي ٣٦٥

ق

قاعدة في حلال الذبائح وحرامها ٢٥
« فيما نهت عنه الاحاديث من الاطعمة ١٦٣
« في كون جزاء كل أحد بعمله لا بعمل غيره ٢٤٦
« لليسر وحصر التكاليف في الوسع ١٩١
القبور . عبادتها ١٤٧ و ٢٦٩ و ٤٢٨
قتل الاولاد في الجاهلية ١٢٤ و ١٨٦
القتل والقتال . الاحسان فيهما ٤٦٣
« . النهي عنه ١٨٨
القدر والقدرية والجبر ٤٢ و ٤٨ ـ ٦٢ و ١٠٠ و ١١٢

صفحه

القرآن آية مشتملة على آيات ٢٨٠
« احكامه المؤكدة لا تنسخ ١٦١
« احوال المسلمين فى الاعراض عنه وترك هدايته ٤٤ و ١٠٤ و ١١١ و ١٦٩ و ٢٥١ و ٣١٤ و ٤٠٧
« اخباره بالغيب ١٧٥
« اخراجه من العرب جاهليتها ٣٠٣
« أساليبه فى العقائد الالهية ٢٧١
« « « اثبات الرسالة والوحى ٢٧٤
« « « البعث والجزاء ٢٨٣
« استنباط النبي الاحكام منه ٣٠٩
« أصل لقواعد النحو لا فرع ١٦ و ١٨٤
« الاصول العلمية والعملية فيه ٢٨٥
« اعجازه ببلاغته (راجع بلاغته)
« « ببيان المجهولات ٤٤٧ و ٤٥٤
« أفراد آياته وطوائفها وتناسبها في العطف ٣٧٠
« اقتراح المشركين لآيات غيره ١٨٠
« أقوى حجج الرسالة ١٠ و ٢٨٠
« انتظار تأويله ويوم تأويله ٤٤٢
« انذار الرسول به ٣٠٣
« انزاله هداية لجميع الخلق ٣٠٥
« اهداء ثواب تلاوته للموتى ٢٦٦
« إيجازه المعجز ٧٣
« براعة خواتيم سوره كفواتحها ٢٣٨
« والبراهين العقلية ٣٠٩
« بلاغته في اختلاف التعبير عن المعني الواحد ٩ و ١٨٦

صفحة

القرآن بلاغته في ائتلاف فواصله واختلافها ١٩٧
« « في الحصر بانما و بالنفي والاثبات ١٥٩
« « في دقة التعبير وتحديد الحقائق ٩ و ١٨٦
« « العطف ٣٧ و ٢٠١ و ٥١٥
« « في مخالفة الاعراب المعهود ١٦
« « في الفصل والوصل ٣٤٣
« « وضع اسمي الجلالة والرب في مواضعهما ٩
« بيان الرسول له ٣٠٩
« بيانه للحقائق المجهولة ٤٤٧ و ٤٥٤
« بينة وهدي ورحمة ٢٠٥ و ٤٤١
« التاثير والتأثر بتلاوته ٢٩٩
« تخصيص عموماته بالقياس ٣٠٩
« التشابه بينه و بين التوراة ٢٠٠
« تعظيمه لامر البرهان ١٧٧ و ٣٩٧
« « لشان العلم والحكمة ١٤٤ و ١٧٧ و ٢٩٠
« تفضيل الله اياه على علم ٤٤١
« تقديم كلام المشايخ عليه ٤٤ و ١٥٨ و ١٦٩ و ٢٨٨ و ٣١٤
« التناسب بين آياته (راجع أول الكلام بعد الآيات المشكولة)
« « سوره ٢٩٥
« جعله عضين بالمذاهب ٤٤ (راجع المذاهب)
« جهل المسلمين اياه ٢٥١
« حثه على علم سنن العمران ٢٩٠

صفحة

القرآن حفظ الله اياه دون سائر الكتب ١٤
« حكمة افتتاح السور المخصوصة فيه بالحروف المقطعة ٢٩٦ — ٣٠٢
« خلوه من النص على عدم فناء النار ٧٩
« دلالته على كروية الارض ودورانها ٤٥٤
« شبهة تعارضه وردها ٥١٤
« طعن المشركين فيه ٢٨٠
« علم الاجتماع فيه ١١١ و ٢٩٠
« علم أهل الكتاب بحقيته ١١
« والعلوم الكونية ٣٩٣ و ٤٤٧ و ٤٥٦
« قراءته للموتى وعليهم ٢٦٦
« كونه أصل حضارة الاسلام وفنون المسلمين ٣٩٣
« كونه من عند الله ٢٨٠ و ٣٠٣
« « هداية عامة ٢٠٤ .
« مالا يجوز نسخه منه ١٦١
« ما يجب في الانذار به ٣٠٤
« نفي الحرج عن صدر الرسول للانذار به ٣٠٣
« وصاياه العشر ٢٠٣
« وصاياه المؤكدة المكررة بالوالدين ١٨٥
« وصفه بأنه حق وبصائر للناس وهدى ورحمة الخ ٢٠٥ و ٢٧٥
القراءة عند الحتضر والميت عند الدفن ٢٦٧
القربين لله عبادة ولغيره شرك ٢٤٢
قريش . بدعها في الحج ٣٧٩
القرية معناها ٥١٠
القسوة في استعمار أو ربا ٤٦٤
قصة آدم ٣٤٥ شعيب ٥٢٥ صالح ٥٠٢

صفحة

لوط ٥١٠ نوح ٤٩١ هود ٤٩٦
القول على الله بغير علم ٣٩٨ — ٤٠١
القياس . تخصيص عموم القرآن به ٣٠٩
« منعه في أحكام الدين لا الدنيا ٢١٩

ك

الكرم والنخل وحب الحصيد . فوائدها ١٣٣
الكتب والرزق ١٨٦
كعب الاحبار . رواياته ١٠٣ و ٤٤٩ و ٤٨٠
الكفار . اتخاذهم دينهم لهوا ولعبا وغرورهم بالدنيا ٤٣٩
« استجداؤهم لأهل الجنة ٤٣٨
« تحريم الجنة عليهم ٤٣٩
الكفار تمنيهم يوم القيامة الشفاعة والعودة الى الدنيا ٤٣٤
« طلبهم الآيات من الرسول ٢٨٠
« نسيان الله لهم في جهنم ٤٤٠
الكفر . الجزاء عليه ٢٣٦
كلمة الله ، معناها وتمامها صدقا وعدلا وكونها لا مبدل لها ١١ — ١٤
الكماليون . آيات الله للمسلمين بنصرهم ٢٢٩
الكيل والوزن . ايفاؤهما ١٩٠ و ٥٢٥

ل

اللباس والرياش . امتنان الله بهما ٣٥٨
« وجوبه ٣٨١
« تمدن الاسلام الناس به ٣٨٢
لعن الظالمين في الآخرة ٤٢٦
لوط قصته مع قومه ٥٢٠ — ٥٢٤
اللواطة . وابتلاء المترفين بها وحظرها وعقابها ومضارها وكونها من

صفحة

سيئات الحضارة ومفاسدها ٥١٣ — ٥٢٤
الليل — غشيانه النهار ودلالة ذلك على كروية الارض ودورانها ٤٥٣

م

الماديون . عدم الرحمة ضعفا مذموما ٤٦٣
المبتدعون في الاسلام ٢٢٨
المتكبرون وتحقيرهم في الآخرة ٣٣٤
المتكلمون . الرد عليهم ٤٦ و ٥٠ و ١١٢ و ١١٨ و ١٧٩ و ٢٥٥
مثل المؤمن والكافر ٤٢٨
المجرمون ومكرهم بالمصلحين ٣٢
المحتضر والميت (القراءة عندهما) ٢٦٧
محمد عبده ٢٢٣ ر ٢٢٨
المحرمات . أصولها ١٨٣
محرمات الطعام ١٩٠
المخطيء في النظر الديني . حكمه ٣٧٧
المخلوقات مظهر الاسماء والصفات الالهية ٣٤٠
المذاهب تفريق واضاعة للدين ١٩٥
« تقديمها على الكتاب والسنة ٤٤ و ١٥٨ و ١٦٩ و ٢٥٥
« ثباتها بالحكام والاوقاف ١٦٩
« ضعفها اليوم ٢٢٦
« في الصفات الالهية واستخلاف الصالحين وجزاء الآخرة ١١٦
المذنب اعترافه بذنبه عند عقابه ٣١٢
مذهب السلف ٥٠ و ٥٤ و ١١٦ و ٢٦٤
مسألة أفعال العباد وأفعال الخالق ٥٦

صفحة

المسلمون آدابهم مع المخالفين لهم ٢٩٢
« أحق بالزينة والطيبات من الكافرين ٣٩٠
« أسباب تفرقهم وما آل اليه ١٦٩ و ٢١٧
« انكسار دولهم فتنة ٧
« بدء تفرقهم ٢٢٤
« اتخاذهم وتوليهم لاعدائهم ومعاملتهم لحكومتهم ١٠١ — ١٠٥
« تركهم لهداية القرآن ٤٤ ر ١٠٤ ر ١١١ و ١٦٩ ر ٣١٤
« جهلهم بتاريخهم ودينهم ٢٥١
« غرورهم بالدولة العثمانية ٢٢٨
« فرقتهم السياسة وتجمعهم ٢٢٦
« فسادهم بفساد العلماء ٢٥١ و ٣٩٩
« « بالملوك والرؤساء ١٠٢
« « بافساد الاجانب لهم ٢٢٧
« مخالفتهم للاسلام ٣٩٤ و ٤٠٧
« المصلحون فيهم ٢٢٨
« نصر الله لهم ٨ ر ١٢٠
المشاكلة أقوى رابطة من المشاركة باللقب ١٠٤
مشركو مكة وصفهم ٢٧٣
المشركون اعتذارهم عن الفاحشة بالتقليد ٣٧٣
« طلبهم الآيات والحجة عليهم ٢٨٢
« لعنتهم في عدم الايمان ٣٨
« مطالبتهم بالشهداء على تحريم الله لما حرموا ١٨١
المشيئة الالهية احتجاج المشركين بها على

	صفحة
الشرك وتحريم ما لم يحرم الله	٨ ر ١٧٦
المشيئة الالهية اعتذار الجبرية والفساق بها	٤ ر ٨
« « والاسباب والسنن	٤ و ١٢٦
« « ورضاه تعالى وسنته في خلق الانسان مختارا	١٧٨
المطر من السحاب	٤٦٩
المعايش. جعل الله اياها	٣٢٧
المعتزلة . مذهبهم في التوفيق والخذلان	٤٦
« « في الصفات	١١٦
« « في الوجوب على الله	٥١
المعشر. معناه	٩٥
المفسرون . سبب أغلاطهم	١٨
مقام الالوهية وأوامرها	٣٧٤
المقلد الذي لا يعذر	١٦٧
« « يضاعف له العذاب	٤٩٥
المقلدون تعصباتهم لمذاهبهم وتأويلاتهم وجهلهم وايثارهم كلام الشيوخ على كلام الله ورسوله	١١٦ و ١٥٨ و ١٦٩ و ٢٥٥ و ٢٨٨ و ٤٢٨
« في الفواحش والخرافات	٣٧٣
المكر معناه	٣٣
عاقبة أهله	٣٥ و ٤٠
ملة ابراهيم وأتباع النبي لها	٢٣٩ .
الممات والحياة لله	٢٤٤
الملوك ـ افسادهم للامم	١٠٢
مناظرة الاشعري للجبائي	٤٧ و ٥٢ و ٥٩
المنكر والسكوت عنه في مصر والترك	٥٣٧
المواعظ تصديقها وعدم الاعتبار بها	٤٠٧
الموتى . عدم انتفاعهم بعمل غيرهم	٢٦٨
المؤمن. انتفاعه بعد الموت بعمل ولده	٢٤٧
« والكافر . مثلهما	٢٩
الملائكة سجودهم لآدم	٣٣٩
« علاقتهم بالناس	٣٤٢

ن

	صفحة
النار. الاستثناء في خلودها وتعليله بالمشيئة	٧٤
« استعجاد أهلها لاهل الجنة	٤٣٨
« الخلاف في دوامها والآثار والروايات والمذاهب في فنائها	٦٨ — ٩٩
« الرد على منكري فنائها من ٢٥ وجها	٧٨ — ٩٨
« القول بابديتها وأدلته	٧٧ و ٧٨
« تخاصم أهلها فيها وتلاعنهم	٤١٣
« تفويض أمر فنائها و بقائها الى ارادة الله	٩٨
« لا رحمة ولا حكمة في دوامها	٩٠
الناس. ابتلاء بعضهم ببعض	٢٩٢
« سعادتهم بالدين وسنن الخلق	٢٥١
نبينا أول المسلمين	٢٤٤
« بيانه للكتاب وكون سنته في الدين وحيا	٣٠٩
« تسليته عن عداوة المشركين له	٥ و ٢٧٣
« تعجيز المشركين له بطلب الآيات	٢٨٠
« صفاته و وظائفه وكونه غير وكيل على الناس ولا مسيطر ولا جبار	٢٧٦
« معنى اتباعه لملة ابراهيم	٢٣٩
« نصر الله له كما وعده	٨ ر ١٢٠
« نهيه عن حرج الصدر بالقرآن لاجل الانذار به	٣٠٣

النحاة . تطبيق قواعدهم على القرآن
لا العكس ١٨٤
النخل . فوائده ١٣٣
النسك والقرابين لله عبادة ولغيره شرك ٢٤٢
نصر الله للرسل وأتباعهم ٩٨ و١٢
النصيب من الكتاب معناه ٤١٢
النظام والجزاف في العالم ٤٤٨
النعم . شكرها وقلة شاكريها ٣٢٧
« والنقم . ابتلاء الناس بها تربية ٢٥٣
نفخة الصور وأسماؤها ٣٣٥
نوح قصته وموضوع رسالته ٤٩١ – ٤٩٥

هـ

هداية الاسلام وأحكامه إصلاح لجميع البشر ٢٠٥
الهواء والريح وأنواعهما ٤٦٦ و ٤٨٨
« صفته ومنافعه ٤٨٣ – ٤٨٧
« والماء من رحمة الله تعالى ٤٩٠
هود . قصته ٤٩٦ – ٥٠٠
هلاك الامم بالظلم دون الشرك وحده ١١٠
« « باجالها ٤٢٣

و

الوالدان . انتفاعهما بعمل أولادهما عنهما ٢٤٧ و ٢٦٨
الوالدان الوصية بهما وكونها لا تقتضي ان يكون الولد كالعبد لهما ١٨٥
وثنية العرب ١٤٥
الوثنية وضروبها ٢٠
الوثنية سريانها لاهل الكتاب والمسلمين ١٤٦
وحي الشياطين ٢٢
الوحي . حقيقته وموضوعه ٢٧٤
« شبهات الكفار عليه ٢٧٨
الوزن والكيل . وفاؤهما ١٩٠ و ٢٥٢
وزن الاعمال في الآخرة ٣١٩ – ٣٢٤
وسوسة الشيطان لآدم ٣٤٧
الوسيلة والتوسل (راجع التوسل)
الوصايا العشر في القرآن والتوراة ٢٠٣
وظائف الرسول ٢٧٦
الوعد . معناه ٤٢٥
« والوعيد . قول الرازي فيهما والرد عليه ١١٨
الوعد والوعيد والتخويف ٥١٠
الوعيد تخلفه عفو وكرم ١٣ و ٩٦
ولادة الانسان . صفتها ٤٨٢
« الظالمين للكافرين ٣٧١
ولاية الشياطين بعضهم لبعض ١٠٠
« الله للمؤمنين ٦٣ و ٣٢٨

ي

يس . حديث قراءتها على الميت ٢٦٥
يسر الدين وتيسير الفقهاء له ٤٢٠
اليتيم . بلوغ أشده ورشده ١٩٢
اليسر في الشرع . قاعدة له ١٩١
اليهود . ماحرم عليهم ببغيهم ١٧١ – ١٧٣
يوم نفعل كذا (معناه) ٦٥
« القيامة ويوم العذاب . كمن التعبير به يفيد تحديد مدة العذاب ٩١

﴿ تنبيه ﴾ ماذكرناه في ص ٢٣٠ من معرفة قيمة الترك الكماليين بقيمة الرابطة الاسلامية وسميهم لجمع كلمة المسلمين قد تبين انه كان مؤقتا وان الكماليين نفضوا أيديهم من السياسة الاسلامية وحكومتها

﴿ جدول الخطأ وصوابه في الجزء الثامن من التفسير ﴾

(عثرنا على اغلاط مطبعية فبيناها هنا لاجل أن تصحح بالقلم وأكثرها سقوط حرف أو نقط أو شكل أو خفاؤها أو تقديم أو تأخير فيها)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٣	الموني	الموتي
»	»	عيم	عليم
١٥	٢	فصل	فصّل
»	٤	عم	علم
١٦	٨	بلاد	لبلاد
٤٢	٤	ستقلال	استقلال
٤٦	٢٤	يكون	يكونون
٥٤	٥	هذا في	في هذا
٥٤	٢٣	منها	منهما
٥٥	٢٥	الفعل	العقل
٥٦	٧	إن	أن
٥٧	٥	حودات	حوادث
٦٢	١٠	إنك	ربنا إنك
٦٨	٢٢	فهي	فهو
٨٢	١	لم يدخلها	يدخلها
٨٩	٦	دام	دائم
٩٤	١٠	تبلغه	تبلغها
١٠٥	١٣	تطرحة	تطرحه
١١٩	١٢	الحسي	الحسنى
١٢٩	٢٢	لمستكن	المستكن
»	٢٤	حزاء	جزاء
١٣٤	٥	عالم	وعالم
»	٧	ببيان	لبيان
١٤٥	١٦	خراعة	خزاعة
»	٢١	قصبة	قصبه
١٤٦	٢٣	ذكر	أذكر
١٥١	١٢	الدم	من الدم
١٥٢	٣	يحرمونه	يحرمونها
»	٢٨	والنبهة	والنهبة
١٩٠	٢٨	افيا	وافيا
١٩٥	٢	فعليكم	عليكم
٢٠١	١	ن	أن
٢٠٢	٦	الا قي	الترقي
٢٢٢	٢٢	يؤلون	يقولون
٢٢٤	٢٦	على	عليا
	و ٢٧	المرتصى	المرتضى
٢٣٢	٧	من	عن
»	٩	بشه	بثته
٢٣٣	٢٢	فتناول	فتتناول (١)
٢٣٨	٦	ثم ،	، ثم
٢٣٩	١٣	الصرط	الصراط
٢٤٤	٥	لمشركون	المشركون
»	٢٣	والاخرة	الآخرة
٢٥٥	٢١	تزكى	يتزكى
٢٥٦	١٣	الرواية	الراوية
٢٦٠	٣	ما علم له	ما لا علم له

(١) هذا ايضاح لا تصحيح فان حذف احدى تائي تتفاعل وتتفعل جائز فتناول مفتوح التاء مرفوع اللام لانه مضارع

obeikandi.com

﴿ جدول الخطأ وصوابه في الجزء الثامن من التفسير ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
»	٢٧	لكان	ولكان
٢٦٣	١	اسحق السراج النيسابوري وقد (١)	
٢٦٥	٤	نيل	بلوغ
»	١٩	وقد	قد
٢٧٠	٥	المائدة	الانعام
»	١٨	ومع	مع
٢٨٢	٥	هي في	في
٣٠١	١٨	فتبالو	فتباكوا
٣٠٢	١٩	الحوى	الحربي
٣١٥	١	لذين	الذين
٣١٨	١٢	عن	عبد
»	«		يوم القيامة (٢)
»	١٤	حتى يسئل	من عند ربه حتى يسئل
»	٢٠	عن	عبد
٣٢٤	٢٥	بالكذب	بالكذب يكفي
٣٢٨	٥	انظرني	أنظِرْني

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٣٠	٧	لآ مع	لآدم مع
٣٣٣	(اعلى الصفحة)	الى	من
٣٤٢	٢١	تقو	تقوى
٣٥٢	٤	ومتم	ومتاع
٣٥٦	٦	الاسرائليات	الاسرائيليات
٣٥٨	١	ادم	آدم
٣٦٩	٢٨	كل تنكر	تنكر كل
٣٩٨	٢٤	العوم	العوام
٤١٧	١٨	غاويين	غاوين
٤١٨	٢	سم	سَم
٤١٩	١	السائلين	السائلين
٤٢٣	٢٣	نادوا	ونادوا
٤٣٩	١١	يا رسول	يارسول الله
٤٤١	٢	تا يله	تاويله
٤٤٤	١٢	تمرك	تأمرك
٤٧٢	١٨	قرية	قوية
٤٩٠	٢٦	لغد	لقد
٥٠١	١٧	و بوأكم	وبوّأكم

(١) هذه الكلمات زائدة كانت من كلام حذف من الاصل و بقيت سهوا فيجب ترميجها (شطبها)

(٢) سقطت كلمة « يوم القيامة » من نسخة الترمذي المطبوعة في الهند وكذا كلمة « أربع » بعد « يسئل عن » وانما أثبتناهما تبعا لمن نقل عنه الحديث من العلماء باثباتهما كالسفاريني وغيره